فريق
متميزون
E-BOOK

رسائل الخوف

قصص مذهلة تدور أحداثها في الكويت

م. عبدالوهاب السيد الرفاعي





الطبعة الثامنة

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

رسائل الخوف

عبد الوهاب السيد الرفاعي

تنويه

يسألني القراء باستمرار ودون توقف عن مدى واقعية القصص التي أكتبها.. ولهؤلاء الأعزاء أقول: أعتذر بشدة عن الإجابة لأسباب لا مجال لذكرها.

مقدمة.. ليست كأي مقدمة

عزيزي القارئ.. إنني أكره العبارات الدعائية من طراز (إن قصصي ستسبب لكم صدمة) أو (إن تجاربي ستحبس أنفاسكم من هول الغموض والإثارة).. لأن تلك العبارات عادة ما تحرك رد فعل عدائي لدى القارئ.. لكن.. ما ذنبي إن كانت قصصي بالفعل (ستسبب لكم صدمة) أو (ستحبس أنفاسكم)؟ !!.. فأنا على ثقة تامة أن ما مررت به في حياتي غريب إلى درجة لا تصدق!!.. وأنني قد عشت سنوات ليست بالقليلة وسط غابات من علامات الاستفهام.. أتركها بين الحين والآخر لأرحل إلى غابات أخرى من علامات التعجب!!!.

المعذرة.. نسيت أن أعرفكم بنفسي.. اسمي (خالد سليمان ال...).. وقد نشرت جزءا من مذكراتي سابقا في كتابين حملا اسم (الأبعاد المجهولة) و(الأبعاد المجهولة 2).. كما أن لي رواية كاملة بعنوان (أخوة الدم) في كتاب (في الجانب المظلم).

مهلا!!.. إن الإصدار الذي بين يديكم ليس جزءا جديدا ل(الأبعاد المجهولة).. فالقصة ذات الأجزاء هي التي لا يكتمل معناها إلا في الجزء الثاني أو الثالث.. أما قصتي القادمة فهي مكتملة ولن تتطلب منكم الاطلاع على تجاربي السابقة.

ولكن رغم ذلك.. أرجوكم دعوني أعيد بعض المعلومات الأساسية عن نفسي.. خاصة لهؤلاء الذين يقرؤون لي لأول مرة.. فمن حقهم أن يعرفوا شيئا عن مستضيفهم.

إنني شاب عادي جدا.. في الرابعة والعشرين من العمر.. يتيم الأبوين.. أعيش مع أحب وأطيب امرأة عرفتها في حياتي والتي أدين لها بكل شيء تقريبا.. جدتي الحبيبة (فاطمة).. وهي امرأة مسالمة وديعة طيبة القلب فعلت كل ما تستطيع من أجل تربيتي.. بل وألحقتني بإحدى أفضل المدارس الخاصة في (الكويت) كي أحصل على أفضل مستوى تعليمي.. خاصة وأن حالتنا المادية لا بأس بها على الإطلاق.. إذ نملك عمارة سكنية اشتراها والدي لجدتي قبل وفاته لحسن الحظ.. ونعيش حاليا من دخلها الشهري.

ولم أكن لأخيب أمل جدتي الغالية بعد كل هذه الرعاية.. فكنت أفعل كل ما بوسعي كي أكون طالبا متفوقا لامعا جديرا بأن أوضع في لوحة الشرف وبشكل متواصل.. وكثيرا ما سمعت أساتذتي يصفونني بالنابغة.. أو العبقري.

وبالطبع فإن هذا قد أدى إلى تخرجي من المرحلة الثانوية بمعدل مرتفع للغاية أهلني للالتحاق بكلية الطب في جامعة (الكويت).. والتي لا زلت أواصل فيها مشواري الدراسي بنجاح ولله الحمد.

ويعرف كل الذين قرءوا مذكراتي السابقة أنني إنسان هادئ الطباع أمتلك عالما ذاتيا ثريا.. ومرهف الحس إلى أقصى درجة.. كما أنني قارئ من الطراز الأول.. حيث تعلمت من القراءة المستمرة الهدوء والتواضع.. وهذا جعلني أعيش صراعا رهيبا بين ما يعيشه الشباب من حياة فارغة وضحالة فكر.. وبين ما أرسمه لنفسي كإنسان مثقف متزن أحلم بالحصول على شهادة علمية عليا.

هذا الصراع والإحساس بالغربة جعلاني شخصا انطوائيا مكتئبا متجهما بشكل دائم.. ربما لهذا تخلو حياتي نهائيا من الأصدقاء.. ولو كنا في القرون الوسطى لوجدتموني أعيش في قلعة مهجورة

من قلاع (اسكتلندا).. فلا أشاهد أحداً ولا يعرفني أحد.

ومن المؤلم الاعتراف بأنني إنسان ضعيف الشخصية معدوم الثقة بالنفس.. حزين دائما.. بل وخائف دائما.. فعندما يمر علي شريط حياتي.. لا أجد نفسي فيه!!.. تصوروا هذا!!.. لأنني أراقب العالم وأنا مختبئ.. والسبب هو الشعور الدائم بعدم الأمان.. إذ أشعر أحيانا كثيرة أنني سمكة صغيرة تسبح داخل معدة حوت هائل.. فمهما أحاول الهرب.. أظل في بطن الحوت حتى أموت!!.. أريد أن أعيش بأمان.. أريد أن أكون كالقرد الذي لا يترك غصنا أثناء تنقله بين الأشجار قبل أن يمسك غصنا آخر!!.. هذا هو الأمان الذي أبحث عنه ولا أجده.

أما عن صفاتي الشخصية.. فلا أعرف جدوى وصفها لكم.. لكن على كل حال.. أنا قصير القامة نسبيا.. هزيل البنية.. ملامحي عادية جدا فلا يوجد ما يميزها أو يجعلكم تنفرون منها.. ولولا بعض التحفظ لقلت أنني أقرب إلى القبح من الجمال.

نسيت أن أخبركم أنني أسكن منطقة (الرميثية).. أول حب في حياتي.. فهي المنطقة التي عشت فيها منذ ولادتي وحفظت كل شوارعها عن ظهر قلب.. إذ أشعر أن كل جزء منها له عبق الماضي الجميل -وإن لم أعشه -قبل أن يصبح العالم قاسياً مرعباً كما هو عليه الآن من انتشار الجرائم والمخدرات.. وارتفاع معدل البطالة وغيرها من الأمور السلبية التي لا تخفى على أحد.

هذه هي حياتي.. الكثير من الوحدة.. الكثير من الخوف.. الكثير من الذكريات الأليمة.. الكثير من الإحباطات.. الكثير من الوقت مع الكتب..

والغريب أنني عشت طوال سنوات عمري أياما هادئة جدا لم يكن فيها ما يستحق الذكر.. وحتى بلوغي سن السادسة عشرة.. إذ بدأت حياتي بعد ذلك تتخذ منحىً آخر بسرعة رهيبة.. فرأيت ما لم يره شيخ تجاوز عمره المائة!!.. ورغم المستقبل المشرق الذي يلوح لي في الأفق بسبب تفوقي الدراسي.. إلا أنني لا زلت أحن كثيرا إلى أيام الطفولة.

غريب حقا عندما تكون طفلا.. تشعر أن اليوم سيدوم للأبد.. ولكن عندما تكبر.. تشعر أن الأيام تمر بلمح البصر وتأخذ معها كل ما هو جميل!!.. هل الحياة دائما بهذه الصعوبة؟ ؟!.. أم أنها كذلك عندما تكون في سن المراهقة فقط؟!.. كثيرا ما كنت أطرح هذا السؤال على نفسي.. لكني الآن وبعد أن دخلت مرحلة العشرينات من العمر.. أدركت أن الحياة صعبة.. دائما وأبدا.. حقيقة أتذكرها في نهاية كل يوم عندما أنظر عبر شرفة غرفتي ليلا.

طوال حياتي أتمنى أن أكون ذلك الشاب مرفوع الرأس مصلوب العود.. كلماته مثل قوامه الفارع.. طالما تمنيت أن أكون وسيما كممثلي السينما.. وأن أكون ذلك الرجل الذي يحتبس الكلام في أي مجلس لدى دخوله.. حتى أضع حدا لكل إنسان لا يكترث لمشاعر الآخرين.. فأنا بركان ثائر من الأفكار والمشاعر.. أرى ما يحدث حولي في العالم من ظلم وليس بيدي أي شيء أستطيع فعله.. فتتكسر الثورة التي أشعر بها على شواطئ النفس وأتذكر أنني شخص ضعيف.. وأنكمش على نفسي أكثر وأكثر حتى أوشك أن أختفي من هذا العالم!!.. إن الحياة بالنسبة لي هي عبارة عن ألم.. وأنا أحاول أن أتأقلم مع هذه الحقيقة لكن دون جدوى!!.

يكفينا حديثا عن نفسي وعن خواطري.. ولنتحدث الآن عما هو أهم.. لنتحدث عن (رسائل الخوف).. فمنذ أن قمت بنشر أول إصداراتي (الأبعاد المجهولة).. والرسائل تنهال يوما بعد يوم وتتراكم في صندوق بريدي الإلكتروني.. معظمها من أناس عاشوا تجارب رهيبة يلفها الغموض.. ويريدون من يستمع إليهم ويشاركهم همومهم.. بالطبع لست حلالا للمشاكل.. إنما هي مجرد

فضفضة.. تماما كما أفعل معكم!!!.

لقد أدمنت قراءة تلك الرسائل.. وأصبحت أخصص لها جزءا لا بأس به من وقتي.. فأجلس في أوقات متأخرة من أيام الإجازات أمام شاشة جهاز الكمبيوتر.. بعد أن أعد لنفسي كوبا من الحليب الساخن.. وأقرأ بعدها تلك القصص.. في أجواء هادئة تفتح لي أبواب عالم الغموض وما وراء الطبيعة.. وتملأ عقلي بتساؤلات لا حصر لها عن الأسرار التي يمتلئ بها هذا العالم!!.

لا يمكن أن تتصوروا كم من أفكار بلهاء في أذهان كل واحد منا.. هذه الحقيقة أتذكرها دوما عندما أقرأ تلك الرسائل!!!.. لكن المجتمع يحتم ألا نعلن عن كل شيء نعتقده.. وهذا هو في رأيي الفارق الأساسي -وربما الوحيد -بيننا وبين المخابيل.. وعموما فقد فهمت أخيرا من الحياة أهم ما فيها.. وهو أنني لن أفهمها أبداً!!!.

هل القصص المذكورة في تلك الرسائل جميلة؟ !!.. لا يمكن أن نصف قصص ما وراء الطبيعة بالجمال.. إنها قصص شائكة.. مخيفة.. شيطانية.. كل شيء إلا (جميلة).. أما لو قصدتم ب(الجمال) أن القصص قابلة للقراءة.. إنها بكل تأكيد كذلك.. بالنسبة لي على الأقل!!!.

و.. سأخرس الآن قليلا.. مفسحا المجال لأصحاب تلك الرسائل للحديث عن أنفسهم.. أعتقد أن هذا أفضل.

فلتقلبوا الصفحة.. أو تنظروا إلى اليسار.. لنعيش معا أحداث تلك الرسائل الرهيبة.. رسائل الخوف.

خالد سليمان ال...

الرسالة الأولى

14 يوم!!

المرسل: فهد

ملاحظة: عزيزي القارئ.. الرسالة الأولى كانت من فتى ضعيف مهزوز الشخصية كما وصف نفسه.. ويدعى (فهد).. وهي رسالة تعاني بشكل رهيب من الأخطاء الإملائية وركاكة الأسلوب مع كل اعتذاري ل(فهد) الذي اعترف بذلك بنفسه وطلب مني إعادة صياغة كلامه من جديد.

لذا فقد أخذت بنصيحته.. وقمت بإعادة كتابة وصياغة قصته بالكامل.. وبصورة أدبية أتمنى أن تكون سلسة وبسيطة حتى نعرف ما يريد (فهد) قوله.

ماذا؟!.. تتساءلون لماذا معظم أبطال قصصي ضعفاء مهزوزي الشخصية كهذا الفتى؟ !!.. لا أعرف.. ربما لأن من يتعامل بالقوة لا يمكن أن تكون له أعماق ولا يمكن أن يكتب مذكراته، فهو يحل مشاكله كلها بالبلطجة.. أعتقد لهذا يتشابه جميع أبطال قصصي في هذه النقطة تحديدا.

ولكن ليس هذا ما يهمنا.. فالمهم هو أن قصته غريبة وغير عادية بحق.. يشوب أجواءها الغموض الشديد!!.. وإنني أفضل أن أنسحب تاركا لكم المجال كي تعيشوا أحداثها.

(خالد سليمان ال...)

إنها تمطر بغزارة في الخارج!!.. فنحن في بدايات شهر (فبراير) وفي إحدى أشد ليالي (الكويت) برودة!!.. الساعة تقارب الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل!!!.. والغربة تصرخ في عروقي وتتحول إلى دوامة لتبتلعني معها!!!.

إنه ذلك الطابع الساحر والكئيب لليالي الممطرة عندما نسمع هزيم الرعد ونشعر أن الكون بأكمله سيصطدم بكوكب الأرض!!!.. لكني رغم كل شيء.. أجلس صامتا مترقبا في مكان غريب لا يصدّق سأخبركم عن تفاصيله لاحقا!!.. فأكتب لكم هذه الكلمات بيد مرتجفة وأراقب الأمطار في الخارج بنفس الوقت!!!.

الطريف أنني دائما ما كنت أود الجلوس في تلك الأجواء والتفرغ للكتابة والحديث عن نفسي.. فالكلمات تعطي معنى لما لا معنى له.. لكني رغم ذلك أجلس الآن محتارا ماذا أكتب!!.. يبدو أن الشخص المليء بالأفكار كعديمها لا يعرف من أين يبدأ!!!!..

لذا.. يجب أن ألتقط أنفاسي وأركز قليلا.. ثم أبدأ بالكتابة بشكل متسلسل يسمح لكم بمتابعة قصتي الغريبة التي ستبحر بكم في عالم طالما ظل مجهولا يثير تساؤلاتنا!!!!.. عالم النفس البشرية!!.. فالنفس البشرية هي بحق أعقد آلة في الوجود.. إنها آلة تفوق في حساسية تركيبها تعقيد كل المفاعلات النووية والطائرات الحربية!!.. وهي بحر حقيقي من الغموض لا تستطيع أن تصل إلى أعماقه السحيقة أبداً.. فنحن لا نعرف غير السطح.. ونظل نبحث ونبحث على أمل الوصول إلى تلك الأعماق المجهولة لكن دون جدوى!!!.

اسمي (فهد)!!.. وهو اسم لم يكن لي من صفاته أي نصيب!!!.. أبلغ السادسة عشرة من العمر لحظة كتابة هذه السطور.. ماذا؟!.. تقولون من أنت أيها الصغير حتى تعطينا عبر وحكم عن

الحياة؟!.. تقولون ما الذي سيراه شخص في مثل عمرك كي يصدع رؤوسنا به؟!.. تساؤلاتكم صحيحة إلى حد كبير بالطبع!!.. فالأولاد الذين في مثل سني يقضون وقتهم في تلك الفترة من إجازة نصف السنة أمام شاشة الكمبيوتر أو التلفزيون يلعبون ألعاب الفيديو.. وهم يستمتعون أيما استمتاع بوجود عائلاتهم التي تمثل لهم خط دفاع يلجأون إليه متى ما واجهوا أي مشكلة!!.. أما أنا.. فقد أصبحت مسؤولا عن نفسي في سن مبكرة جدا ورأيت أهوالا لا حصر لها منذ طفولتي.. حتى أصبح الأمر شبيها بطفل في الرابعة ويشاهد الفيلم المخيف (طارد الأرواح الشريرة) (Exorcist)!!!.. ما الذي سيحدث لحالته النفسية حينها؟!.. لك أن تتخيل!!!.

لهذا أكتب مذكراتي.. لأريكم قطعة من ذاتي.. العالم الداخلي الذي أحيا وأتعذب فيه.. فما فائدة الممثل إذا قام بالتمثيل على مسرح خال من الجمهور؟ !!.. لهذا أحتاج إلى من يقرأ تجاربي ويتفاعل معي وأنا أؤدي دوري على مسرح الحياة!!!.

على كل حال.. ليس هناك الكثير لأقوله عن نفسي.. لقد عرفتم اسمي وعرفتم أنني في السادسة عشرة من العمر.. أي أنني مجرد طفل في نظر الكثيرين.. أوصافي؟ ؟!.. لا أعرف الجدوى من هذا لكني على كل حال متوسط القامة نسبيا.. نحيل.. ربما إلى درجة ملحوظة!!!.. والأسباب ليست صحية على الإطلاق.. بل هو الفقر!!.. كويتي فقير؟ ؟!.. نعم.. بل كويتي يتيم ومشرّد أيضا!!!.

لقد بدأت مأساة حياتي عندما تعرضت مع والديّ لحادث سير مروع.. لم يكن عمري يتجاوز السنتين حينها!!!.. ولا أذكر شيئا بخصوص الحادث بطبيعة الحال.. إلا أنني عرفت بعدها أنني تعرضت لإصابات بليغة لكن العناية الإلهية أنقذتني!!!.. حتى أنني قضيت بضعة أسابيع في المستشفى لأخرج بعدها إلى هذا العالم وحيدا بعد وفاة والديّ في الحادث!!!.

لم يكن هناك من يهتم لأمري سوى خالتي.. كانت هي كل عائلتي المتبقية.. فأخذتني إلى منزلها وأنا لا أعرف ما يدور حولي في هذا العالم ولا التغيير الرهيب الذي ستمر به حياتي!!.

لقد أخذتني خالتي إلى منزلها وهي تلعن الزمن الذي سيجعلها مسؤولة عن طفل آخر في بيت متكدس بالأطفال أصلا!!!.. ومع زوج لا يحمل أي مؤهلات ويعمل في إحدى الدوائر الحكومية بوظيفة تدر عليه دخلا ينتهي غالبا في منتصف كل شهر!!!..

فكان آخر ما يريدونه هو الإنفاق على طفل ليس من صلبهم!!!.. لذا نشأت وترعرعت في بيت كنت أشعر فيه بالغربة طوال الوقت.. فكثيرا ما تآمر علي أبناء خالتي ومارسوا علي ألاعيبهم القذرة!!!.. إن الأطفال والمراهقين عموما شياطين حقيقيون إذا تركوا دون رقابة.. ولعل فيلم (آلهة الذباب) ([1]) الشهير يعبر بشكل كبير عما قد يفعله الأطفال إذا وجدوا أنفسهم من دون حسيب أو رقيب!!!.

كما إن قصة البطة السوداء تلعب دورها في كل الأزمنة ومع جميع الكائنات الحية تقريبا!!!.. لذا فقد كنت أنا البطة السوداء بطبيعة الحال وضحية مقالب وألاعيب أبناء خالتي.. ومادتهم المفضلة للسخرية والمزاح.

أحيانا كثيرة كانوا يطرقون باب حجرتي بعنف إلى أن أفتح لهم.. وعندما أفعل.. أجد من يسكب بوجهي كوبا من الماء!!!.. أو أن يبصقوا جميعا بوجهي ليهربوا بعدها ضاحكين!!!.. لا تستغربوا.. فالأطفال من الممكن أن يكونوا وحوشا بالفعل.. ولا أنسى ما فعله أحدهم ذات مرة.. حين كنت في غرفة النوم متدثرا تحت اللحاف وعلى وشك النوم.. وإذا بصوت خافت في الدولاب!!!.. بالطبع أصبت برعب هائل.. خاصة عندما بدأ ذلك الصوت يرتفع.. قبل أن يفتح باب الدولاب

ويخرج منه كائنا متشحا بالسواد!!.

أتذكر جيدا أنني صرخت كما لم أصرخ من قبل.. شاعرا أن روحي نفسها ستخرج من جسدي.. وإذ به أحد أبناء خالتي متدثرا بعباءة سوداء وقد انفجر ضاحكا بعد أن نجح مقلبه في إخافتي.. تخيلوا أن موقفا كهذا قد حدث لي وأنا في السادسة فحسب!!.

وأمور كتلك -رغم سخافتها- إلا أنها كفيلة بتدمير حياة طفل!!!.. فقد هدموا شخصيتي تماما.. وأصبت بسبب معاملتهم لي بمرض التبول اللاإرادي!!!.. وأصبحت مضايقاتهم وضربهم لي أمرا معتادا مع مرور الأيام.. فلا يمكنك أن تكسر شيئا مكسورا أصلا!!!.

كنت دائما أتساءل.. لماذا يحب هؤلاء الأوغاد العنف إلى هذا الحد؟!.. لكني عرفت أن حب العنف قد يكون سببه الفقر والغل المكبوت من المجتمع.. وإلا لماذا كان عامة الشعوب في الأزمان القديمة يحبون مشاهدة العبيد يمزقون بعضهم في المسارح ووسط هتافات الناس؟؟!!.. لماذا لم يكسب الفقر الفقراء رحمة؟!.. لا أعلم.. ليت أحد علماء الاجتماع يفسر لي هذا!!.

إنني لا أذكر عدد المرات التي ذهبت فيها إلى الفراش باكيا.. لكنها كانت كثيرة دون شك.. حتى بت لا أذكر يوما واحدا ذهبت فيه إلى الفراش مرتاح البال!!..

لقد كبرت بهذه الصورة.. ضعيفا مقهورا.. فقيرا محروما من كل شيء.. ومنعزلا في غرفة قريبة جدا من غرفة الخدم في حجمها ووضعها.. غرفة وضيعة أقرب إلى سجن فردي لا تحوي سوى سريراً صغيراً ودولاباً متهالكاً.. ولا تكفي بسبب صغر حجمها لإضافة أي شيء آخر!!!.. فرحت أقضي في هذه الغرفة وقتي كله تقريبا.

لقد تعلمت هذا منذ سنوات الطفولة بسبب معاملة الجميع لي وخصوصا أبناء خالتي.. كنت أريد أن أتقي شرهم.. لكن هذا لم يكن ليبعدني عنهم.. فكانوا يطلبون مني أحيانا كثيرة أن آتيهم بثيابهم من المصبغة!!.. أو أذهب إلى السوق المركزي لشراء حاجياتهم.. نعم.. خادم بصفة غير رسمية كما ترون!!.. وبموافقة ومباركة خالتي وزوجها.. والمقابل بالطبع تلك الغرفة الوضيعة.. مع الأكل والشرب.

ورغم ذلك فقد كنت لا آكل سوى القليل بسبب نظراتهم السامة لي عندما أكون جالسا أتناول الغداء معهم!!!.. فأضطر ليلا للذهاب إلى الثلاجة.. حتى أشبع بعضا من جوعي بعيدا عن أعينهم ولعناتهم.

لا أعرف لماذا لم يطردوني من البيت!!.. هذا أمر لم أفهمه حتى الآن.. ربما وجدوني ذو فائدة لأكون خادما.. إنني النسخة الذكورية من (سندريلا) كما ترون!!!.. مع الفارق أن (سندريلا) كانت رائعة الجمال.. أما أنا فلا يمكن أن أصف نفسي بالجمال.

أما عن دراستي.. فقد كانت المدرسة أجمل ما في اليوم.. لأنها تبعدني على الأقل عن عالم بيت خالتي البغيض!!!.. لكني رغم ذلك لم أكن طالبا متفوقا على الإطلاق.. خاصة في مراحل الدراسة الأولى التي اجتزتها بصعوبة بالغة دون أن أرسب لحسن الحظ.. وهو أمر طبيعي كوني مجرد طفل لا أعرف مدى أهمية التعليم وبناء مستقبلي ولا يوجد من ينصحني ويوجهني!!.. لكني أحببت المدرسة دون شك.. ربما بسبب إشفاق الجميع علي.. فقد لفت انتباه زملائي الطلبة ومعظم أساتذتي حالي المزري وشرودي الدائم وحزني العميق.. مع ثيابي الرثة التي دلت بشكل واضح على أنني أعاني من مشكلة مادية عويصة!!!.

لا شك أن الكثيرين لا يحبون أن ينظر إليهم الناس بإشفاق!!!.. لكن الأمر يختلف معي تماما.. لأنني بحاجة جنونية إلى الحنان الذي لم أعرفه في حياتي!!!.. فأحصل في المدرسة على بعض منه بواسطة أساتذتي أو حتى من بعض زملائي.. خاصة من زميل لي يعاني نفس ظروفي تقريبا.. إلا أنه مشاغب متمرد على المجتمع.. إذ تراه يختبئ في دورة المياه ليدخن السجائر بعيدا عن أعين إدارة المدرسة.. أو يتشاجر مع المدرسين بسبب أو من دون سبب!!!.

في البداية كنا نرمق بعضنا بعضاً دون أن أجرؤ على الكلام.. ومع الأيام تجاذبنا بعض الكلمات.. ليتضح لي أن زميلي هذا يجتمع معي بنفس الظروف الصعبة.. فهو يعيش مع زوج أمه الذي لا يكف عن تعذيبه وضربه والتنكيل به لأتفه الأسباب.. أما والدته فمريضة عاجزة تماما عن حمايته!!.. ظروفنا مختلفة.. لكننا نعيش ذات الألم.. ذات المعاناة.. والاختلاف جاء بالتعبير عن آلامنا والتعامل معها فحسب.. إذ اخترت أنا الخضوع واختار هو العصيان!!.

وعند عودتي من المدرسة.. تبدأ رحلة العزلة في غرفتي الوضيعة.. فأقرأ الصحف رغم صغر سني كنوع من التسلية وقتل الوقت.. وأحل فروضي المنزلية للسبب ذاته.. ولا يوجد ما يؤنس وحدتي سوى ذلك المذياع الصغير الذي أعتبره صديقي الوحيد!!.. فأستمع وأسبح في بحر (أم كلثوم) الرائع.. فتى في السادسة عشرة يستمع ل (أم كلثوم)؟؟!!.. نعم.. تخيل هذا!!!.. أستمع إليها وأنظر إلى كل ركن من غرفتي.. حتى حفظت كل زواياها وتشققات صبغها!!.. وشعرت أن غرفتي نفسها قد عرفت كل شبر من جسدي!!!.. يقولون أنك عندما تعيش في مكان ما لفترة طويلة.. تصبح أنت المكان!!.. وهذا ما كنت أشعر به كلما جلست في غرفتي!!.

هذه هي حياتي.. عذاب لا ينتهي.. صمت مهيب.. فلا أذكر أنني تحدثت بأي شيء وعن أي شيء مع أحد.. والمصيبة أنني لا أستطيع حتى التعبير عن سخطي.. لقد كنت أفعل هذا في طفولتي.. كنت أصرخ وأبكي وأضرب الأرض بقدمي -كما يفعل الأطفال- مطالبا بحقوقي!!.. لكن لم يكترث أحد بالطبع!!!.

فتحولت مع مرور الأيام إلى حطام إنسان.. جسد هزيل ونظرات زائغة.. حتى أنني أصبت بمتلازمة (منخاوزن) ([2]) في سن مبكرة جدا.. لكن هذا لم ينجح بنيل عطف خالتي وأبنائها.. حقا أن أفراد الأسرة ليست تلك التي تحمل دمك.. بل التي تهتم لأمرك!!!.

أذكر أن الأمور كانت تسوء بلا انقطاع.. لكني كنت أغمض عيني كل ليلة مغمغما: ما زالت الحياة ممكنة.. ما زال بوسعي أن أجد الطعام والمأوى على الأقل.. إذاً فليكن هناك غدا!!!..

ولكن.. بالطبع لا بد من انطلاق تلك الشرارة.. الشرارة التي ستشعل نارا تغير حياتي بأكملها.. هكذا هي القصص

دائما!!.. ولولا تلك الشرارة لما تغيرت حياتي وانقلب عالمي رأسا على عقب ولما رويت قصتي!!.

متى انطلقت الشرارة؟!.. كان هذا منذ حوالي شهر.. نعم.. شهر واحد فحسب تغيرت فيه حياتي بأكملها!!!..

عندما كنت جالسا في غرفتي كالعادة.. أستمع إلى الراديو وأحاول أن أحل فروضي المنزلية وأستذكر دروسي استعدادا للاختبارات كمحاولة مني لقتل الوقت فحسب!!.. وشاعرا بشيء من الحزن لاقتراب موعد إجازة نصف السنة كوني لن أخرج نهائيا من بيت خالتي طوال تلك الفترة.. فخروجي إلى مكان آخر غير المدرسة سيثير سخطهم.. وربما عقابهم.. كوني سأتغيب عن البيت

في وقت قد يحتاجون فيه إلي لأذهب إلى السوق المركزي ربما أو المصبغة.. إلخ!!.

أذكر تلك الليلة جيدا.. حين كانت الساعة تقارب الثامنة مساء.. قبل أن أسمع جلبة في صالة المنزل.. لتتحول شيئا فشيئا إلى صراخ!!!.. لم أفهم ما يحدث.. ولم أكترث كثيرا.. فالمشاكل تحدث كثيرا في هذا البيت.. وزوج خالتي يغضب من أبنائه لأقل الأسباب.. ويتشاجر مع خالتي كثيرا.. لكن هذه المرة.. شعرت أن شيئا مخيفا سيحصل!!!.. ولم أكن مخطئا!!!.

دقائق قليلة قبل أن يقتحم زوج خالتي الغرفة وعيناه تستشيطان غضبا!!!.. نظرت إليه بقلق دون أن أفهم.. ما الذي فعلته ليستوجب اقتحامه غرفتي بهذه الصورة!!!.. إن العلاقة بيني وبينه شبه مقطوعة.. فهو عندما يتحدث معي.. تكون لهجته خليطا من الأوامر والتوبيخ.. كما أنه لا يدخل غرفتي إلا نادرا.. ثم:

-أيها الكلب.. أيها الحقير.. أيها المنحل.. ما الذي فعلته ب(شيخة)؟!..

و(شيخة) هذه ابنة خالتي.. وهي تصغرني ببضع سنوات ولا تقل حقارة عن أشقائها في تعاملها معي.

أخرستني شتائمه.. وصعقت تماما بهذا الهجوم المفاجئ!!!.. فنظرت إليه بذعر حقيقي وكأنني مذنب وفعلت ما يظن أنني فعلته!!!.. كانت عيناي متسعتين بدهشة وذعر وأنا لا أعرف ما أقول.. و.. انكمشت رعبا عند زاوية السرير الملتصقة بالحائط.. وقلت بصوت متحشرج:

-أنا.. أنا.. أنا لم أفعل شيئا يا عمي!!!!.

راح يصرخ كالمجنون:

-لا تكذب أيها اللعين.. أعرف أنك قد تحرشت بها!!!..

كاد قلبي أن يسقط بين قدمي وأنا أنظر إليه مذعورا مصدوما!!!.. لحظات قبل أن تظهر خالتي وتقف عند عتبة باب الغرفة.. وراحت تصرخ بدورها وتشتمني وتلعن الزمن الأغبر الذي جعلها مسؤولة عني!!!..

لا تسألوني عما يقصده زوج خالتي بسؤاله.. هل كان يقصد (تحرشا جنسيا) مثلا؟!.. ربما.. و.. لم ينتظرا أن أقول شيئا.. بل انقض علي زوج خالتي وراح يركلني بقدميه ويصرخ كالمجنون:

-أيها اللعين.. ألا يكفي أنك تعيش هنا.. ألا يكفي أنك كالجاثوم على قلوبنا ونحن نتحمل وجودك طوال هذه السنوات!!!.. ألا يكفي أنك تعيش بين أولادي؟ !!.. أيها اللعين.. أيها الفاجر.. أيها.....

وسيل لا يتوقف من الشتائم غير القابلة للنشر انهالت على أذني!!!.. كان يضربني ويركلني وهو يصرخ ويصرخ.. في حين كنت أصرخ بدوري وأنا أقسم أنني لم أفعل شيئا.. ولا أعرف شيئا عن أي شيء وأنني لم ألمس ابنته!!!.. لكني توقفت عن الصراخ والتوسل بعد أن شعرت أن هذا لن يجدي مع ثورته!!!.

كان يضربني بعنف حقيقي وبدا لي أن جسدي سيمتلئ بكدمات لن تزول أبدا!!!.. يبدو أنه ادخر بغضه لي طوال السنوات السابقة ليفرغه الآن!!!.. فهذه المرة الأولى التي يضربني فيها زوج خالتي.. ربما لأنني كنت أحاول جاهدا في السابق أن أكون مختفيا تماما عن أنظاره.. ولا أظهر إلا عندما يأمرني بغسيل سيارته المتهالكة أو شراء حاجيات البيت كما علمتم!!!.

الغريب أنني لم أكن أشعر بأي ألم أثناء تعرضي للضرب.. بل رحت بالمقابل أنظر إلى أبعاد أخرى وكأن زوج خالتي يضرب شخصا آخر!!!.. كنت مستسلما تماما وشعرت وكأن الزمن قد توقف!!!.. أو أن ما يحدث هو مجرد كابوس!!.

هذا بالطبع قبل أن ينتهي من ضربي وهو يلهث والعرق يملأ وجهه.. ثم راح يسعل حتى أوشك على انتزاع رئتيه من مكانهما.. ليبصق بعدها بوجهي دون أن ينتظر مني أي دفاع عن نفسي!!.. ويخرج من الغرفة بعد أن صفق بابها بقوة وهو يلعنني ويشتمني بأقذر ما يمكنكم تخيله من ألفاظ!!.

خرج من الغرفة تاركا بقايا إنسان والأنين والبكاء يختلطان ببعضهما!!.. لا أعرف كيف يصف المرء شعوره حين يتعرض للضرب.. لا.. ليس شعورا بالألم بقدر الشعور بالضياع.. بقسوة العالم.. بالهوان.. بالدموع الحارة التي تسيل على وجهك دون توقف.. وصرخات الألم المكبوتة محتبسة في صدرك.. و.. وسط شعوري الغريب الذي لا أستطيع وصفه.. رحت أتحسر على تلك الفرصة التي نجوت فيها من الموت!!!.. أي فرصة؟ !!.. فرصة الحادث الذي تعرض له والداي بالطبع!!.. ليتني لم أنجُ منه لأعيش هذه الحياة.. ليتني لم أنجُ!!!.. إنني أكره القسوة كثيرا.. طوال حياتي أكرهها.. لأنني أعيشها لحظة بلحظة.. حتى أنني كنت أدعو الله كثيرا أن يجعلني فريسة الأسد قبل أن يكون الأرنب فريستي!!!.

و.. بعد دقائق قليلة من التقاط الأنفاس.. نهضت من على الفراش ووقفت بجانب الحائط وأنا أفكر بالكارثة الأكبر بعيدا عن خواطري وخيالي.. نعم.. فالكارثة الأكبر هي ما عرفته من زوج خالتي.. (شيخة) ابنة خالتي.. هناك من تحرش بها جنسيا كما يبدو!!!.. كيف حدث هذا؟!.. إن زوج خالتي لم يخبرني بشيء!!.. فقط جاء وسألني بصيغة الاتهام!!!.. ثم راح يضربني بهذه القسوة!!!.. أنا.. أنا لم أفعل شيئا ولم ألمسها على الإطلاق.. إنها جريمة ارتكبها شخص آخر دون شك.. ربما.. ربما الفاعل الحقيقي هو ابن خالتي الأكبر.. ذلك الوغد!!.. إنه ولد منحل فاشل لم يكمل تعليمه ويدخن السجائر سرا.. إنني أراه أحيانا يفعل هذا لكني لا أجرؤ على فضحه.

ربما ارتكب تلك الجريمة وهدد شقيقته كي تلصق فعلته بي.. لا أستبعد أن يكون هو وراء ما حدث.. فأنا أعلم في قرارة نفسي أنني لم أفعل شيئا.. ولم أنحدر أبدا لهذا المستوى!!!..

إن زنا المحارم والتحرشات الجنسية في البيت الواحد قضية تكبر وتستشري في مجتمعاتنا الخليجية عموما يوما بعد يوم ([3]).. هذا ما عرفته فيما بعد!!.. يا إلهي.. إنني في مأزق حقيقي!!!.. أعتقد أن خالتي وزوجها يريدان تصديق أنني سبب تلك الفضيحة بأي ثمن.. وكأنهما يبحثان عن أي لائمة ليلقوها علي.

كنت واقفا مشدوها في غرفتي.. أستمع إلى الشتائم التي تطلقها خالتي وزوجها من الخارج وكأنها سهام تمزق جسدي النحيل!!.. يا إلهي.. لا أعرف كيف أو من أين وقعت علي هذه المصيبة!!!.. ستسوء الأمور كثيرا في الأيام القادمة.. لا أعرف تحديدا ما سيحدث.. لكني واثق أن الأمور ستسوء دون شك.

هل سأخبر زوج خالتي أنني بريء؟!.. لن يصدقني بكل تأكيد!!.. ثم.. ماذا عن أبناء خالتي؟!.. إن هؤلاء الأوغاد سيجدونها فرصة ذهبية لضربي بكل قسوة متى ما انفردوا بي!!!.

رحت أفكر بذعر حقيقي لما يجب فعله.. قبل أن تطرأ في ذهني تلك الفكرة المجنونة.. في الواقع أنها تطاردني منذ مدة طويلة.. منذ سن التاسعة.. لكني كنت أطرحها جانبا وأحاول نسيانها!!.. إذ

لم أجرؤ أبدا على تنفيذها.. ما هي الفكرة؟!.. فكرة الهرب بالطبع.. نعم.. الهرب من هذا البيت اللعين.. لا أعلم إلى أين سأذهب.. لكنها بدت لي في تلك اللحظة تحديدا فكرة مقبولة جدا.. فلا أستطيع أن أعيش هنا بعد الآن.. ولا يمكن أن تكون حياتي على نفس الوتيرة طوال العمر.

جلست على الفراش ورحت أفكر جديا في الهرب.. ووجدت الفكرة تستهويني إلى درجة غير معقولة!!.. نعم.. سأهرب من هذا البيت اللعين.. وإذا وجدت نفسي تائها عاجزا عن الإقدام على خطوة أخرى.. فالانتحار أمر لا بأس به على الإطلاق.. إن حياتي لا تساوي شيئا على كل حال.. وفقدها ليس أسوأ من فقد ربع دينار!!.. أنا أفهم تماما الآن شعور الراغب في الانتحار.. اليأس وانعدام الحيلة والرغبة في الهرب إلى اللامكان!!!.. كلها أسباب تدعو فعليا إلى الانتحار.

المهم أنني اتخذت قراري في الهرب على الأقل!!.. الهرب أولا من هذا البيت.. وربما سيكون بعدها الانتحار الحل الأخير لو لم أجد حلا لحياتي البائسة.

وجدت نفسي أتجه لا شعوريا نحو الدولاب المتهالك في غرفتي.. أفتح بابه بحركة آلية لأضع ثيابي القليلة في حقيبة صغيرة.. إلى أين؟!.. هناك ذلك البيت المهجور في منطقة (الرميثية) بجوار السوق المركزي لقطعة (10) ([4]).. لقد رأيت هذا البيت أثناء زيارة أبناء خالتي لأقاربهم في نفس الحي!!..

كانوا يأخذونني معهم أحيانا قبل سنتين أو أكثر قليلا لزيارة هؤلاء الأقارب.. قبل أن أتوقف عن الذهاب بسبب استخدامهم لي هناك كمادة للسخرية والمزاح!!.

أعتقد أنني أعرف كيف سأصل إلى ذلك البيت لأقضي ليلتي هناك على أن أقرر ما سأفعله في حياتي صباح الغد.. هل لا زال البيت مهجورا؟؟!!.. هل تم هدمه وهو الآن قيد الإنشاء؟!!!.. لا أعلم.. لكن الأمر يستحق المحاولة.. رغم أن فكرة قضاء الليلة في بيت مهجور عسيرة بالفعل.. لكنها الحل الوحيد المتاح الآن.. أو هذا ما بدا لي على الأقل!!.. أشعر أنني أمتلك قلبا حرا.. لذا يجب أن أمتلك الشجاعة لأتبعه.. فالحرية التي في داخلي أقوى من السجن الذي أعيش فيه!!.

سأهرب في وقت متأخر من هذه الليلة.. لا أستطيع البقاء هنا يوما آخر!!!.. فقد يقتحم زوج خالتي أو أحد أبنائه الأوغاد غرفتي مرة أخرى.. قد يأخذوني إلى المخفر!!.. أو إلى سجن الأحداث ليتخلصوا مني وقد وجدوا الفرصة على طبق من ذهب!!!.. هناك مليون احتمال لما يمكن أن يحدث إن ظللت تحت رحمتهم.. لذا لا بد من الهرب في أسرع وقت.. لا بد من ذلك!!.

هكذا كنت أردد بيني وبين نفسي وأنا أحزم أغراضي.. وأخبئ الحقيبة الصغيرة في الدولاب كي لا ينتبهوا إلى رغبتي في الهرب إذا ما اقتحم أحدهم غرفتي.. ثم.. جلست أنتظر!!.. أنتظر ذهابهم إلى غرفهم ونومهم كي أهرب دون أن يشعروا بي.

مضت الساعات القليلة القادمة بطيئة جدا.. فالقلق كان يسيطر علي تماما.. خاصة مع صراخ زوج خالتي في صالة المنزل وحديثه مع خالتي عن احتمال تسليمي للشرطة كونه لا يريد شخصا منحلاً أخلاقيا مثلي في بيته!!.. أما خالتي فلم تكن أفضل حالا.. إذ لا زالت تولول وتصرخ مدعية أنها لا تريد أن ترى وجهي بعد أن سودت وجهها.. وأن الحق عليها هي التي صبرت على وجودي بين أبنائها بعد وفاة شقيقتها!!!.

يا إلهي.. إنها أسود ساعات حياتي بحق!!!.. فرغم جسدي المتهالك والآلام المبرحة التي أشعر بها بسبب الضرب.. إلا أن هذا آخر ما كان يشغل تفكيري!!!.. إذ كنت أفكر بما سيفعلونه بي

لاحقا!!.

لن أستطيع الانتظار حتى الغد لأهرب.. أخشى أن يروني صباحا ذاهبا إلى المدرسة فأذكرهم بما حدث.. وإذا لم أذهب ولم أخرج من غرفتي فقد يتذكروني أيضا لأنني لم أذهب إلى المدرسة ولم يروني خارجا من غرفتي ككل صباح!!!.. إنني محاصر تماما كما ترون.. أو هذا ما بدت عليه الأمور!!!.

مر الوقت أخيرا.. وقاربت الساعة منتصف الليل بعد أن عم الهدوء أرجاء البيت.. يبدو أنه لا يوجد أحد في الصالة.. فتحت باب غرفتي بتوتر شديد.. ثم أخرجت رأسي بحذر!!.. لا يوجد أحد بالفعل!!!.. أسمع أصوات هنا وهناك!!.. يبدو أن أبناء خالتي ما زالوا مستيقظين في غرفهم.. عدت إلى الغرفة سريعا.. وفتحت الدولاب لأخرج حقيبتي الصغيرة وأضعها على السرير.. ثم رحت أنظر إليها بحيرة شديدة للمرة الأخيرة.. هل أفعلها؟!.. هل أهرب من هنا؟!.. ليس الأمر سهلا على الإطلاق.. فهنا على الأقل أعيش تحت سقف.. هنا على الأقل المكان الذي أستطيع أن أطلق عليه اسم: البيت!!!.. ولكن.. هناك مصيبة حقيقية تنتظرني لو بقيت.. فلا يمكنني أبدا أن أخمّن ما سيفعله هؤلاء الأوغاد بي غدا!!.. سيجدها أبناء خالتي فرصة ذهبية للدفاع عن شرفهم المزعوم وإشباع حقدهم بي!!!.

و.. عندما مر ذلك الخاطر الأسود في ذهني.. حسمت أمري.. وقررت الهرب إلى ذلك البيت الذي أخبرتكم عنه.. ثم سيكون لي الكثير من الوقت لأفكر بما سأفعله بعدها.. ولو لم أجد حلا لمأساتي.. فلن أخشى الانتحار.. إنه آخر الحلول!!.

لدي مبلغ صغير لا يتجاوز العشرة دنانير.. إنني أجمع ذلك المبلغ منذ فترة طويلة.. وهو من بقايا العملات المعدنية التي أحصل عليها عادة عند شرائي احتياجات البيت.. حيث ظللت أجمعها دون أن ينتبه أحد لحسن الحظ.. سيكفي ذلك المبلغ بضعة أيام للأكل والشرب.. ولنرى ما سيحدث بعدها.

خرجت من غرفتي محاولا أن أكتم أنفاسي.. البيت غافيا في الظلام.. أتجه بذات الهدوء ناحية باب المطبخ.. أخذت كيس الخبز الذي وجدته فوق الثلاجة.. ثم.. بعض الجبن من الثلاجة.. ووضعت كل شيء في حقيبتي الصغيرة.. قبل أن أخرج أخيرا حاملا حقيبة المدرسة بيد.. والحقيبة الأخرى التي تحوي حاجياتي خلف ظهري.. لماذا أخذت معي حقيبة المدرسة؟ !!.. لا أعلم.. ربما هو التمسك بذرّة أمل في أن الأمور قد تنصلح وأن حياتي ستكون طبيعية يوما.. حقيقة لا أعلم!!.

أقف الآن أمام الباب الذي يمثل لي الخلاص وطي صفحة هذا المكان اللعين إلى الأبد!!.

فتحت الباب بذات الهدوء وخرجت أخيرا!!!!.. كنت أتمنى أن أقول أن تيار الهواء المنعش قد تسرب إلى صدري!!!.. لكن الأمر لم يكن كذلك مع الأسف.. فقد كانت السماء تمطر بقوة.. كنت أعلم هذا.. فصوت المطر كان مسموعا طوال اليوم!!.. وكان البرد شديد القسوة بالطبع في تلك الفترة من شهر (فبراير).. إنني أرتجف بقوة.. أرتجف حقيقة لا مجازا!!.. فالبرد والجوع يجعلان جسد الإنسان هشا معرضا للانهيار في أي لحظة!!!.. دعكم من أن جسدي كان يشعر بآلام مبرحة في كل مكان أصلا بسبب الضرب!!.

هكذا مشيت في الظلام والبرد مبتعدا عن بيت خالتي أخيرا!!.. مبتعدا عن مأزق.. وذاهبا إلى مأزق آخر كما يبدو!!.. مأزق المجهول والتشرد والبرد القارس.. وهو مأزق نادر جدا أن تجد نفسك فيه في (الكويت)!!.. سوف أتجمد لو مشيت.. سوف أتجمد لو اختبأت بين البيوت.. ربما سيجد

الناس جثتي في الصباح وهي متجمدة!!.

كنت أرتدي ثيابا عادية لا تقيني إطلاقا من البرد.. أو من المياه التي ملأت الشوارع وبللت حذائي وجوربي تماما!!.. إنني أمشي في الشوارع الداخلية لمنطقة (سلوى) حيث بيت خالتي.. متجها إلى منطقة (الرميثية) دون أسف رغم كل هذه الظروف القاسية.. سأحتاج إلى ساعة من المشي على أبعد تقدير قبل أن أصل إلى وجهتي.. الشوارع خالية إلى حد كبير بسبب الأمطار الغزيرة والوقت المتأخر بالطبع.

أشعر أن الأمطار تجلدني جلدا!!..على ذراعي.. على وجهي.. على ظهري.. شعري مبلل تماما.. أنفي ملوث بالمخاط وأنا أمسحه في شعري!!!.. فالنظافة الشخصية والتقزز هما آخر ما أفكر به في هذه الظروف!!.

أرمق الشارع بحزن أثناء سيري.. أرمق الموجودات حولي بذهول!!.. أغنية جميلة تتسرب إلى مسامعي!!.. لا.. إنه أنا.. أنا الذي أغني بصوت مرتجف دون أن أشعر!!.. أحاول أن أسلي نفسي بأغنية لا أعرف أين سمعتها!!!.. يا إلهي.. أي جرم ارتكبته في حياتي ليحدث لي ما يحدث الآن؟ !!.. لماذا أنا سيئ الحظ دائما؟ !!.. رحت أبكي وأنتحب لكن دموعي ضاعت وسط قطرات المطر.. أي عالم قاس هذا؟؟!!.

أفكر بكل هذا وأنا أعبر الشارع العام الذي يفصل بين منطقتي (سلوى) و(الرميثية).. ها أنا الآن في منطقة (الرميثية) أتوغل في شوارعها الداخلية الخالية تماما في مثل هذا الوقت.. إن منظري مزري بحق!!.. لا يوجد منظر أشد بؤسا من فتى نحيل الجسد أشعث الشعر يلبس قميصا متسخا!!.. ويدس يديه المتجمدتين من البرد في جيب البنطلون المثقوب أصلا ويمشي وسط الأمطار بلا اكتراث.. وعلى وجهه نظرة حائرة غائبة عن الوعي إن صح التعبير.. دعك من أظافر يدي وقدمي الطويلة المليئة بالخطوط السوداء.. وكأنني أتقاضى راتبا لأكون أقذر الناس!!!.

إن القادم قد يكون أسوأ على كل حال!!!.. فالجزء المجهول من رحلة عذابي لم يبدأ بعد كما هو واضح!!!.. ويا له من عذاب!!.. هذه سن يجب أن يحب فيها المرء أو يحلم بالحب والعثور على فتاة الأحلام وقضاء أوقات ممتعة مع أصدقائه.. لا أن يجد نفسه تائها وحيدا تتقاذفه الطرقات والأزقة!!.

لكني رغم كل شيء كنت أستمر بالمشي.. إلى أن وصلت لوجهتي أخيرا!!!.. ذلك البيت المهجور الذي أخبرتكم عنه!!.. لحسن الحظ أنه لا زال مهجورا بعد أكثر من سنتين منذ آخر مرة رأيته فيها!!!.. كنت أخشى طوال الطريق أن أجد البيت مسكونا أخيرا.. ربما هناك مشكلة بين الورثة.. هكذا هي الأمور دائما.. لكن هذا لن يهمني كثيرا بطبيعة الحال.. ما يهمني هو أنه المكان الوحيد الذي من الممكن أن يحويني في هذا الوقت ويقيني من الأمطار والبرد.. وربما أعين المتطفلين!!.

كنت أبدو وكأنني إنسان الكهف الذي يختبئ من الرعد ويعامل البرق بخوف شديد وهو يظنه قوة رهيبة تحاول أن تنال منه!!!.. وساعد على هذا مظهري الذي جعلني أبدو كواحد من رجال الكهف بالفعل!!!.

مرت هذه الخواطر السوداء بذهني.. قبل أن أحسم أمري وأدخل البيت بسهولة.. فهو من دون باب أصلا.. لا شيء في الداخل سوى صوت حذائي!!!.. والأمطار تعصف في الخارج.. كما يحدث في أفلام الرعب!!!.. مكان رهيب يبعث شيئا من التوجس.. برودة تجتاحني بلا رحمه وتغلف روحي.. الخوف.. الشعور المرير بأنك وحيد في عالم مليء بالناس.. ولا يوجد أي خطأ مطبعي في

عبارتي هذه!!!.

صعدت إلى الطابق الثاني ببساطة دون حتى الالتفاف إلى الوراء.. وكأنه بيتي!!.. فاليائس لا يفكر بالأشباح والجن!!!.. أصعد السلم بحذر حتى لا أفاجأ بقدمي تطيران في الهواء.. ثم توجهت إلى إحدى الغرف.. وجلست أرتجف محاولا السيطرة على نفسي!!.. إن وصولي إلى هذا البيت هو النصر الوحيد الذي أحرزته اليوم وربما في حياتي!!!.. ويا له من نصر سخيف.. أتحدث وكأن هذا البيت على قمة جبل!!!.

جلست في زاوية تلك الغرفة الخالية سوى من الأتربة التي غطت أرضيتها تماما.. قابع في مكاني أنظر إلى المكان بعين خاوية.. أحاول الانتماء لركن ما كي أجد ذاتي فيه!!!.. الظلام كثيف جدا.. والخيالات الغامضة تتلاعب هنا وهناك.. لكن هذا كله لم يكن يعنيني.. إن الحزن لا يدع في النفس مكانا لشعور آخر.. سواء الرهبة أو الخوف.. وقد كنت حزينا مكتئبا.. تسيل الدموع من عيني وأشعر بها تتجمد قبل أن تصل إلى خدي من شدة البرد!!.

رحت بيد مرتجفة أبحث في حقيبتي البالية.. ما هذا؟!.. آه.. إنها الولاعة التي أخذتها معي.. فزوج خالتي يدخن بشراهة ولم يكن من العسير سرقة ولاعته.. و.. تشاك!!!.. تشاك!!!.. انبثقت الشعلة الصغيرة باعثة نشوة لا توصف في روحي!!!.. وضعت الولاعة قرب أنفي المتجمد طالبا للدفء.. شعور جميل لا يوصف..

لحظة!!!.. نهضت من مكاني ورحت أبحث في الغرف الأخرى.. هذا رائع.. بعض الأوراق المتناثرة وبقايا أثاث خشبي.. جمعتها وعدت إلى نفس الغرفة مرة أخرى لأصنع نارا صغيرة تكفي إلى حد ما لتدفئتي!!!.

رحت بعدها أخرج الكيس البلاستيكي الذي يحوي الخبز.. وأعددت لنفسي ساندويتش من الجبن.. ورحت ألتهم الطعام شاعرا بأني أسترجع جزءا من روحي.. وكأنني.. وكأنني في مخيم وسط الصحراء بعيدا عن الحضارة!!!.. لقد كنت جائعا بحق وكانت معدتي خالية حتى شعرت أنها ستهضم نفسها من شدة الجوع!!.

أحدق في النار بعين خاوية وقد شعرت بالدفء أخيرا وكف جسدي عن الارتجاف!!.. لو كنت أفعل هذا عالما أنني سأعود بعدها إلى البيت.. لاستمتعت بوقتي أيما استمتاع.. لكني مشرد.. لا أعرف ما هو القادم.. وهذا هو المخيف.. فالإنسان يحتمل كل شيء.. إلا المجهول!!.

خلعت بعدها جواربي المبللة.. وتمددت على الأرض محاولا أن أنام قليلا.. سيكون صباحي أسود عندما أستيقظ.. هذا أبسط تلخيص ممكن لما ستكون عليه الأمور في الصباح!!!.. دمعت عيناي مرة أخرى عند هذه النقطة.. ورحت أبكي بصمت وحزن وأنا أدعو الله بضراعة:

-يا رب.. يا رب صبرني وهدئ من نفسي وأعصابي وفكري.. يا رب ألهمني الصواب من عندك!!!.

هكذا كان شعوري.. ضياع تام.. فقدان الأمل!!.. وهو أسوأ ما يمكن أن يفقده الإنسان!!!.. فمن الممكن أن يحتمل المرء الحياة بلا مأوى.. بلا مأكل.. لكنه لا يحتمل الحياة بلا أحلام.. وبلا أمل!!.

و.. أمام هذا الضياع بدأت ألوم نفسي لأنني هربت من بيت خالتي!!!.. لا أعرف لماذا هربت.. كان هروبي ردة فعل فحسب.. مجرد ردة فعل بسبب المشكلة الأخيرة!!.. أحيانا كثيرة ردود الفعل لا معنى لها!!.. خاصة عندما تأتي من مراهق تافه مثلي!!!.

أمسكت بالسكين التي جلبتها معي.. ووضعت نصلها على معصمي شاعرا بملمسه البارد.. هل أفعلها وأنهي حياتي بيدي؟ !!.. لو كان معي مسدس لفعلتها دون تردد.. إنها رصاصة واحدة ستخترق خلايا مخي ولن أشعر بأي ألم بعدها.. من الغريب حقا أن أدعو الله قبل قليل.. ثم أفكر أن أفعل ما يغضبه.. الانتحار!!!.. ربما هي حياة المراهق المليئة بالتناقضات.. لا أعلم.. ولكن.. فكرة الموت تروق لي بشدة بالفعل!!.. لا.. لا أستطيع أن أفعلها!!!.. لا أجرؤ على جرح معصمي!!!.

وضعت السكين جانبا.. ورحت ألوم نفسي على جبني الزائد وأقول بخفوت غاضب:

-لا تقاوم يا أحمق!!.. ما الذي ستمنحك إياه ساعات أخرى من الحياة في هذه الغابة البشرية؟ !!.. ما الذي لم تحققه في سنواتك الستة عشرة السابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيا؟!.. فرارك هذا لا يختلف عن فرار صرصور على جدار مطبخ.. إنها صرخة غريزة لا أكثر وعليك أن تتعلم كيف تهملها.. إن الموت بسيط ومريح وسهل.. بينما الحياة هي القاسية!!.

لكني رغم كل شيء.. تخاذلت.. بعد أن تغلّبت علي غريزة الحياة!!!.. وجلست بعدها منكمشا على نفسي في زاوية الغرفة الخاوية.. أنظر إلى النار بأسى!!.. شاعرا كالإنسان الأول الذي يعتلى قبة صخرية.. فيضم ركبتيه إلى صدره وهو يرتعد متأملاً السماء!!.. إنه لا يدري من أين أتى!!.. ولا إلى أين سيذهب؟ ؟!.. لا يدرك عبثية وجوده!!!.. يا إلهي.. ترى ماذا سيحدث غدا؟؟ !!.. فأسلوب الانتظار هذا يثير أعصابي إلى حد الجنون.. و.. انتبهت فجأة إلى أنني أتحدث بلا انقطاع وأشرح أشياء عديدة للهواء!!.. مشهد مخيف بحق لمن يراه.. وكأنني أتحدث إلى شبح غير مرئي!!!.

أخذت نفسا عميقا محاولا السيطرة على نفسي.. واتخذت قراري بحزم هذه المرة.. سأحاول أن أعيش!!!.. ولو لم أجد حلا لمأساتي فسأنتحر خلال اليومين القادمين.. سأستجمع شجاعتي في المرة القادمة لأفعلها.. نعم.. فلا توجد حلول أخرى.

رحت بعدها أفكر بشيء أفعله قبل أن أخلد للنوم.. فأخرجت كراسة صغيرة من حقيبتي المدرسية.. وبدأت أكتب بيد مرتجفة شاعرا بأنني أستنشق غبار الصمت وأختنق به!!!.. رحت أكتب تجربتي في الحياة.. نعم.. هنا بدأت أول خطوة في كتابة قصتي هذه.. ربما كانت نوعا من الفضفضة.. ربما كانت الرغبة أن أجد في القلم الصديق الذي يواسيني.. أما ما حدث لي بعد ذلك قد كتبته لاحقا بالطبع.

و.. قطع حبل أفكاري صوت غريب.. صوت غير مفهوم!!!.. التفت ناحية الباب بقلق لأجد قطاً.. مجرد قط صغير بني اللون مبتل تماما.. يبدو أنه يبحث عن الدفء أيضا.. بل ويبدو أن المسكين مذعور أكثر مني!!.. نظر إلي بتوجس كعادة القطط!!.. لا تخش شيئا يا صغيري.. إنني لا ألومك على خوفك هذا.. فأكثر ما يخيف في هذا العالم هو بني البشر..

ترى.. كيف أشعر هذا الهر الصغير بالأمان؟!.. كيف أخبره أنني بائس أكثر منه؟ ؟!.. أخذت قطعة صغيرة من الجبن.. ووضعتها على الأرض بالقرب مني.. فراح ينظر إلي بحذر.. وينظر إلى قطعة الجبن.. قبل أن يقترب شيئا فشيئا ليتشمم القطعة.. ثم بدأ بلعقها دون خوف أو خجل.. بالتأكيد.. فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يخجل.. لأنه الوحيد الذي يفعل ما يثير الخجل!!!.. كنت أتمنى لو اقترب مني هذا القط كي أحتضنه.. صوت (أم كلثوم) يشدو بخفوت شديد كاسرا بعض الصمت المخيم على المكان بعد أن قمت بتشغيل الراديو.. فتى في السادسة عشرة يستمع لـ(أم كلثوم)؟ ؟!.. ماذا؟!.. هل طرحت هذا التساؤل من قبل؟ !!.. المعذرة!!.. يبدو أنه النعاس

الشديد مع هذا الدفء الذي تبعثه النار في روحي.. وصوت الأمطار الغزيرة في الخارج.. والإرهاق.. والإحساس بشيء من الشبع.. كل هذه الأمور تلعب دور أقوى المنومات في العالم.. لذلك.. بدأت رحلة النوم.. إذ راحت عيناي تنعسان شيئا فشيئا وأنا أحدق بالقط وهو يلعق قطعة الجبن.. وشعرت أن حياتي السابقة بعيدة جدا وكأنها حلم!!!.. بل لم أصدق للحظة أنني طالب في مدرسة!!!.. ماذا عن المدرسة؟ !!.. عطلة منتصف السنة ستبدأ بعد غد.. لكني سأتغيب منذ الغد بكل تأكيد.. هذا يعني أنه سيفوتني آخر اختبار من اختبارات نصف السنة.. هكذا بكل بساطة!!.. يا له من أمر محبط!!.. دعك من أن جميع الأسر قد وضعت مخططها لقضاء الإجازة في مكان ما بعد نهاية الاختبارات الفصلية.. عدا شخص واحد يحاول أن يعيش فحسب!!!.

دقائق قليلة قبل أن أشعر أن جفوني قد ثقلت تماما.. وأنني سأنام.. سأناااااا... و.. نمت وأنا أحتضن ذلك الدفتر الذي كتبت فيه آلامي!!.

لا أذكر الساعة عندما استيقظت في الصباح.. لكن الوقت كان مبكرا إلى حد ما.. استيقظت من النوم مفزوعا.. وقد تطلب الأمر دقيقة أو أكثر لأعرف أين أنا.. كان الصباح باردا جدا.. وربما أبرد من مساء أمس!!!.. خاصة وأن النار التي أشعلتها قد انطفأت تماما.. كنت أشعر بآلام بسيطة في حلقي.. وأن أنفي يسيل بلا توقف.. بكل تأكيد أصبت بالبرد.. هذا متوقع.. لكن الإصابة بالبرد هي آخر ما أخشاه وأفكر به الآن!!!.

نهضت من مكاني وكل ذرة من جسدي تؤلمني بسبب النوم على الأرض والضرب المبرح الذي تعرضت له في الأمس!!!.. ورحت بعدها أحاول ترتيب ثيابي وترتيب نفسي إن صح التعبير.. محاولا أن أجعل ثيابي لا تلفت الانتباه بسبب سوء حالتها.. ثم قمت بترتيب شعري بيدي.. وخرجت بعدها لشراء بعض المأكولات من السوق المركزي الصغير وهو ملاصق تقريبا للبيت.. سآكل كما أريد وأستمتع أيما استمتاع قبل الانتحار!!.. لن تتغلب علي غريزة الحياة هذه المرة!!.. هكذا كنت أفكر!!!.. لذا فقد كنت مستسلما.. مبتسما!!!.. متقبلا الواقع.. وكأنني شخص محكوم عليه بالإعدام ولا أمل له بالاستئناف!!.

توجهت إلى السوق المركزي بعد أن تأكدت أن أحدا لم يراني أثناء خروجي من ذلك البيت.. وشعرت أخيرا أن هناك عالما طبيعيا هنا.. وأن هناك أناس يعيشون حياة عادية تختلف تماما عن حياتي بكل تأكيد!!.

دخلت السوق المركزي الصغير.. ورحت أشتري كل ما أريد من مأكولات.. و.. أثناء مروري بين الأرفف المليئة بالبضاعة.. لفت انتباهي حوار بين رجلين كبيرين بالسن.. لم أتبين ملامحهما لأن عيني كانت تنظر إلى الموقف لا الأشخاص!!.. سمعت أحدهما يقول للآخر:

-ما الذي تـنـوي فعلـه في إجـازة نصـف السنـة يا (أبو يوسف)؟!.

رد عليه المدعو (أبو يوسف) ببساطة:

-سنسافر مساء اليوم إلى (شرم الشيخ) لنقضي الإجازة هناك..

سأله الآخر بحماس ضاحك:

-هل ستقضون الإجازة كلها هناك؟!.

رد (أبو يوسف) ضاحكا:

-أسبوعان بإذن الله.. العطلة كلها بالطبع..

-هل ستذهبون جميعا؟!..

-نعم.. أنا و(أم يوسف) والأولاد.. سنأخذ معنا الخادمة أيضا.

قال له صديقه أو جاره بصدق:

-هل تريد مساعدة من أي نوع؟!.. سأكون متواجدا في (الكويت) طوال فترة إجازتك ولن أذهب لأي مكان.. هل تريد مني تفقد شقتك بين الحين والآخر؟!!.

رد عليه (أبو يوسف) بامتنان:

-إن شقتي في الدور الثالث كما تعلم.. ولا أعتقد أن أحدا سيقتحم البيت ويسرق منه شيئا دون أن ينتبه الجيران.. ثم أننا في بلد آمن يا صديقي العزيز.. لسنا في (شيكاغو)!!!.. عموما أشكرك على كل حال!!!.

لم أكترث كثيرا في البداية أثناء سماعي لهذا الحوار التقليدي.. قبل أن.. قبل أن أنتفض بصورة مفاجئة!!!.. فقد خطرت في ذهني -فجأة- فكرة مجنونة بحق!!!.. هكذا هي الأفكار المجنونة.. تأتيك بشكل مفاجئ دون تخطيط.. وغالبا ما تكون مجنونة فعلا!!!.

هذا الرجل يقول أنه سيسافر مع أسرته وأن شقته ستكون خالية تماما طوال أسبوعين.. حسنا.. لماذا لا أتسلل إلى شقته وأقيم فيها طوال فترة سفره مع عائلته؟ !!.. على الأقل سأجد مكانا أنام فيه.. وعلى الأرجح فإن الثلاجة عنده مليئة بالمأكولات كما هو الحال مع بيوت أهل (الكويت) العامرة بفضل الله!!!.. مهلا.. مهلا.. إنها فكرة رائعة بحق!!!.. يجب أن.. يجب أن.. نفضت رأسي بحدة وكأنني أطرد كل أثر للتردد من عقلي!!.

خرجت من السوق المركزي بسرعة وترقب.. منتظرا ذلك الرجل الذي خرج بعدها بدقائق.. تبعته لأعرف مكان سكنه.. لم يكن بيته بعيدا عن السوق المركزي.. هذا مؤكد وإلا فلن يأتي إلى هنا ماشيا!!.. تبعته إلى بيته وإذا به يسكن واحدا من تلك البيوت التي قام أصحابها بتحويلها إلى مجموعة من الشقق ومن ثم تأجيرها على الناس.. إنه يقطن في الدور الثالث كما قال لصديقه.

ظللت متجمدا في مكاني أفكر وأنا أنظر إلى الرجل يمشي بهدوء داخلا البيت متجها إلى الدور الثالث دون شك!!!.. هل.. هل أجرؤ على فعل شيء كهذا؟!.. هل أجرؤ حقا على اقتحام بيوت الناس بهذه الصورة؟!.. بكل تأكيد أجرؤ!!.. فمن يريد الانتحار بعد أيام قليلة لن يخشى تصرفا أخرق كهذا.. لن أسرق شيئا بالطبع.. فقط سأستمتع بوجودي هناك في أيامي الأخيرة!!!.. سأنام ملء جفوني على السرير وسآكل من ثلاجتهم وأستمتع بمدفئتهم وآخذ حماما ساخنا عندهم.. ثم أترك البيت بعد أن أعيد كل شيء لمكانه.. فلن ينتبهوا سوى للثلاجة التي ستنقص منها المأكولات دون شك!!!.. ماذا؟!.. تقولون أن هذه سرقة؟!.. تقولون أن هذا غير أخلاقي؟ !!.. أقول لكم بكل بساطة: عندما يأتي الفقر.. ينهار حاجز الأخلاق!!.. فالأخلاق تتآكل في الفقر كما يتآكل المعدن الذي يقطر فوقه الماء!!.

ثم أنني لن أسرق شيئا ثمينا منهم.. إنه الطعام فحسب.. وسأستخدم كل ما لديهم من أدوات.. مجرد استخدام.. كالتلفاز.. الحمام الساخن.. الثياب النظيفة.. ثم أعيد كل شيء كما كان وأخرج قبل عودتهم!!.

ظللت في مكاني أفكر.. وأفكر.. و.. اتخذت قراري.. نعم.. سأفعل هذا.. سأفعل هذا مساء اليوم بعد سفرهم!!!.

عدت إلى ذلك البيت المهجور وقد أصبح مقر إقامتي المؤقت والوحيد في هذا العالم.. منتظرا حلول المساء!!!.. ورحت أحاول قتل الوقت في كتابة قصتي هذه.. وأنا أتناول بعض المأكولات التي اشتريتها من السوق المركزي.. و.. مر الوقت دون أن أشعر!!!.. حتى حانت اللحظة الموعودة!!.. منتصف الليل كما عرفت من الراديو الصغير.. لحسن الحظ اشتريت بطاريات إضافية وإلا لقتلني الملل.

المهم أنني خرجت أخيرا من البيت المهجور بتوجس شديد وأنا ألتفت يمينا ويسارا وقد تحولت إلى حزمة من الأعصاب المرهفة!!!.. ولو رآني أحد فسيعرف أنني أنوي شراً.. كل ملامحي توحي بذلك.. ورحت أردد بيني وبين نفسي دون توقف:

-أرجو أن يكونوا قد غادروا البلد بالفعل.. أرجو أن يكونوا قد غادروا البلد بالفعل!!!.

لقد فاتني أن أراقب البيت من الخارج لأتأكد من رحيلهم.. ولكن.. لا يهم الآن.. الباب الخارجي الحديدي مقفل!!!.. سأتسلق السور القصير إذاً.. المهم ألا يراني أحد.. و.. هوووب.. وثبة سريعة لأجد نفسي في فناء البيت!!!.. توجهت بعدها بحذر شديد إلى السلم صاعدا إلى الدور الثالث بتوتر لا حدود له.

وصلت أخيرا وأنا ألهث من فرط الانفعال.. مهلا.. اللعنة.. هناك شقتان!!!.. أي منهما لذلك الرجل الذي سافر مع أسرته؟ ؟!.. هذا مأزق لم أضعه في الحسبان!!.. رحت أنظر في حيرة إلى الشقتين.. ثم.. العين السحرية للباب كما يطلقون عليها!!.. نعم.. العين السحرية لتلك الشقة توحي أن هناك ضوءا خفيفا في الداخل.. والعين السحرية للشقة الأخرى توحي أن المكان مظلم تماما!!!.. هذا لا يثبت شيئاً.. ربما كانت الشقة الأولى هي شقتهم.. ربما تركوا النور مضاء في الداخل.. لا أعلم.. ولكن.. المنطق يقول أن الشقة ذات الأنوار المطفأة هي المقصودة!!.. ربما علي أن أقرع الجرس أولا للتأكد من خلو الشقة.. سيكون هذا أفضل دون شك!!.. ولو فتح أحدهم الباب.. فلن أنتظر.. وسأطلق ساقي للريح!!.

و.. بيد متوترة مرتجفة.. قرعت الجرس!!.. انتظرت بضع دقائق.. لا أحد يرد ولا يوجد ما يوحي بأي حركة في الداخل.. أقرع الجرس مرة أخرى.. لا أحد يرد أيضا.. سأحاول أن أفتح الباب إذا!!!.. لحسن الحظ أنني جلبت معي تلك العدّة البسيطة التي أستخدمها دائما لإصلاح الراديو الصغير الذي أملكه.. لست خبيرا في تلك الأمور.. ولكن كما يقولون: الحاجة أُم الاختراع!!!.

أخرجت المفك الصغير من حقيبتي.. ومع سلك حديدي وجدته في ذلك البيت المهجور.. رحت أحاول العبث بالقفل.. أرجو ألا يشعر أحد بشيء.. تتحرك يدي ببطء وتركيز محاولة فتح القفل.. هدوء تام يخيم على المكان سوى صوت أنفاسي اللاهثة.. ألتفت يمينا ويسارا كل لحظة وأنظر إلى السلم وإلى المصعد وإلى باب الشقة المقابلة آملا ألا يظهر أحدهم فجأة ويكشف أمري.

هناك تعبير نستخدمه كثيرا في (الكويت) كناية عن الشخص المتهور الذي يفعل ما يريد دون خوف من العواقب.. وهو (بايعها)!!!.. أي أن هذا الشخص يبيع روحه ومستقبله وحياته دون أن يكترث للعواقب.. وقد كنت أنا (بايعها) بحق!!!.. فمن في الأسفل لا يخشى السقوط.. أليس كذلك؟!.. لكني رغم كل هذا لا أستطيع أن أمنع قلبي من الخفقان.. ويدي من الارتجاف!!!.. ربما لأنني لست معتادا على ارتكاب فعل كهذا.. يجب أن.... تتك تتك.. الباب فتح أخيرا!!!.. غير

معقول!!!.. يا إلهي.. لقد فتحت الباب!!!.. لقد كنت أظن أن هذا ممكنا في الأفلام فقط!!!.. لكني فعلتها حقا!!.. نظرة حذرة إلى الداخل.. ظلام تام يغطي كل شيء تقريبا.. ترى هل أنا في المكان الصحيح؟ !!.. يجب أن أدخل لأستكشف الأمر.. ستكون كارثة دون شك لو أنني في الشقة الخطأ.. وستكون الكارثة أكبر لو عثرت على أحد نائما في الداخل!!!.

أغلقت الباب خلفي بحذر شديد.. لحسن الحظ لم أكسر القفل عندما فتحت الباب.. فلن يلحظ أحد في الخارج أي شيء غير عادي!!.. ثم.. تشاك.. تشاك.. الولاعة مرة أخرى لتنير لي الظلام الدامس!!!.. لا يمكن أن أضيء أنوار الشقة خوفا أن يكشف أحدهم أمري.

رحت أمشي بتوجس شديد في الشقة محاولا أن أرهف السمع.. هل يوجد أحد هنا يا ترى؟!.. لا أعتقد.. أحاول التأكد من خلو المكان.. يبدو أنها الشقة المقصودة!!.. ويبدو أنهم سافروا بالفعل ولا يوجد أحد إطلاقا الآن!!!.. ألتفت يمينا ويسارا لأجد بعض الصور العائلية الموضوعة على أحد الأرفف في صالة الشقة.. إحداها لذلك الرجل الذي رأيته في السوق المركزي.. إنها شقتهم إذاً دون شك.. و.. تنفست الصعداء أخيرا!!!.

رحت بعدها أبحث عن بعض الشموع هنا أو هناك.. يجب أن أعيش على ضوء الشموع طوال فترة إقامتي وألاّ أغامر بإنارة أضواء الشقة.. ثم.. رائع.. رائع.. هناك العديد منها في المطبخ وفي غرف النوم.. معظمها من تلك الشموع التي انتشرت مؤخرا في (الكويت) والتي تعطي رائحة الفواكه!!!.

أشعلت الشموع أخيرا.. وبدت لي الشقة فاخرة إلى حد ما ونظيفة.. يا له من مكان جميل.. كم أحلم أن أعيش هنا.. سأعيش هنا بالفعل ولكن لفترة لن تتجاوز الأسبوعين كما ذكرت.. وسيكون أول ما أفعله هو أخذ حمام ساخن دون شك!!.. إنني لم أستحم منذ ثلاثة أيام.. وأشعر بالقذارة تغطي جسدي بالكامل.. وشعري مبعثر مليء بالغبار.. لكن حماما ساخنا سيزيل كل هذا!!.

ذهبت إلى إحدى الغرف وعثرت على بعض المناشف.. أعرف أنه أمر غير مستحب أن نستخدم مناشف الغير.. لكن تلك الأمور لا يفكر بها فتى يعيش على بقايا ملابس أبناء خالته المستعملة!!!.. وعلى كل حال.. المناشف تبدو لي نظيفة مغسولة ومطوية بشكل جميل وهذا يكفيني تماما.

توجهت بعدها إلى الحمام وأخذت ذلك الحمام الساخن الذي انتظرته طويلا شاعرا بنشوة لا توصف.. وكأنني أغسل أحزاني وهمومي نفسها!!.

ذهبت بعدها إلى غرفة النوم الرئيسية كما بدت لي.. فأبدلت ملابسي مرتديا ثيابا نظيفة وجدتها في الدولاب.. إنها واسعة قليلا ولكن لا بأس.. لا بأس على الإطلاق.. ثم أطفأت بعدها كل الشموع ليحل الظلام في الشقة!!.

دسست نفسي بعد ذلك تحت اللحاف السميك.. كم هو جميل الإحساس بالراحة بعد التعب.. كم هو جميل ما أشعر به الآن تحديدا!!.. أغمضت عيني ورحت أسترجع ذكريات حياتي المريرة.. قبل أن أطرد تلك الأفكار السوداء وأغرق في سبات عميق دون أن أكترث إن عاد أحدهم إلى الشقة بصورة مفاجئة.. حقيقة لم أكترث!!!.

ساعات طويلة مرّت.. أو هذا ما شعرت به.. قبل أن أفتح عيني بصعوبة بالغة بسبب المرض والإرهاق.. وشعرت بالذعر الشديد للحظة بعد أن وجدت ضوء النهار يدخل عبر شباك الغرفة

وينير المكان بأكمله!!!.. فقد تملكني إحساس غريب أن أستيقظ لأجد نفسي نائما في سرير ليس بسريري.. وفوقي بطاطين وأغطية غير مألوفة.. وثياب النوم التي أرتديها ليست ثيابي!!!.. حتى أنني قفزت من فراشي بهلع.. وشهقت بصوت مسموع.. قبل أن أستوعب الوضع شيئا فشيئا.. ولا ألام على ذلك في واقع الأمر.. لأنها المرة الأولى في حياتي التي أقضي فيها الليلة في مكان غير بيت خالتي.. باستثناء ليلة أمس بالطبع في ذلك البيت المهجور!!!.

نظرت عبر النافذة برضا بالغ.. ثم التفت يمينا ويسارا.. لأرى ساعة الحائط تشير إلى الثانية ظهرا.. لقد نمت كمومياء في الأمس.. لذا أشعر الآن براحة لم أشعر بها منذ زمن!!!.. أخرجت أنفاسي ببطء وارتياح.. وأسندت ظهري ورأسي على الحائط المجاور للشباك.. منتظرا أن يهدأ خفقان قلبي.. ثم اتجهت إلى الحمام الموجود بالقرب من غرفة النوم الرئيسية لأخذ حمام ساخن مرة أخرى.. حتى أنني قضيت نصف ساعة تحت شلال المياه الساخنة!!!.. قبل أن أخرج أخيرا شاعرا برضا لم أشعر به من قبل!!!.. لا أحتاج الآن إلا لأكبر كوب شاي في العالم.. مع وجبة دسمة.. فالثلاجة مليئة بالمأكولات لحسن الحظ.

و.. ها أنا أتناول طعامي بالفعل وأشاهد التلفاز بنفس الوقت حريصا ألا يعلو الصوت كي لا ألفت انتباه أحد في الخارج.. أسترق النظر بشيء من الرضا إلى دخان الشاي المتصاعد وإلى داخل الكوب نفسه!!!.. إن ما أفعله شديد الشبه بطلب المحكوم عليه بالإعدام قبل موته.. فكل من يحكم عليه بالإعدام يملك أن يطلب شيئا قبل أن يموت.. هذا ما نعرفه جميعا.. وهذا ما أفعله الآن.. أحقق أمنيتي قبل الانتحار.. أما لو عاد أصحاب الشقة قبل موعدهم.. فلن أخسر شيئا على كل حال.. إنني ضائع في كل الظروف!!.. هذا ما أقنعت نفسي به!!.

و.. رغم غرابة حياتي بأكملها كما ترون.. ورغم غرابة تفاصيل قصتي.. إلا أن القصة الحقيقية لم تبدأ بعد!!.. وأرجو ألا يثير هذا غيظكم.. فالقصة لم تبدأ بالفعل.. كيف ومتى بدأت القصة؟؟!!.

كان هذا في اليوم الرابع من وجودي في الشقة.. وفي ساعات النوم تحديدا.. وهي أوهن لحظاتنا دون شك.. حيث نغيب فيها عن العالم الذي نعرفه.. وننغمس لا شعوريا في عالم آخر.. عالم الأحلام ومستنقع النفس البشرية الغامض المتشابك.

لا أعرف كيف أصف ما حدث!!!.. فقد مررت في تلك الليلة وأنا غائب عن الكون متدثرا تحت الأغطية الثقيلة بتجربة غامضة بالغة الغرابة أثارت ذهولي وزلزلت كياني!!.. بل كنت بين الشك واليقين أن ما مررت به ليس مجرد حلم.. إنما ظاهرة علمية خارقة تستحق الدراسة!!!.. جميعنا نحلم دون شك.. ولكن ما حلمت به كان مختلفا.. مختلفا تماما!!!.

فقد كان الحلم واضحا بصورة غير عادية.. وكأنني أشاهده عبر جهاز تلفزيون حديث بصورة عالية النقاوة والجودة!!!!.. بل شعرت وكأنني أنا نفسي جزءا من ذلك الحلم.. حتى أنني شممت رائحة المكان الذي حلمت به!!!.. حلم له رائحة؟!.. لا أعرف كيف حدث كل هذا.. ولا أعرف كيف أفسره!!!.

لقد وجدت نفسي فجأة في ماضي (الكويت)!!!.. إنها فترة أواخر الخمسينات أو ربما بدايات الستينات!!!.. رجل كويتي عجوز لا أعرفه ولم أره في عالم الواقع من قبل.. يرتدي الزي الوطني الكويتي القديم (الدشداشة) مع عقال سميك ذو الخيوط المتفرقة الذي كان يرتديه أهل الكويت قديما.. مع (صديري) أسود!!! حتى بدا لي وكأنه شخصية (بوجسّوم) الشهيرة التي تمثل ماضي

(الكويت) الجميل.. ورأيت بجانب ذلك العجوز تلك الآلة الموسيقية القديمة التي نطلق عليها اسم (بشتختة)!!!.. وكانت هناك أيضا خزنة حديدية قديمة لا شك أنها تحوي أموال العجوز أو أوراقه المهمة!!!.

هناك تفاصيل كثيرة أخرى في الحلم توحي كلها تقريبا إلى تلك الفترة من تاريخ (الكويت).. بعض الأثاث القديم.. وجهاز تلفزيون أشبه بالصندوق.. وهو من تلك الأجهزة التي انتشرت في تلك الفترة!!!.. دعك من مدفأة الكيروسين الشهيرة!!.. حتى بدا الأمر وكأنني قد سافرت بوسيلة مجهولة إلى الماضي!!!!.

لم يكن هذا أغرب ما في الأمر.. فقد كان ذلك العجوز يتعرض للقتل!!!.. نعم.. شخص ما يرتدي الزي الوطني أيضا ويقوم بخنق العجوز الذي أبدى مقاومة ضعيفة لكبر سنه دون شك.. قبل أن ينهار ويلفظ أنفاسه الأخيرة.. ليقع بجسده على المكتب بشكل يوحي وكأنه نائم!!!.

أما ذلك الشاب الذي قتل العجوز.. فقد رآني في الحلم وبدا مصعوقا مرعوبا بحق وكأنه فوجئ بوجودي!!!.. حتى أنني ابتعدت عنه قبل أن يتكلم أو يبدي أي ردة فعل!!!.. وكأنني أريد الهروب من هذا الحلم والعودة إلى الواقع!!!.. نعم.. لقد كنت أستطيع تمييز تفاصيل الحلم بهذه الدقة.. تخيل هذا!!!.

وبالفعل.. شيئا فشيئا شعرت أنني أعود إلى عالمنا بالفعل.. فاستيقظت لأجد نفسي في الفراش!!.. نظرت حولي برعب حقيقي!!!.. ثم نظرت إلى الساعة على الحائط.. إنها الثالثة فجرا!!!.. رحت أتساءل واضعا يدي على رأسي.. هل هو حلم بالفعل؟؟!!.. لا أعلم.. إنني لم أسمع بشيء كهذا من قبل.. فنحن نحلم طوال الوقت.. لكني لم أرَ في حياتي حلما بهذا الوضوح.. حتى شعرت للحظة وكأنني جزءا منه!!.. بل وشعرت أن رائحة المكان القديمة تمر عبر أنفي وتنفذ إلى صدري.. أذكر أنني قرأت مرة في إحدى الصحف عن الأحلام المتجلية (lucid dreams) وهي الأحلام التي يعرف النائم أثنائها أنه يحلم ([5])!!!.. لكن.. لا يمكن أن يكون تفسير الحلم بهذه البساطة.. هناك لغز مجهول لا أفهمه!!.

إن الأحلام قد تكون معقدة جدا.. وتستغرق فترات زمنية هائلة.. في حين أن زمنها الفعلي لا يتعدى بضع ثوان.. لكن زمن الحلم الذي عشته بدا متناسبا تماما مع أحداثه!!.. أمر غريب للغاية!!.

حاولت أن أعود بعدها إلى النوم شاعرا أنني لم أنل كفايتي من الراحة بعد.. عازما على التفكير بهذه التجربة الغريبة عندما أستيقظ..

وهذا ما حدث بالفعل.. فحال استيقاظي في العاشرة من صباح اليوم الخامس لي في تلك الشقة.. وقبل نهوضي من الفراش.. رحت أفكر بغرابة تلك التجربة التي مررت بها في الأمس!!!.. وشيئا فشيئا.. ازددت يقينا أنني سافرت إلى الماضي بوسيلة مجهولة في أحلامي!!.. هذا هو التفسير الوحيد لما حدث لي أثناء نومي.. وهو تفسير غريب بحاجة إلى تفسير آخر لا أملكه مع الأسف.

لقد شعرت بأنني مبصر من نوع خاص!!.. فأنا لم أفقد حواسي بعد!!!.. وقد رأيت وسمعت وشممت وشعرت بكل شيء حولي في هذا الحلم.. يا إلهي.. إذا كانت الأحلام بهذه الدقة والقوة فما هي الحقيقة إذا؟؟ !!.. ماذا يبرهن على أننا موجودون وأحياء؟؟!!.

ترى.. هل أنا مصاب بمرض نفسي معين؟ ؟!.. لست خبيرا في تلك الأمور.. ولكن احتمال إصابتي

بمرض نفسي أمر وارد جدا.. فلا شك أن حياتي القاسية قد جعلت مني (كوكتيل) من الأمراض النفسية!!!.

أعلم أن كل إنسان يحب أن يجد في نفسه نوعا من شفافية الأولياء.. لكني لست من هؤلاء.. إن ما حدث لي هو ظاهرة لا تصدق.. تطلب مني توضيحها؟ ؟!.. لا أستطيع.. تطلب مني إنكارها؟!.. لا أستطيع..

و.. رغم تساؤلاتي العديدة حول هذا الحلم العجيب.. إلا أنني حاولت أن أتناساه وأنشغل بإمتاع نفسي في الإقامة في هذه الشقة الجميلة.. فحلم كهذا -رغم غرابته- هو آخر ما يجب أن يشغل فتى في مثل ظروفي!!!.

رحت بعدها أعود إلى الواقع شيئا فشيئا.. وأتساءل بفضول.. ترى.. ماذا حدث في بيت خالتي بعد هروبي؟ !!.. هل يبحثون عني الآن؟!.. هل أبلغوا الشرطة ليتم القبض علي كنوع من الثأر ورد الاعتبار مثلا؟ !!.. أم أنهم سعداء بالتخلص مني فحسب؟!.. لا أعرف.. ولا يهم أن أعرف طالما أنني قررت الانتحار.. كما أنني أريد الاستمتاع بوجودي في هذه الشقة ونسيان كل مشاكلي الأخرى!!.

بالطبع كنت أقول هذا دون أن أعلم أن أحلك اللحظات هي تلك التي تسبق انبلاج الفجر.. أي فجر؟ !!.. فجر حياتي بأكملها!!!..

كان هذا بعد يوم فحسب من ذلك الحلم الغريب.. عندما كنت جالسا أشاهد أحد الأفلام الأجنبية في غرفة النوم الرئيسية كونها أبعد الغرف عن باب الشقة.. قبل أن أسمع طرقا خفيفا خجولا على الباب!!!.

أصبت بشلل لحظي غير متوقع هذا المأزق على الإطلاق!!!.. نظرت إلى الساعة.. إنها تقترب من الثامنة مساء!!!.. ذهبت مسرعا أركض على أطراف أصابعي لأطفئ التلفزيون.. وشعرت بأن قلبي يرتجف بعنف!!!.. يا إلهي.. هل هو صاحب الشقة مثلا؟ ؟!.. هل عاد من السفر مع أفراد عائلته قبل موعدهم المحدد؟!.. لا أعتقد.. لو كان الأمر كذلك فلماذا يطرقون الباب؟ !!.. هل هو أحد أقاربهم؟!.. على الأرجح جميع أقاربهم يعرفون أن لا أحد هنا!!.

خرجت من غرفة النوم ذاهبا إلى الصالة بجسد مرتجف وذهن مليء بالتساؤلات!!.. قبل أن أقترب بحذر من الباب وأنظر من خلال العين السحرية لمعرفة الطارق!!.. وإذا بشاب له شعر قصير جدا ويرتدي ثيابا رياضية!!!.. رحت أحدق به في ذهول!!.. ترى.. من هو؟ !!.. ماذا يريد؟ !!.. ازدردت لعابي بصعوبة وأنا أنظر إليه.. و.. مهلا.. إنني أعرف هذا الشاب.. رأيته من قبل.. ولكن أين؟ !!.. أين بالضبط.. اللعنة.. لا أذكر الآن!!!.. راح مرة أخرى يطرق الباب بهدوء مهيب وترقب وبشيء من الإصرار.. وكأنه يقول:

-لن أرحل إلا إذا فتحت لي!!!.

تراجعت إلى الخلف بقلق حقيقي.. وقد قررت تجاهله.. قد يكون أحد أقاربهم وسيفاجأ إذا فتح له الباب شخص غريب لم يره من قبل!!!.. رحت أمشي على أطراف أصابعي عائدا إلى غرفة النوم محاولا تجاهل طرقات ذلك الزائر.. قبل أن أسمعه يهتف بخفوت:

-أرجوك افتح الباب.. أرجوك.. هناك أمر هام أريد أن أتحدث معك بشأنه!!!!

تجمدت في مكاني تماما وقد شعرت برعب حقيقي.. في حين ظل يطرق الباب بإلحاح شديد ولكن

بهدوء أيضا!!.. وهو يرجوني بصوت خافت أن أفتح له وألا أخشى شيئا. وجدت نفسي أقترب من الباب بحذر.. لأقول بصوت مبحوح متوتر:

-م.. م.. ماذا تريد؟؟!!.

رد بدوره بصوت متوتر:

-هل لك أن تفتح الباب؟ !!.. أريد فقط أن أطرح عليك بعض الأسئلة.

أغمضت عيني والتوتر بلغ مبلغه.. قبل أن أحسم أمري وأمسك بقبضة الباب لأفتح له وجسدي يرتجف بالكامل وبشكل ملحوظ!!.

فتحت له الباب دون أن أنطق بحرف.. في حين راح يحدق بي بقلق شديد وبغموض غير مفهوم.. ثم نظر يمينا وشمالا محاولا أن يتجاوزني بنظراته ليرى إن كان هناك أحد غيري في الشقة!!!.. ليسألني بعدها بخفوت:

-هل تقيم هنا لوحدك؟!!.

قلت بحذر:

-جميع أفراد الأسرة يقضون إجازتهم في الخارج.. وأنا هنا وحيدا الآن.. ماذا تريد؟!!.

رد بتوتر واضح:

-لماذا هذا الظلام؟ !!.. هل لك أن تنير المكان؟ !!..

اللعنة.. لقد نسيت كل ما يتعلق بهذا الأمر.. فقد عشت في هذه الشقة وعلى ضوء الشموع لمدة أسبوع كما علمتم.. ونسيت كل شيء عن إنارة المكان!!.

قلت بتردد ودون أن أرد على سؤاله:

-تفضل معي إلى غرفتي!!..

ذهبت بخطوات مترددة إلى الغرفة التي لا تطل على الشارع وهي غرفة أحد أبناء صاحب الشقة كما بدت لي.. قمت بإنارة الغرفة.. حتى بدا لي المكان غريبا بعض الشيء كوني عشت هنا في ظلام طوال الأيام الماضية!!.

جلسنا على الفراش.. ثم تنحنح.. وقال متحاشيا النظر إلي:

-هل تعرفني؟؟!!.

مططت شفتي وقلت مستغربا لهذا السؤال المبهم:

-لا.. لا أعرفك!!!.

رد بإصرار:

-أرجوك حاول أن تتذكر.. ألا أبدو لك مألوفا إلى حد ما؟؟!.

قلت كالملسوع متذكرا هذه النقطة للتو:

-نعم.. نعم!!!.. هذا ما قلته لنفسي بالفعل حين رأيتك من ثقب الباب!!!.. لكني لا أذكر أين رأيتك.. ربما لهذا سمحت لك بالدخول.. لقد أثارت ملامحك فضولي كثيرا!!.. من أنت؟!!.

سكت لفترة بدت طويلة أمام نظراتي المتسائلة.. ثم تنحنح وكأنه يستعد لإلقاء قنبلة.. وقد كانت قنبلة بحق.. قنبلة حقيقية!!.. عندما قال بقلق لم أفهم سببه:

لقد.. لقد حلمت بك!!!!.. حلمت بكل ما يتعلق بك!!.. لا تسألني كيف أو لماذا.. فأنا لا أعرف الإجابة!!!.

رحت أحدق به في ذهول شديد.. قبل أن أصيح بانفعال:

-يا إلهي.. نعم.. نعم!!!.. إنه أنت.. لقد حلمت بك أيضا.. منذ يومين فحسب!!.. كان حلما غريبا لا يصدق.. بل هو أغرب حلم عشته في حياتي.. حتى بدا كل شيء فيه وكأنه حقيقي!!!.. لقد شعرت وكأنني سافرت عبر الزمن إلى فترة أواخر الخمسينات في (الكويت) بوسيلة مجهولة.. ووجدت نفسي في غرفة رجل عجوز يتعرض للقتل!!.

ارتج جسده بقوة وهو يسألني باستغراب واضح:

-أخبرني بالمزيد أرجوك.. ما هي تفاصيل الحلم؟؟!.

أخبرته بكل التفاصيل!!.. وهذا بالمناسبة أمر غريب بحد ذاته!!!.. فعادة ما ينسى الإنسان معظم تفاصيل أحلامه بعد استيقاظه بفترة قصيرة ([6])!!.. ولكن حلما كهذا -إن كان حلم أصلا -لا ينسى بكل تأكيد.

ازدرد لعابه بصعوبة.. وقال وهو يهز رأسه موافقا:

- نعم.. كان هذا هو الحلم تحديدا.. لقد كنت في الحلم في فترة الخمسينات أو ربما بدايات الستينات أقتل رجلاً عجوزاً لا أعرفه.. ثم رأيتك فجأة تظهر أمامي كجزء من الحلم!!..

والغريب هو ذلك الشعور!!.. الشعور أن ما عشته ليس حلماً.. بل حقيقة خالصة.. تماما كما قلت أنت.. كأننا.. كأننا انتقلنا إلى ماضي (الكويت) بوسيلة مجهولة!!!.. لكن لا أذكر أي شيء آخر!!!.. ولا أعرف شيئا عن ذلك الرجل الذي كنت أقتله في الحلم.. الأمور تبدو مبهمة وغريبة!!!.

وضعت يدي على رأسي مذهولا.. قبل أن أقول فجأة بارتباك واضح:

- مهلا.. إن وجودك هنا يثير تساؤلات عديدة.. كيف وصلت إلي؟!!!.. كيف عرفت أنني أسكن هنا؟!.. كيف تواصلنا ببعض عقليا؟!.. كيف حلمنا نفس الحلم؟!!.

نظر إلي بارتباك وتردد.. ثم قال بابتسامة خجولة:

-الواقع أنني كنت أنتظر في الخارج أكثر من نصف ساعة أفكر بما سأقوله لك حول هذا الأمر.. قبل أن أحسم أمري وأطرق باب شقتك.. كنت أخشى كثيرا ردة فعلك.. أن تطردني مثلا وتتهمني بالجنون!!!.. لكن لحسن الحظ أنك لم تفعل ولحسن الحظ أيضا أنك وحيد في الشقة.. فلا أعرف كيف سيتصرف والدك لو أخبرناه بهذا الكلام غير المعقول!!!.

رحت أنظر إليه مشدوها.. في حين أردف هو باستغراب بالغ:

- هناك ارتباط ما بيننا.. ارتباط نفسي لا أستطيع تفسيره.. هذا واضح.. ربما لهذا حلمنا نفس الحلم و...

تذكرت شيئا فجأة.. فقاطعته بشك:

-إنك لم تجب على سؤالي بعد.. كيف عرفت عنوان هذا المكان.. أعني.. كيف عرفت عنواني؟!!.

قال بصدق وهو ينظر إلى عينيّ مباشرة:

-لا أعلم.. دافع قوي غريب ألغى إرادتي وقادني إلى هذا المكان!!.. دافع قوي لا أستطيع وصفه ظل يسيطر علي منذ استيقاظي من النوم صباح أمس.. قبل أن أستجيب له أخيرا!!.. لقد وجدت نفسي أقود سيارتي تلقائيا إلى هنا وكأنني أعرف هذا العنوان جيدا!!.. ولم يكن هذا الدافع وهما.. فها قد وصلت إليك فعليا!!!.. إن وصولي إلى مكان سكنك هو لغز آخر لا أفهمه.. كنت آمل أن أجد منك تفسيرا لما حدث.. لكن.. يبدو أنك تجهله أيضا!!.. لقد حلمنا ببعض دون سبب واضح.

نظرت إليه بقلق وأنا أخشى أن يكشف أمري.. لا تنسوا أنني أستقبل هذا الشاب وكأن هذا المكان هو بيتي!!!.. بينما في واقع الأمر لست سوى فتى أحمق متسلل.. وربما لص لو كنا نعتبر ما أكلته وشربته هنا سرقة!!!.

وأمام نظراته المتحفزة.. زفرت بقوة وأنا أنظر إلى عينيه.. قبل أن أقول بضراعة:

-لم لا ننسى الأمر؟ !!.. صحيح أنها قصة غريبة بالفعل.. صحيح أن أحدا منا لم يمر بشيء كهذا من قبل.. لكن.. لا يوجد ما نستطيع فعله.. إنه أمر غير قابل للتفسير كما يبدو.. هناك الكثير من الغرائب التي لا نملك لها تفسيرا في هذا العالم.. ربما هذه إحداها!!.

نظر إلي طويلا وكأنه يفكر بكلامي.. ثم قال وهو يشير إلي بإصبعه:

- أنت محق.. ربما.. ربما يجب أن ننسى الأمر برمته.. على كل حال أعتذر منك لهذه الزيارة المفاجئة.. وأشكرك على استضافتك لي!!.

أومأت برأسي موافقا.. ثم.. لم يجد ما يقوله.. فنهض من مكانه وتوجه ناحية الباب ونحن نتبادل عبارات المجاملة.. ليخرج من الشقة دون أن يراه أحد لحسن الحظ.. وقد شعرت أخيرا أن تلك المغامرة مرت بسلام وأن هذا الشخص لم يكشف أمري.. آملا أيضا ألا يكون أحد في الخارج قد سمع صوتنا أثناء حديثنا!!.

أغلقت الباب وأنا أزفر مفرغا كل انفعالاتي.. يا له من أمر غريب!!!.. يا لها من قصة غريبة!!!.. لقد تغيرت حياتي بأكملها منذ هروبي من بيت خالتي لغاية وصولي إلى هذا المكان.. ومرورا بذلك الحلم الغريب وزيارة ذلك الشاب لي!!!.. ترى ما اسمه؟!.. إنني حتى لم أسأله عن اسمه!!.. لا يهم!!.

ذهبت إلى غرفة النوم وعقلي مشغول تماما.. لقد اقترب موعد رحيلي من تلك الشقة.. واقترب موعد الانتحار.. ومهما تحدثنا عن الانتحار وعن شجاعتنا في الإقدام عليه.. إلا أن الأمر يختلف تماما عندما يقترب موعده!!!.. ولكن.. لا يوجد لدي خيار آخر.. فأنا لا أعرف ما فعلته خالتي وزوجها خلال الأيام الماضية.. ربما أبلغوا الشرطة بأمر هروبي.. إن هروبي قد يكون بنظرهم دليلا واضحا على أنني ارتكبت تلك الجريمة!!!.. أو.. ربما تسترا على الأمر واكتفيا بهروبي من منزلهما!!!.. لا أعرف.. ولن يهمني كثيرا أن أعرف في واقع الأمر.. فبعد أيام قليلة.. سأقوم بقطع شريان معصمي.. تماما كما يفعلون في الأفلام.. وستنتهي حياتي البائسة.. سأمتلك الشجاعة حينها للإقدام على الانتحار.. هذا ما أراهن عليه!!!.

ولحسن الحظ أنني على الأقل عشت ورأيت شيئا من الحياة التي أتمناها.. مشاهدة التلفاز كما أريد.. حياة هادئة هانئة في تلك الشقة الأنيقة.. آكل ما أريد من الثلاجة التي امتلأت بالأطعمة.. وأرتدي ثيابا نظيفة بعد سنوات من ارتداء ثياب أبناء خالتي المستعملة والبالية!!.

مر بعدها اليوم سريعا فعلت خلاله كل ما أريد.. قرأت بعض الكتب التي وجدتها في تلك الشقة.. شاهدت مسرحية كوميدية.. أكلت.. شربت.. و.. كل ما يفعله شخص فقير وجد نفسه في قلب الخير والنعمة فجأة!!!.. ثم ذهبت بعدها إلى الفراش.. في الواحدة فجرا ربما.. ورحت أفكر قبل النوم بكل شيء.. الحياة السوداء التي عشتها.. اليتم.. الفقر.. القهر.. وذلك الحلم العجيب الذي لا أستطيع تفسيره وهو على كل حال آخر ما أفكر به الآن.. و.. نمت أخيرا!!!.. نوما عميقا كعادتي منذ أن جئت إلى هذه الشقة.. وكأنني أعوض سنوات من النوم القلق في غرفة ضيقة قذرة في بيت خالتي.

كنت نائما بسلام وهدوء قبل أن تختلط علي الأمور فجأة وأشعر للحظة أنني متواجد بين عالمين.. الواقع والخيال.. الخيال؟ !!.. لا يمكن أن يكون الخيال بهذه الصورة الغريبة!!!.. إنني أفقد توازني.. يااااااااااااااااه.. استيقظت مفزوعا بحق!!!!.. ورحت ألهث بقوة وأنا أنظر حولي برعب بالغ.. إنني.. إنني لست على السرير.. بل لست في الشقة نهائيا!!!.. جسدي.. يا إلهي.. اللعنة.. جسدي يؤلمني كثيرا!!!.. قدمي.. هل هناك التواء في قدمي؟ !!.. لا.. لا أعتقد.. لكنها تؤلمني كثيرا.. أين أنا؟!.. و.. ما الذي يحدث هنا؟؟!.

تطلب الأمر دقيقة لأفهم وأعرف ماذا حدث.. إنني.. إنني ملقى على السلّم!!!.. السلّم الذي يؤدي إلى الشقة!!!!.. كيف وصلت إلى هنا؟ !!.. لقد كنت نائما في فراشي.. فما الذي أوصلني إلى هنا؟ !!.. كيف فتحت باب الشقة وخرجت منها متوجها ناحية السلّم دون أن أشعر بنفسي؟؟!!.

نهضت من مكاني وقد زال أثر النوم تماما من عيني.. ورحت أترنح من شدة الألم عائدا إلى الشقة وأنا ألتفت حولي بقلق شديد آملا ألا يكون أحدهم قد رآني!!!.

ذهبت إلى المطبخ وعلامات الاستفهام والقلق تغزو عقلي.. رحت بعدها أعد لنفسي كوبا من الحليب الساخن.. وجلست أشربه بتلذذ وأرى إن كانت هناك أي إصابات بليغة جراء الوقوع على السلّم!!!.. لكني كنت بخير لحسن الحظ سوى بعض الآلام البسيطة في كاحلي.. وهناك كدمة صغيرة في رأسي. أعتقد أنني سأكون على ما يرام!!.. ولكن.. كيف وصلت إلى هناك؟!.. كيف نهضت من الفراش وخرجت من الشقة؟!.. كيف توجهت إلى السلّم دون وعي أو إدراك؟!.. هل كنت أمشي أثناء النوم مثلا؟ !!.. يا إلهي.. هذا مخيف!!!.. هل أنا أمشي أثناء النوم دون أن أدري؟!!.

هناك تيمة أخشاها منذ طفولتي.. وهي الذين يمشون أثناء النوم!!!.. فأكثر شيء يرعبني هو حين أشاهد أحدهم يمشي وهو نائم رغم أن أمرا كهذا لم يحدث لي من قبل.. لكن مجرد تخيله يخيفني!!.. هذه التيمة مخيفة بحق!!!.. هل تخيلت أن تكون في فراشك ليلا وتسمع باب حجرتك يُفتح بهدوء وثقة.. ثم تُفاجأ بوجه أحدهم -حتى ولو كنت تعرفه جيدا- ينظر إليك بملامح جامدة وبعينين شبه مغلقتين.. وكأنه إنسان آلي.. فتدرك أنه يزورك في غرفتك وهو نائم لا يشعر بنفسه؟ !!.. يا إلهي.. أخشى مجرد تخيل الفكرة!!!.

لقد عرفت فيما بعد أن هذا الداء هو أحد اضطرابات النوم الشائعة نسبيا.. إذ أثبتت التقارير الطبية أن 18% من الناس يعانون من المشي أثناء النوم.. ويحدث ذلك عادة في الثلث الأول من

النوم.. حيث يكون الدماغ حينها نصف نائم ونصف واع.. ويمكن أن يقوم المصاب بهذا المرض ببعض المهام السهلة مثل تجنب بعض العوائق التي قد تصادفه وهو يمشي.. إلا أنه عادة لا يمكنه التفاعل الكامل مع العوامل الخارجية أو القيام بالعمليات المعقدة كما يظن البعض.. فمثلا قد يقع المصاب من السلّم أو قد يخلط ما بين النافذة والباب مما ينتج عنه بعض الإصابات أو حتى الوفاة أحيانا!!!.. وهناك أسباب عديدة وراء الإصابة بهذا المرض النفسي.. منها القلق الشديد والتوتر ([7]).. وهي أمور أعانيها طوال حياتي كما تعلمون!!.. يبدو أن هذا مرضاً نفسياً جديداً لم أعرف أنني مصاب به.. وسيضاف دون شك إلى قائمة أمراضي النفسية الأخرى التي ربما سأكشف المزيد عنها يوما بعد يوم لو تراجعت عن قراري بالانتحار.. و.. ماذا؟؟؟!!!.. نهضت من على الكرسي كالملسوع وقد قطعت حبل أفكاري بنفسي.. هناك فكرة غريبة طرأت في ذهني فجأة.. بل فكرة خارقة الغرابة!!!.. لا.. لا يمكن.. لا يمكن أن يكون التفسير بهذه البساطة!!!!.. أي تفسير؟؟؟!.. يجب.. يجب أن أتأكد بنفسي أولا.

رحت أمشي في الشقة وقد صار المكان مألوفا إلى حد كبير حتى بدأت أشعر أنني في بيتي بالفعل.. إلا أن الأنوار ظلت غير مضاءة بالطبع.. أما أنوار عقلي فكانت مضاءة وتعمل بأقصى طاقاتها!!!.. هناك أمر خطير يجب أن أتأكد منه.. إلى أي مدى قد أكون محقا يا ترى؟ !!.. لا مجال لمعرفة ذلك إلا لو فعلتها بنفسي.. فعلت ماذا؟؟ !!.. ستعرفون بعد قليل.. هناك مغامرة لا بد من الإقدام عليها.. إنها أشد جنونا من كل ما فعلته حتى الآن!!.. نعم.. لا بد من تلك المغامرة حتى أتأكد من نظريتي.. وحتى أكشف السر وراء كل ما حدث!!.. الحلم الغريب الذي عدت بواسطته إلى الماضي كما بدا لنا جميعا.. ارتباطي النفسي مع ذلك الشاب الذي زارني قبل ساعات!!!.

رحت أزن الأمر بعقلي لساعة أو أكثر.. قبل أن أتخذ القرار وأحسم الأمر.. فلأتذكر دائما أن حياتي ستنتهي بعد أيام قليلة.. ولو كنت مخطئا فيما سأفعله.. فلن يضرني شيء!!!.

أخذت نفسا عميقا.. وحسمت أمري.. نظرت إلى الساعة.. إنها الثالثة صباحا.. سأنفذ خطتي الآن وليحدث ما يحدث بعدها!!!.

بحثت في المطبخ عن سكين صغيرة أستطيع أن أخبئها في جيب البيجامة.. لحسن الحظ وجدت واحدة.. ثم مشيت بإصرار وهدوء خارجا من الشقة عاقد الحاجبين وملامحي توحي بالخطورة!!!.. أخذت نفسا عميقا مرة أخرى محاولا السيطرة على توتري.. فالأمر ليس سهلا على الإطلاق!!!.. وتوجهت بعدها إلى الشقة المقابلة.. والتي يبعد بابها عن باب الشقة التي أسكنها بضعة أمتار فحسب.. أمسكت بمقبض الباب بيد مرتجفة.. المقبض مكسور.. والباب مفتوح لا يحتاج سوى دفعة صغيرة.. يا للهول.. لا يمكن.. لا يمكن!!.. يبدو إن استنتاجي صحيحا.. هذا لا يصدق!!!.. دفعت باب الشقة المقابلة بهدوء شديد وبيد مرتجفة.. هناك شيء خلف الباب.. نعم.. لقد وضعوا شيئا خلف الباب بالفعل كي يبقوه مغلقا بعد أن كسروا القفل!!!.. من الذي كسر القفل؟ !!.. أظن أنني أعرف الفاعل!!!.. أعرفه جيدا.

فتحت الباب بهدوء شديد.. محاولا أن أدفع الكرسي الموجود خلفه دون أن أحدث أي ضجة.. دخلت بعدها الشقة وجسدي يرتجف بأكمله!!.. شقة ذات أثاث بسيط جدا.. هناك غرفتان كما يبدو.. ولكن.. تلك الغرفة تحديدا.. أعتقد أنها الغرفة الرئيسية.. دخلتها مزدردا لعابي بشدة خوفا من خطأ استنتاجي.. قبل أن.. قبل أن يصيبني شلل لحظي.. ربما هو أقوى من الشلل!!!.. من النادر أن يشعر الإنسان بتجمد جميع أطرافه.. لكن هذا ما شعرت به حينها بالفعل!!!.

ففي هذه الغرفة.. رأيت تماما ما توقعته.. يا إلهي.. هل كنت محقا لهذه الدرجة؟ !!.. يا لها من حبكة رهيبة لا تصدق!!!.. و.. قبل أن أستوعب اكتشافي للحقيقة.. سمعت صوتا مألوفا خلفي يقول بغضب وحنق شديدين:

-أيها اللعين.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟؟!!.

انتفضت بقوة عند سماعي لصوته.. فالتفت وإذ به ذلك الشاب!!.. الشاب الذي حلمت به والذي زارني مساء أمس!!.

قلت بذهول وجسدي ينتفض بقوة:

-يا إلهي.. لم.. لم.. لم يكن حلما إذا!!!.. تماما كما توقعت!!!.. هذه الغرفة بمحتوياتها القديمة التي تعود إلى فترة الستينات.. الرجل العجوز الذي تعرض للقتل!!!.. لقد رأيت كل هذا في الواقع دون أن أعلم!!!.. فظننته حلما!!!.

راح ينظر إلي بغضب هائل دون رد.. فأردفت بذات الذهول:

-إنني مصاب بداء المشي أثناء النوم.. لم أكتشف هذا إلا منذ قليل فحسب!!!.. يبدو أنني نهضت من فراشي قبل يومين أثناء نومي.. وقد جئت إلى هذه الشقة ماشيا دون أن أشعر!!.. ورأيت جريمة القتل أمام عيني.. فظننتها حلما.. أليس هذا ما حدث؟ !!.. أنت قتلت هذا العجوز المسكين.. وجئت لتسرق شيئا قيما يحتفظ به هنا.. لكن يبدو أنك لم تعثر عليه بعد!!.

ازدردت لعابي أمام صمته ونظراته الغاضبة.. لأكمل:

- لقد ظننت أنني بوسيلة ما قد رجعت إلى فترة الستينات في (الكويت)!!.. أثاث الغرفة ومحتوياتها.. الثياب التي يرتديها ذلك العجوز المسكين.. كل شيء في الغرفة يوحي بفترة الستينات بالفعل!!!.

سكت أخيرا وأنا أنظر حولي بعينين متسعتين.. ثم.. قال الشاب بحنق واضح:

-هذا الرجل هو في الواقع عمي!!!.. إنه رجل بخيل جدا.. يمتلك أموالا طائلة.. وقد اعتزل العالم بأكمله منذ سنوات.. حتى أنه لم يتزوج!!.. بل وباع بيته القديم لينتقل إلى هنا هربا مني كي لا أطلب منه المال.. لكني عرفت بعد تحريات طويلة بمكان سكنه.. فتسللت إلى شقته.. وقمت بمباغتته وخنقه حتى الموت.. على أن أجد الوقت بعدها لأسرق ثروته.. إنه من الطراز القديم.. ويحتفظ بكل أمواله هنا!!!.

سكت وهو يزدرد لعابه.. ثم قال بغضب:

-لكني فوجئت بوجودك مقتحما المكان بصورة آلية مرتديا بيجامة.. وشعرك منكوش.. وملامحك توحي أن عقلك في عالم آخر!!.. بل ورحت تنظر إلى الموقف بجمود لم أفهمه!!!.. في البداية أصبتني برعب هائل بسبب وجودك المفاجئ ونظرة الخمول الغريبة التي رأيتها في عينيك!!!.. قبل أن أراك تستدير عائدا إلى شقتك وتدفع بابها المفتوح.. ثم تدخل وكأن شيئا لم يكن!!!.. لم أعرف كيف أتصرف وقتها إزاء تلك التصرفات الغريبة!!.. لكني حزمت أمري وعدت إلى شقة عمي بسرعة آملا أن أفتح الخزينة وأسرق ما بها من أموال قبل أن أهرب!!.

سألته بذهول:

-لماذا لم تسرق الأموال وتهرب إذاً؟!.. لماذا ظللت في شقة عمك ليلتان كاملتان؟!.

قال بحنق شديد:

-لقد فتحت الخزنة الحديدية بعد جهد هائل.. لأفاجأ بوجود مبلغ أقل بكثير مما ظننت!!.. بضعة ألوف فحسب!!!.. لا يمكن أن تكون هذه ثروة عمي.. إنه يملك أضعاف ما في تلك الخزنة!!!.. ولكن أين خبأ أمواله؟!.. أين؟ !!.. لا أعلم.. إنني أبحث طوال اليومين الماضيين!!!.. وكنت سأستمر في البحث دون قلق لأنني أعلم جيدا أن أحدا لن يزوره أو يسأل عنه.. ولكن ظهورك في شقته أصابني برعب حقيقي!!.

سكت وهو يضرب المنضدة بقبضته غاضبا.. ثم أردف:

-لقد خمنت أنك مصاب بداء المشي أثناء النوم.. كان هذا هو الاستنتاج الوحيد الممكن.. فلا يمكن لإنسان أن يتصرف بالطريقة التي تصرفت بها إلا لو كان مصابا بداء المشي أثناء النوم!!!.. إنني لم أجرؤ حتى على سؤالك عما تفعله هنا عندما رأيتك لأول مرة.. بسبب الصورة الآلية الغريبة التي بدوت عليها ونظرتك الخاوية التي لم أرَ مثلها من قبل!!.

سألته باستغراب واضح:

-لماذا زرتني في شقة.... أعني في شقتي؟!..

زفر بقوة ثم قال:

-لأن وسواس القلق ظل ينهش قلبي!!!.. ورحت أتساءل.. ترى.. هل ستكتشف أمري؟ !!.. لم أكن أعلم!!!.. لذا قررت زيارتك في شقتك مساء أمس لأخبرك أنني أحلم بك وأن الأحلام قادتني إليك لسبب مجهول!!!.. حاولت أن أعطيك انطباعا أنني أعيش معك تجربة غريبة من عالم ما وراء الطبيعة.. وكانت محاولة مني أيضا للتأكد أنك لا تعرف ما يدور حولك!!.

سألته بعدم فهم:

-ولكن.. كيف تصادف وجودي في شقة عمك في لحظة ارتكابك للجريمة؟!.. هل من الممكن أن تصل الصدف إلى هذا الحد؟!..

نظر إلي بغموض.. ثم قال:

-لا أعرف!!.. هذا أمر لا أملك تفسيرا له.. ربما هي الصدفة فحسب!!..

سكت قليلا.. ثم اقترب مني وهو يقول:

-لم أتوقع أن تكشف أمري بهذه السهولة!!!.. إلا أنني قد وضعت خطة بديلة لحسن الحظ!!.

نظرت إليه دون أن أفهم ما يقصد!!!.. ثم فهمت!!!.. يا لي من غبي.. لماذا يخبرني بكل تفاصيل خطته إذا؟ !!.. لقد قرر بكل تأكيد ما سيفعله بي من قبل أن يكشف لي كل شيء!!!.. لقد كان ينتظر اللحظة الحاسمة دون شك!!!..

دار ذلك الخاطر بذهني سريعا وأنا ألمح شيئا في يده.. سكيناً غريب الشكل بشع المنظر.. كالذي يستخدمه رجال الجيش في الأفلام.. وفي عينيه الوقحتين رأيت الحقيقة.. إنني لن أخرج من هنا حيا!!!!.

لوحت له بيدي في رعب حقيقي.. فقال بحنق واضح:

-لا يوجد لدي حل آخر.. أريد أن أسرق ثروة عمي وأحتاج إلى بعض الوقت لأبحث عنها!!..

وأخشى أن تقوم بالإبلاغ عني.. لحسن الحظ أن أفراد عائلتك لن يعودوا قبل بضعة أيام من الآن كما قلت لي بنفسك بالأمس!!.. وهي فترة كافية على الأرجح.. فأنا أبحث هنا طوال الوقت عن الثروة وسأجدها إن عاجلا أم آجلا!!!.. أما أنت.. فيجب إسكاتك إلى الأبد و...

لم يكمل عبارته.. بل انقض علي فجأة مستغلا الفرصة!!!.. كان أكبر مني سنا وحجما.. لذا لم يكن من العسير أن يرقد فوقي بلحظة واحدة وفي وضع تثبيت الكتفين الشهير!!!.. كنت أحاول بذعر حقيقي أن أفلت منه.. وهذا غريب بالفعل.. إذ طالما فكرت بالانتحار وإنهاء حياتي بنفسي.. لكني أجد نفسي الآن في صراع مرير مدافعا عن حياتي.. رغم أنه صراع محسوم قبل أن يبدأ!!.. خاصة عندما رأيت عينيه ووجدته ينظر إلي مبتسما بقسوة!!!.

أمسكت يده بكل قوتي ونصل السكين يقترب من رقبتي.. لا يوجد لدي أي أمل بهزيمة شخص يفوقني قوة وعمرا وثقة!!!.. ثم تذكرت تلك السكين التي خبأتها في جيب البيجامة!!.. أخرجتها بيدي الأخرى وأودعتها بكل قوتي في معدته!!!.. قبل أن أشعر به وقد خارت قواه تماما وجحظت عيناه فجأة.. وراح يلفظ أنفاسه الأخيرة بمشهد مخيف جمّد الدماء في عروقي!!!.

كنت ألهث بقوة وأنا أنظر إليه بذهول شديد والحياة تنسحب من جسده شيئا فشيئا.. وأنظر إلى جثة عمه الملقاة على المكتب!!!.. لاحظوا أنني لم أعتد أن أكون حادا في حياتي.. إذ لم أزجر إنسانا من قبل.. ولا أجيد فن الخشونة.. والآن أقتل رجلا وأجد نفسي فجأة بين جثتين!!!.

جلست على الأرض غير مصدق ما حدث.. لقد ارتكبت جريمة قتل!!!.. إنها حالة دفاع عن النفس دون أدنى شك.. لكن رغم ذلك.. ليس من اليسير أن تقتل رجلا كان ينبض بالحياة قبل لحظات!!!.. إنه شعور مخيف بحق.. لا يمكن أن تشعر به ما لم تقتل أحداً بنفسك!!!.. ثم.. ما الذي سأفعله بعد هذه المصيبة الجديدة؟!.. فوجودي في هذا المكان أصلا يحمل علامات استفهام لا حصر لها!!.

كنت أنظر حولي برعب حقيقي!!.. وبعينين مغرورقتين بالدموع.. ثم.. وقعت عيناي على جثة ذلك الرجل العجوز الذي تعرض للقتل منذ يومين!!.. لقد كان رأسه ملقى على المكتب.. ولكن.. يوجد كتاب بين رأسه والمكتب!!!.

شعرت بشيء من الفضول تجاه ما قد يحويه هذا الكتاب!!.. وراح يتردد في ذهني ما قاله ابن أخيه الوغد عندما ذكر أنه يبحث عن الثروة لكنه لا يجدها!!.. نهضت باشمئزاز وبعينين مليئتين بالدموع.. ثم أمسكت بالكتاب وسحبته برفق من تحت رأس الرجل العجوز محاولا ألا ألمسه.. أشعر أن أجساد الموتى يجب ألا تمس!!.. إنه ميت منذ يومين أو ربما ثلاثة أيام.. ترى.. متى سيبدأ جسده بالتحلل؟!.. لا أعرف!!. نفضت تلك الفكرة جانبا وأنا ألتفت يمينا وشمالا.. هذه المكتبة الموجودة في غرفته.. إنها مكتبة قديمة وتحوي عدداً لا بأس به من الكتب.. يا لي من أحمق.. كنت أظن أن كل هذا جزء من أحلامي وأنني قمت أثناء نومي بالسفر بوسيلة مجهولة إلى الماضي.

نظرت إلى الكتاب الذي بين يدي بتوجس.. وإذ به كتاب قديم نسبيا مهترئ الصفحات.. يبدو أن العجوز قد قرأه كثيرا!!.. تصفحته بقلق وأنا أنظر في كل لحظة إلى الجثتين شاعرا بالرعب من مجرد تخيل نهوضهما!!!.. لكن.. لكن الكتاب لا يحوي شيئا ذا قيمة!!.

تركت الكتاب وذهبت لأجلس في زاوية الغرفة لأقيّم وضعي وأعرف أين أنا وما هو مكاني في هذا الكون!!!.. أنظر بمزيج من الحزن والخوف إلى جثة الرجل العجوز.. ستبدأ جثته بالتعفن قريبا

دون شك.. والرائحة ستبدأ بالانتشار.. لحسن الحظ أن برودة الجو قد ساهمت إلى حد ما بتأخير عملية التعفن!!!.

ترى هل أدفن جثته وجثة ابن أخيه؟ !!.. هذه فكرة غبية بالطبع.. وعلى كل حال.. لو لمست جثة العجوز فربما سأكون متهما بقتله هو أيضا!!!.. أنا لم أقتل سوى ذلك الوغد وفي حالة دفاع عن النفس.. ولكن.. كيف سأقنع الشرطة بهذا؟!.. إنني متسلل للشقة المقابلة.. ومتسلل هنا أيضا!!.. ففي كل الأحوال لا يوجد أي مبرر لوجودي!!!.. ماذا سأفعل؟!!!.

ظل عقلي يعمل كمحرك بأقصى طاقاته.. وأنا أردد بلهفة:

-هناك حل.. حتما هناك حل!!!..

نعم.. هناك فرصة هائلة لا تتكرر بإمكاني استغلالها الآن.. فلماذا لا أحصل أنا على الثروة؟؟!!.. إن هذا كفيل بتغيير حياتي إلى الأبد.. بل وبولادتي من جديد دون مبالغة.

راقت لي الفكرة كثيرا.. ورحت أدرسها بدقة!!.. إذ أستطيع أن أقيم هنا ليومين إضافيين أبحث خلالهما عن الثروة قبل أن تبدأ رائحة الجثتين بالانتشار.. ثم أخرج من هنا ظافرا ولن يعلم مخلوق بما جرى.. أنا واثق من هذا.. لأن طريقة وصولي إلى هذا المكان وقصتي بأكملها بعيدة عن خيال أي إنسان.. فلا يمكن أن تكشف الشرطة أمري مثلا لو عثروا على الجثتين!!.

ولكن هناك مشكلة حقيقية.. فلا يمكنني تخيل أنني سأبيت في شقة تحوي جثتين.. هذا مخيف!!!.. مخيف جدا.

نهضت واقفا ورحت أستكشف المكان.. إنها شقة تختلف عن تلك التي أقمت بها طوال الأيام الماضية.. فهذه الشقة أصغر بكثير.. وتحوي غرفتين فقط كما ذكرت سابقا.. وحمامين.. ربما لو وضعت الجثتين في أحد الحمامين وأقفلت الباب عليهما.. قد يهون هذا كثيرا من الأمر!!.. إنها فكرة لا بأس بها على الإطلاق.

وضعت خطتي قيد التنفيذ.. وقمت بسحب الجثتين باشمئزاز بالغ إلى الحمام.. شاعرا أن عروقي ستنفجر في كل مرة أسحب فيها إحداهما.. ثم.. أقفلت عليهما الباب عالما أنني لن أفتحه بعد الآن... هذا مؤكد!!.

قمت بعدها بمسح الدماء التي خلفها شجاري مع ذلك الوغد.. لا يوجد أي خوف من بصماتي.. فلا أذكر أن الشرطة قد حصلت على بصماتي من قبل.. ربما لأنني تحت السن القانوني وهو الثامنة عشرة.

نهضت بعدها لأبحث في غرفة المكتب عن تلك الثروة المزعومة.. و.. وجدت حقيبة صغيرة تحوي مبلغا لم أرَ مثله من قبل.. آه.. إنها بضعة الآلاف التي وجدها ذلك الوغد في خزينة عمه!!!.. إنه مبلغ رائع بكل تأكيد ويمكنني استغلاله لاحقا.. لكن.. هذا لن يكفي!!!.. فهي ليست سوى بضعة ألوف من الدنانير ستنتهي إن عاجلا أم آجلا مهما كنت مقتصدا في إنفاقها.

ترى.. أين ممكن أن تكون ثروة ذلك العجوز.. أين يا ترى؟؟!!.. هذه هي المعضلة.. يبدو أن ابن أخيه قد بحث عنها في كل مكان كما يقول!!!.. لكني رغم ذلك.. رحت أبحث مرة أخرى وأخرى.. علني أعثر على شيء.. حتى أنني قضيت أكثر من ثماني ساعات تقريبا أبحث فيها في كل ركن من الشقة دون فائدة!!!!.. والواقع أنه لم يكن هناك ما يريب في الشقة سوى غرفة المكتب التي تبدو بالفعل وكأنها جزء من تاريخ (الكويت)!!.. إنها مزدحمة ومكتظة تماما بالكثير من المقتنيات

الشخصية لذلك العجوز.. هناك دولاب غريب المنظر.. لكنه خال تماما.. لماذا يضع العجوز دولاب كهذا في غرفته دون أن يضع أي ثياب بداخله؟!.

رحت أنظر بعين ثاقبة إلى كل ركن في الغرفة.. مهلا.. ما هذه العلبة الزجاجية الصغيرة.. إنها تحوي داخلها عملة معدنية.. هذه العملة.. إنها عملة أمريكية تساوي فلس أمريكي فحسب!!.. أي أنها لا تساوي شيئا!!.. أي لغز تخفيه أيها العجوز يا ترى؟ !!.. المشكلة أنني لا أملك كل الوقت في العالم.. فلن أستطيع المكوث هنا أسابيع مثلا!!!.. لا بد من الخروج بأسرع وقت.. هناك ألف احتمال واحتمال لما قد يحدث.. لذا يجب التفكير سريعا واتخاذ قراري!!!.

جلست مرة أخرى في صالة شقة العجوز مفكرا بما يجب فعله.. ثم اتخذت قرارا هاما سيجعلني أفكر بذهن صاف!!.. إذ ذهبت إلى الشقة المقابلة التي أقمت فيها طوال الأيام الماضية.. وأخذت منها كل حاجياتي وأعدت كل شيء إلى مكانه.. حتى تطلب الأمر قرابة الساعة.. قبل أن أخرج متجها إلى شقة العجوز مرة أخرى!!!.

ثم ذهبت بعدها إلى غرفة مكتب العجوز مرة أخرى.. ورحت أبحث عن الثروة ببال مرتاح قليلا كوني أزلت كل أثر يتعلق بوجودي في الشقة المقابلة.. لكن.. لا شيء.. لا شيء إطلاقا!!.. ترى هل يمتلك ثروة بالفعل؟؟!!.. أين هي إذا؟ !!.. هل أودعها في البنك؟!.. ربما.. لكن ابن شقيقه أخبرني أن عمه من الطراز القديم وأنه يخبئ كل أمواله هنا!!!.. من المؤكد أنه لم يقتحم المكان ويقتل عمه إلا إذا كان على ثقة أن الثروة مخبأة هنا بالفعل.

أنظر مرة أخرى إلى ذلك الدولاب الخالي غريب الشكل!!.. وأنظر إلى الغرفة بشكل عام.. أنظر وأمعن النظر.. قد.. قد يكون الأمر أبسط كثيرا مما أظن.. وربما لا.. رحت أبحث بعدها بين الكتب الموجودة في المكتبة.. أتصفح بعضها.. لعله ترك مالا هنا أو هناك بين صفحاتها!!.. إلى أن توقف بصري فجأة أمام تلك الصورة التي وجدتها على صفحات أحد الكتب.. صورة تبدو مألوفة إلى حد كبير.. كبير للغاية!!!!.. أين رأيت تلك الصورة من قبل؟ !!..

و.. هناك صور أخرى تبدو مألوفة إلى حد كبير أيضا!!.. وكأنها.. مهلا.. مهلا.. يا لي من أحمق.. بكل تأكيد هي مألوفة!!!.. كل ما أراه في هذا الكتاب موجود في واقع الأمر في غرفة العجوز.. يا إلهي.. نظرت إلى غلاف الكتاب بحواس متحفزة.. وإذ به يتحدث عن المقتنيات والتحف الأثرية النادرة باهظة الثمن.. هل هذا يعقل؟؟!!.

رحت أتصفح الكتاب كالمجنون.. هناك العديد من التحف والمقتنيات الموجودة في غرفة العجوز أراها موجودة في هذا الكتاب بالفعل!!!.. هل يهوى هذا الرجل جمع التحف والمقتنيات النادرة مثلا؟؟! !!.. بالطبع.. يا إلهي.. هذه الغرفة عبارة عن متحف مصغّر بالفعل!!.. إنها تحوي تحفاً ومقتنيات ثمينة جدا.. تلك العملة المعدنية الأمريكية الموجودة في العلبة الزجاجية الصغيرة والتي ظننتها لا تساوي شيئا.. إنها في واقع الأمر عملة (الصقر الذهبي المزدوج) (Double Gold Eagle) كما هو مذكور في ذلك الكتاب!!!.. وهي عملة معدنية صنعتها الحكومة الأمريكية عام 1933.. وكانت الكلمات الموجودة على العملة محاطة بدائرة نحاسية كما هو الحال مع العديد من العملات.. ولكن.. قامت الحكومة الأمريكية بسحب هذه العملة من الأسواق بعد فترة وجيزة لأسباب غير مفهومة.. عدا ثلاثة فقط.. اثنتين منهما ذهبتا إلى المتحف.. وأخرى تمت سرقتها وبيعها في مزاد علني بحوالي سبعة ملايين دولار ونصف ([8])!!!.. يبدو أن ذلك العجوز هو من اشتراها!!!.. أما دولاب الثياب فهو (دولاب تشيبيندال) ([9])!!!.. وهو دولاب أثري أيضا يساوي

ثروة حقيقية كما هو مذكور في الكتاب!!!.. ثم..

تلك الجرّة.. جرّة صغيرة موجودة في زاوية الغرفة.. مجرد جرّة.. لكنها تساوي 8 ملايين دولار ([10])!!.. وذلك الطبق الفضي الكبير نسبيا.. إنه يساوي 10 ملايين دولار ([11]).. كل هذا مذكور في الكتاب!!!.. يا إلهي.. يستحيل أن تكون تلك التحف مزيفة.. لا شك أن العجوز قد أودع ثروته كله فيها!!!.. ولم يترك من الأموال سوى بضعة ألوف عثر عليها ابن أخيه الوغد ووضعها في حقيبة على أن يأخذها معه عندما يجد الثروة كلها كما علمنا!!!..

إن هذه الشقة لهي مغارة (علي بابا) إن صح التعبير!!!.. بالطبع برقت عيناي بقوة أمام هذا الاكتشاف المذهل!!!..

شاعرا أنني سأقفز إلى أعلى السلم الاجتماعي بهذه التحف.. ولكن.. كيف سأتمكن من إخراج تلك المقتنيات الثمينة من هنا؟!..

ربما.. ربما أستطيع إخراج بعضها على الأقل.. ذلك الطبق الفضي مثلا!!.. والجرة.. والعملة المعدنية.. نعم.. قد تكون هناك وسيلة للاستفادة من تلك المقتنيات النادرة بالفعل.. ولكن.. يجب أولا أن أنتقل إلى مكان آمن بعيدا عن كل ما يحدث حولي!!!.. يجب أن أهرب من هنا قبل أن يكشف أحدهم أمري ثم أفكر بعدها بما سأفعله!!.

وضعت تلك المقتنيات في كيس بعد أن قمت بلفها بحذر ببعض الثياب التي وجدتها في غرفة نوم العجوز.. وأخذت الحقيبة التي تحوي الأموال ثم.. خرجت من الشقة أخيرا.. وبحذر شديد خوفا من أن يراني أحد!!.. كانت الساعة تقترب من السادسة صباحا.. وقلبي يخفق كالطبل بسبب المقتنيات التي أحملها معي ولا أعرف كيف سأستفيد منها!!.. لحسن الحظ فإن مغامرة خروجي قد مرت بسلام ودون مشاكل تذكر!!!.

و.. لأول مرة منذ مجيئي إلى هذا المكان.. أخرج لأرى النور.. حاملا ذلك الكيس بحذر شديد مع حقيبتي المدرسية والحقيبة التي تحوي الأموال.. أما الحقيبة التي احتوت على ثيابي فقد رميتها في أقرب حاوية مهملات.. وتوجهت بعدها ماشيا إلى السوق المركزي كي أتصل بإحدى شركات سيارات الأجرة!!.

كانت الحياة تسير بصورة طبيعية.. هناك بعض المارة هنا وهناك مع حركة بدأت تنشط نسبيا حول السوق المركزي.. و.. خلال ساعة أو أكثر قليلا.. كنت في سيارة الأجرة أبحث عن شقة مناسبة لا تثير الشبهات في منطقة (السالمية).. فهذا ما خططت له بالفعل!!.. ولم يكن الأمر عسيرا مع الأموال التي بحوزتي!!.

بقشيش يسيل له لعاب سائق التاكسي كي يأخذني إلى عمارة سكنية يعرف بوّابها.. ومبلغ محترم آخر للبواب كي يعثر لي على شقة في تلك العمارة الصغيرة الحديثة.

بالطبع بدا البواب في البداية مترددا قلقا!!.. بل وكاد أن يقسم بأغلظ الإيمان أن أمرا كهذا مستحيل.. فلا يمكن أن يسمح لفتى أعزب بطبيعة الحال وفي السادسة عشرة من عمره بالحصول على شقة.. لكن.. المال يلعب دوره دائما!!.. أعطيته مائتي دينار.. فنسي قسمه في لحظة وسمح لي باستئجار شقة!!!.

لقد تطلب الأمر أسبوعا كاملا كي أجهز شقتي الجديدة بكل ما أحتاجه.. قبل أن تصبح أخيرا شقة أنيقة راقية لم أكن أحلم بالعيش فيها.. ماذا؟!.. تقولون أنني تصرفت بذكاء منقطع النظير في

قصتي هذه؟ !!.. إنني لست داهية لا يشق لي غبار.. إنما هي إحدى اللحظات التي يأتينا فيها الإلهام دون سبب واضح.. وهو أمر يحدث معنا جميعا بين الحين والآخر!!.

لم تنتهِ القصة عند هذا الحد بالتأكيد.. بل رحت أبحث في عالم الانترنت عن أحد يشتري تلك الآثار بوسيلة لا تتطلب الكثير من الجهد.. كأن يأتي بنفسه إلى (الكويت) مثلا ويشتريها مني!!!.. نعم.. فنحن نتحدث عن مقتنيات باهظة الثمن يسيل لها لعاب الأثرياء وجامعو التحف!!!.

ولم يكن الأمر عسيرا!!!.. فقد عثرت بالفعل على أحد المواقع الإلكترونية التي يبحث من خلالها الأثرياء عن التحف والمقتنيات النادرة.. إن شبكة المعلومات (الانترنت) لهي اختراع مذهل دون شك.. ولولا دراستي لمادة الحاسوب في المدرسة لما استطعت الإقدام على هذه الخطوة.

قمت بعدها بوضع عنوان بريدي الإلكتروني في هذا الموقع.. مع رسالة أبلغ من خلالها الجميع عن المقتنيات النادرة التي أمتلكها.. بالطبع كتبت كل هذا باللغة الانجليزية بعد أن اضطررت لاستخدام قاموس اللغة عشرات المرات بسبب حصيلتي اللغوية الضعيفة كحال أي طالب يدرس في المدارس الحكومية.

لم يكن أمامي بعدها سوى الانتظار!!!.. و.. لم أنتظر طويلا لحسن الحظ.. فبعد بضعة أيام فحسب.. وبعد أن أصبت بقلق شديد بسبب تناقص الأموال التي أمتلكها.. وجدت أخيرا تلك الرسالة في صندوق بريدي الإلكتروني الذي أنشأته خصيصا لهذا الأمر!!!.

كانت الرسالة من مليونير أوروبي طلب مني إثبات على صدق كلامي.. فرددت عليه برسالة أخرى أنني لا أستطيع أن أثبت له شيئا إلا إذا جاء إلى (الكويت) وفحص تلك المقتنيات بنفسه!!.. ورحت أحثه على الحضور وأخبره أن لا مصلحة لي بالكذب عليه وأن هذا هو عنواني ورقم هاتفي النقال في (الكويت) إذا أراد المجيء والتأكد بنفسه.. فقد اشتريت هاتفا نقالا لهذا الأمر تحديدا!!!.

ولم يكذب خبرا لحسن الحظ.. فقد اتصل بي مندوب ذلك المليونير ليتأكد أن الأمر ليس مجرد مزحة.. وأبلغني أنه سيأتي إلى (الكويت) بنفسه ليستطلع الأمر.. يبدو أنني قد أثرت اهتمامهم كثيرا!!.

وبالفعل.. يومين فحسب قبل أن يطرق أحدهم باب شقتي الجديدة.. لأشعر أن قلبي سيقفز فرحا بعد أن رأيت من فتحة الباب رجلاً طويل القامة ذا ملامح أوروبية جادة لا تمزح!!..

فتحت له الباب.. ورحبت به بإنجليزية ركيكة هي كل حصيلتي من المدرسة.. ثم راح ينظر إلى التحف التي أمتلكها.. ورحت أريه الكتاب والصور لأؤكد له أن التحف حقيقية وغير مزيفة.

لكنه لم يكترث لكلامي إطلاقا.. بل أخرج من جيبه مكبّر غريب الشكل.. وراح ينظر من خلاله إلى التحف بدقة شديدة.. حتى أنني احترمت صمته ولم أتفوه بحرف.. قبل أن يبتسم أخيرا برضا.. ويقول:

-موافق.. سنشتري منك التحف!!!!.

لا أعرف كيف تمكنت من منع نفسي من البكاء فرحا.. حاولت جاهدا أن أتمالك نفسي.. وسألته بصوت متحشرج:

-كم ستدفع؟ !!..

رد قائلا وكأنه معتاد على المزايدة مع الناس:

-لن أسألك كيف عثرت على تلك التحف.. من الواضح أنك سرقتها.. لكن هذا لا يهمني كثيرا!!!.. وأعلم أنك حسبت كل شيء بما أن الأسعار مكتوبة في الكتاب الذي بين يديك.. تلك المقتنيات جميعها تساوي حوالي 30 مليون دولار.. لكني سأدفع ثلثي المبلغ فقط..20 مليون دولار!!!.. ماذا تقول؟!.

ماذا أقول؟ !!.. ومن أنا حتى أرفض عرضا كهذا؟ !!.. قبل أيام كان كل ما في جيبي لا يتعدى العشرة دنانير.. والآن أملك حوالي 6 ملايين دينار!!!.. إنه يلعب لعبته ويستغلني كما يبدو.. لكني لا أهتم كثيرا.. فهذا المبلغ يكفي تماما كي أهدم حياتي السابقة بالمعول وأبدأ من جديد.. أبدأ من جديد تماما!!!.

وافقت دون تردد.. لكني سألته بقلق وبإنجليزيتي الركيكة:

-كيف سأحصل على المال؟!.. هل ستسلمني شيكا بالمبلغ؟ !!.. أنا لا أملك حسابا بالبنك!!!.

رد ضاحكا وقال بما معناه:

-هل تعتقد أن أي بنك في العالم سيسمح لفتى في مثل سنك أن يصرف شيكا بهذا المبلغ؟ !!.. سأسلمك المبلغ نقدا!!!.

قلت له بحذر:

-هل تملك هذا المبلغ نقدا؟!!.

رد ببساطة:

-إن سيدي رجل الأعمال لديه علاقات عديدة مع كبار الموظفين في سفارتنا في (الكويت).. وقد أرسل هذا المبلغ بالفعل إلى السفارة بصندوق يحمل ختما دبلوماسيا حتى لا يقوم أحد بتفتيشه.. سآتي بالمال مساء الغد!!.

ولم يعد هناك ما يقال.. ففي اليوم التالي.. جاء ذلك الرجل مرة أخرى إلى شقتي بالفعل.. ولكن هذه المرة كان برفقة أحد موظفي السفارة الذي كان متواجدا بصورة غير قانونية بالطبع.. ليسلمني حقيبتين تحويان الأموال كلها.. ثم طلب من الموظف الخروج قبل أن يفتح الحقيبتين لأرى المال!!.

بالطبع كاد قلبي أن يتوقف فعليا من هذا المنظر!!!.. إنني لم أرَ في حياتي أموالا بهذه الكثرة!!!.. لكن.. قلت له بحذر وبقلب مرتجف:

-ما الذي يضمن أن تلك الأموال ليست مزيفة؟!!.

مد يده إلى إحدى الحقيبتين وأخرج من وسط الرزم الموجودة ورقة من فئة المائة دولار.. ثم طلب مني أن آخذها إلى أي محل للصرافة للتأكد منها!!!.. فكان هذا كافيا دون شك لتصديقه!!.

يقولون أن الماضي لا يمكن تغييره.. وهذا صحيح إلى حد كبير.. ولكن.. ماذا لو قمنا بمسح الماضي تماما وكتابة حياة جديدة؟!.. نعم.. فبواسطة قوة المال.. ها أنا أقتحم الكون وأبدأ من جديد!!!.. وها هي حياتي تنقلب رأسا على عقب من حيث لا أدري!!!.. إنني صغير في السن..

وأملك الآن أموالا طائلة.. أي أملك كل ما يمكنه أن يصنع مني إنسانا ناجحا.. لا يوجد لدي أي عذر بعد اليوم.. سألتفت لدراستي وأنفض الغبار عن عقلي وأعوض سنوات طويلة من الضياع!!.

ماذا حدث بعد هذا؟ !!.. عدت إلى المدرسة بالطبع!!!.. بعد أن تغيبت حوالي أسبوعين منذ أن انتهت إجازة نصف السنة.. ولم يكن الأمر سهلا على الإطلاق.. ففي البداية شعرت بقلق حقيقي من أن تأتي خالتي أو زوجها إلى المدرسة بحثا عني.. أو أن يتم فصلي بسبب غيابي الطويل.. لكن شيئا من هذا لم يحدث لحسن الحظ.. إذ لم يذكر المدير أي شيء عن حضور ولي أمري إلى المدرسة وسؤاله عني.. إلا أنه لم يوافق بالطبع على عودتي بهذه البساطة بعد فترة الغياب الطويلة تلك!!.. ففي البداية طلب لقاء ولي أمري!!.. لكني أخبرته بقلق عن مشاكلي مع خالتي وزوجها.. وأنهما لا يسألان عني إطلاقا.. وأقسمت له أنني سأكون طالبا مجتهدا منذ اليوم.. علما بأنني لم أكن أبدا من الطلبة المشاغبين الذين يثيرون المشاكل!!.. ثم قمت بعدها بالبكاء والنشيج.. وأخبرته أنني أعاني مصاعب كثيرة في حياتي.. وأنها المرة الأولى التي أتغيب فيها بهذا الشكل بسبب ظروف عائلية قاهرة.. و.. وافق أخيرا!!!.. وافق على عودتي إلى المدرسة بعد تعهد مني ألا أتغيب بهذه الصورة مرة أخرى.

رحت بعد هذا أنكب كبا على دراستي!!.. فأدرس بجد لم يعهده أحد.. وأقضي ساعات طويلة في شقتي يوميا للدراسة.. حتى أساتذتي لاحظوا فارقا شاسعا في نظافتي الشخصية واهتمامي بنفسي.. بل واهتمامي بدروسي أيضا!!.. وراح الجميع في المدرسة يسألونني عن أحوالي.. وعن موجة الاجتهاد الدراسي والنظافة التي اجتاحت حياتي فجأة.. فكنت أبتسم بحرج شديد دون تعليق.. وأردد بيني وبين نفسي بقلق:

يجب أن أكون أكثر حذرا.. يجب أن أنعزل تماما عن زملائي الطلبة.. يجب أن أمشي بجانب الحائط وأنزوي عن العالم قدر المستطاع كي ينسى الجميع وجودي ولا ينتبهون إلى التغيير الذي حل بحياتي!!.. مراهق في السادسة عشرة من العمر ويملك الملايين من الدولارات ويعيش وحيدا في شقة!!.. كل هذه أمور تفجر علامات الاستفهام من حولي.. لابد من الحذر.. والمزيد من الحذر.

لم يكن الأمر سهلا كما قد يظن البعض.. ففتى في مثل ظروفي من الصعب جدا أن يلتفت لدراسته أمام كل مغريات الحياة.. لكني أدرك تماما أن لا أحد في هذا العالم يهتم بأمري.. لذا لا بد أن أكون أنا ولي أمر نفسي!!.

يا إلهي.. لم أحسبني قط قادرا على العودة لممارسة حياتي مرة أخرى بهذا الحماس.. فقبل أسابيع قليلة كنت ضائعا تماما.. وكنت قادرا على ابتلاع علبة كاملة من السم دون أن يطرف لي جفن!!!.. حتى أنني للحظة حقدت على البشرية كلها.. وشعرت بأنني أسوأ حالا من (دايوجينز) نفسه!!!.. ذلك الفيلسوف الإغريقي الذي كان فقيرا معدما يرى الحياة بمنظار أسود.. إلى درجة أنه كان يحمل سراجا مضيئا في وضح النهار.. ويلف به طرقات (أثينا) باحثا عن رجل شريف كما كان يدعي ([12])!!!.. ولكن.. بعد كل هذا.. ها هي الأمور تنقلب رأسا على عقب لأصبح مليونيراً في ليلة وضحاها.. وتبتسم الحياة بوجهي بصورة لا تصدق وأنا لا زلت صغيرا في مقتبل العمر!!!.

ماذا فعلت بعد قصتي هذه؟!.. لقد قررت أن أنعزل عن الجميع حتى لا أنكشف بملايين الدولارات التي أمتلكها الآن في شقتي.. لذا قررت أن آكل وحيدا.. أدرس وحيدا.. وألعب وحيدا!!!..

حتى كلامي سيكون لي.. لأن الابتعاد عن البشر هو الابتعاد عن الشر.. حقيقة أدركتها رغم سني الصغيرة!!.

وها أنا بعد أيام قليلة من انتهاء مغامرتي السابقة.. وبعد الاستقرار في شقتي الجديدة.. بدأت بمسح وجهي الغابر.. ورحت ألمع ملفات حياتي الصدئة.. ورغم أن جرحي النفسي غائر ولا زال ينزف بعد سنوات من العذاب في بيت خالتي.. إلا أنني لا زلت مصرا على الاحتفاظ بكل تفاصيل حياتي السابقة حتى أتذكر دائما أنني لا أملك سوى نفسي في هذا العالم.. وقد قطعت وعدا على نفسي بأنني لن أقبل أن أعيش في رفاهية دون هدف.. فالرفاهية الزائدة هي التي تنسيك الحياة.. وتنسيك أنك إنسان.. وتحولك لكائن أناني يريد أن يأخذ ليرتاح لا ليعطي.. وما أكثر هذه (الكائنات) في (الكويت)!!!.

لقد بدأت عجلة حياتي تدور شيئا فشيئا من خلال الاستقرار في شقتي الجديدة.. والذهاب إلى المدرسة بانتظام.. والاجتهاد في دراستي بالطبع وتعويض كل ما فات.. أريد أن أتخرج من المرحلة الثانوية بتفوق لألتحق بعدها بالجامعة.. ليس من أجل العثور على وظيفة محترمة تدر علي المال.. بل من أجل العثور على نفسي!!!.

لا أنكر أنني لم أتخلص من قلقي في بادئ الأمر من أن يأتي زوج خالتي أو خالتي نفسها إلى المدرسة للسؤال عني.. لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ.. يبدو أنهم سعداء بالتخلص مني وقد قرروا أخيرا أنني غير موجود!!!.. ولحسن الحظ أيضا أن أبناء خالتي في مراحل دراسية أخرى والبعض الآخر خرج من المدرسة ولم يكمل تعليمه.. لذا لم يكن أي منهم زميلا لي في المدرسة.. ليزول قلقي شيئا فشيئا مع مرور الأيام!!.. وتبدأ حياتي الجديدة الهادئة البعيدة عن الاختلاط بالناس.. لحسن الحظ أن بطاقتي المدنية بحوزتي.. فلن أحتاج أحداً إطلاقا في معاملاتي الرسمية.. علما بأنني سأبلغ سن الثامنة عشرة بعد سنتين وستكون حياتي أسهل بكثير..

و.. أخيرا.. بعد مرور بضعة شهور على تلك الحادثة وانتهاء السنة الدراسية على خير.. وبعد نجاحي الذي كان له طعما مختلفا هذه المرة.. ها أنا جالس في شقتي أشاهد التلفزيون بعين راضية.. أستذكر كل ما حدث وكيف انقلبت حياتي رأسا على عقب!!.

لقد تعلمت الكثير من محنتي هذه.. تعلمت دروسا لا تنتهي.. لعل أهمها على الإطلاق أن نتذكر دائما ألا نمشي أبدا على الطريق المرسوم.. لأنه سيقودنا حيث ذهب الآخرون.. يجب أن نرسم طريقنا بأنفسنا.. وتعلمت أيضا أنه ليس خطؤك أن تولد فقيرا.. ولكن خطأك أن تموت فقيرا!!!.. هذا درس لن أنساه مدى الحياة وسأتذكره دوما!!.

كما لا أنسى أبدا أن المستقبل هو أهم ما في حياة أي إنسان.. فإذا كان ماضيك أسودَ أو مؤلماً.. فحاول أن تحذفه من تاريخك نهائيا.. وتنكّر له قدر استطاعتك.. وعش بلا ماضٍ.. ولا تصدق أن الذي ليس له ماضٍ.. ليس له حاضر أو مستقبل.. فالحاضر والمستقبل يكونان أجمل وأفضل لو أنك تخلصت وأعلنت براءتك من ماضٍ سيئ.

ولا أنسى بالطبع أن أذكر أن أصعب ما في قصتي هذه هو اختيار اسم ملائم لها.. لأنها ليست قصة واحدة.. بل مجموعة أحداث مترابطة مررت بها على مدى أسبوعين تقريبا.. ربما لهذا اخترت لقصتي ذلك الاسم الغريب.. 14 يوم!!.

الرسالة الثانية

أيها الحب.. ترفّق!!

المرسل: مجهول

ملاحظة: عزيزي القارئ.. هذه الرسالة أنشرها لك كما وصلتني دون تعديل.. سوى بعض المعلومات التي أضفتها حتى تساهم في توضيح أحداث القصة.

خالد سليمان ال....

عزيزي (خالد سليمان ال....)..

سمعت عنك الكثير.. وتابعت بشغف وذهول مذكراتك التي أدخلتني في دهاليز لم أتوقع دخولها يوما.. حتى رحت أخبر جميع أصدقائي عن قصصك.. وكانت ردة الفعل دائما متباينة تتراوح بين التصديق والتشكيك.. وأحيانا -المعذرة-الضحك على سخافتك!!!.

وبغض النظر عن آراء الناس.. فأنا أصدق كل ما كتبته.. خاصة بعد أن عشت بنفسي مؤخرا تجربة غريبة جدا شغلت عقلي وكياني أياما طويلة.. قبل أن ينتهي كل شيء فجأة وأعود بعدها لحياتي الطبيعية.. ولكن بجروح كثيرة أحاول نسيانها.

والواقع أنني أرسل إليك هذه الرسالة آملا أن تجد صداها عندك وأن تنشرها في أحد إصداراتك القادمة.. لماذا؟ !!.. لا أعلم.. لا يوجد سبب محدد.. فليست لدي أي رغبة في الشهرة.. بل وعلى العكس تماما.. أريد أن تكون معلوماتي الأساسية سرية.. لذا لن أخبرك بأي تفاصيل عن عائلتي أو حتى اسمي الأول.. سأخبرك بأحداث قصتي فحسب.. والناس على كل حال تريد أن تعرف تفاصيل الأحداث أكثر من شخصية بطلها.. خاصة وأن قصتي ليست مرتبطة بفضيحة قد يتهافت الناس لمعرفة صاحبها.. فنحن نعيش في مجتمع يعشق الفضائح.. وببحث بسيط في عالم الانترنت تستطيع أن تتأكد من كلامي.. هذا هو مجتمعنا وهذه هي عقلية جيلنا!!!.

عموما.. لست هنا للحديث عن أحوال (الكويت) كما تفعل أنت دائما!!.. إنما أريد فقط أن أسرد عليك قصتي الغريبة التي ستبحر بك في عالم ما وراء الطبيعة بكهوفه ودهاليزه وأسراره!!!.

لقد لاحظت أنك تردد دائما أنه ما زالت في عالمنا مناطق مظلمة.. وبقاع غامضة محيرة مقلقة لم يكشف العلماء أسرارها بعد.. لكنك لم تتحدث بشكل كاف عن أكثر الأشياء غموضا في هذا العالم.. الإنسان نفسه!!!.. نعم.. فالغموض يكمن فينا نحن البشر.. وقصتي هذه ستكون خير دليل على كلامي.

لقد كنت أظن أنني آخر إنسان ممكن أن يتعرض لتجربة غريبة من تلك التجارب التي تصدع رؤوس قرائك بها.. لماذا؟!.. لأننا دائما نظن أن هذه الأمور تحدث للآخرين فقط ولا تحدث لنا!!.. مقولة سخيفة بالطبع.. لكننا جميعا نرددها بيننا وبين أنفسنا طوال الوقت!!.

هل قصتي مرعبة؟ !!.. هل يشوبها الغموض؟!.. هل هي مشوقة؟!.. هل هي قابلة للتصديق؟ !!.. وهي من الأسئلة التي قد يطرحها أي قارئ قبل أن يفكر بقراءة قصة ما.

ولمن يطرح هذه الأسئلة أقول: إن قصتي غريبة.. غريبة جدا!!.. وتدور أحداثها خارج نطاق

حواسنا الخمس بكل تأكيد.. إذ تتفرع إلى عالم ما وراء الطبيعة.. ما وراء المجهول.. ما وراء الحب.. ما وراء الموت.. ما وراء كل شيء!!!.

والواقع أنني لا أعرف من أين أبدأ قصتي!!!.. فالبداية هي أصعب ما في الأمر!!.. لست كاتبا محترفا.. كما أنني أدرك جيدا أنك من خلال المقدمة قد تأسر القارئ.. أو تفقده إلى الأبد!!.. فالمقدمة هي التي تجعل القارئ يقرر إن كان سيقرأ الرواية أم لا.. وإن كان الراوي سيقدم شيئا جديدا أم أنه مجرد أحمق آخر.. لذا فالأمر صعبا بالنسبة لي.. لكني سأحاول على كل حال!!.

إنني شاب في السادسة والعشرين من العمر.. أعزب حتى لحظة كتابة هذه السطور.. وقد حصلت منذ سنة تقريبا على شهادة البكالوريوس في الهندسة الكيميائية من (الولايات المتحدة الأمريكية) وبتقدير امتياز مع مرتبة الشرف.. قبل أن أعود إلى (الكويت) منذ شهور قليلة لأحصل على وظيفة معيد في كلية الهندسة آملا أن أحصل بعدها على بعثة أخرى لاستكمال دراستي خلال سنة أو أكثر قليلا.. فطموحي لا حدود له كما ترى.. وأدرك جيدا أن التعليم الجامعي لم يعد كافيا في هذا الزمن.. هذه حقيقة نعرفها جميعا الآن!!!.

لن أتحدث كثيرا عن أفراد العائلة لأن هذه أموراً لا تخص أحداً سواي.. كما أنه لا دور لأي منهم في قصتي هذه.. ربما سأتحدث عن والدتي فحسب.. والتي لا زالت تلح علي أن أتزوج وأكمل نصف ديني كما تقول دائما.. وأن ابنة خالتي الكبرى فتاة طيبة وجميلة تنتظر فقط ابن الحلال!!.

فوالدتي ككل أم كويتية محدودة التعليم من الجيل القديم.. تريد زواجا تقليديا لابنها.. أما أنا فمن أبناء هذا الجيل.. لذا تجدني أرغب في العثور على زوجتي بنفسي.. وعندما أصارح والدتي بذلك.. ترد بحزن:

- ولكن يا ولدي.. أنت تسافر طوال الوقت.. وستغيب عنا مرة أخرى بعد سنة تقريبا.. كيف ستجد زوجة المستقبل التي تتحدث عنها؟ !!.. أما لو كنت تتحدث عن الزواج من أجنبية.. فاعلم أن هذا سيقتلني قتلا!!!.

فأبتسم لكلامها وأردد ما يقوله أي ابن:

- لا تخشي شيئا يا أمي.. لن أتزوج من أجنبية.. وإن شاء الله ستعيشين لتري أحفادك وأبناء أحفادك!!.

أقول لوالدتي هذا الكلام بثقة مطلقة.. دون أن أجرؤ على إخبارها أنه لم ينغص علي حياتي سوى بحثي الدائم عن ذلك الإكسير السحري.. الحب!!!.. نعم.. هذه هي مشكلتي الوحيدة!!.. إنني أبحث دائما عن الحب دون أن أعثر عليه حتى الآن.. فتجدني بالمقابل أكتب أشعارا وهمية عن فتاة من وحي خيالي.. وأشاهد الأفلام الأجنبية الرومانسية كـ (روميو و جولييت) أو (تيتانيك).. وأغوص أكثر وأكثر في عالم الحب الجميل وأتعذب به دون أن أخبر أحدا بذلك بالطبع.

نسيت أن أخبرك أننا قد انتقلنا حديثا لبيت جديد في منطقة (الشامية).. فقد اشتراه والدي بإلحاح من أشقائي بعد أن حصلوا عليه بسعر معقول للغاية لأن صاحبه رجل الأعمال - كما يقولون -قد اضطر للسفر إلى الخارج فجأة بسبب أزمة مالية طاحنة ستضطره للإقامة في أوروبا بضعة سنوات.. فقام بعرض منزله للبيع آملا في الحصول على مبلغ من المال يساعده على تجاوز تلك الأزمة!!.

هذه هي حياتي كما ترى.. بسيطة سلسة.. لا تختلف عن حياة أي شاب آخر.. ولا تتجاوز ذلك

النمط الروتيني المعتاد.. إذ يبدأ اليوم بالذهاب إلى العمل.. فالعودة منه.. ثم النوم ظهرا أو الإبحار في عالم الانترنت.. وبعدها الخروج مع أصدقائي حتى ساعة متأخرة.. لأعود بعدها إلى البيت.. وإلى يوم جديد!!.

كيف بدأت قصتي إذا؟؟ !!.. المشكلة أن أحداث قصتي لم تبدأ بالتدريج كما هو الحال مع معظم القصص التي تبدأ عادة من المقدمة ثم تتجه فيها الأحداث شيئا فشيئا إلى الذروة!!.. فعلى العكس تماما.. وجدت نفسي فجأة دون أي مقدمات غارقا في سلسلة من الأحداث الغامضة!!.. وستفهم يا (خالد) ما أعنيه بعد قليل.

لا زلت أتذكر ما حدث تلك الليلة.. عندما كنت أقوم بترتيب بعض الكتب والأوراق في غرفتي بصورة اعتيادية على أن أشاهد بعد ذلك مباراة مهمة على أحد القنوات الفضائية.

المهم أنني وأثناء تنظيف غرفتي.. مررت بتجربة بالغة الغرابة لم أجد لها أي تفسير!!!.. إذ فقدت الإحساس بالزمن فجأة ودون أي مقدمات!!!.. لا.. لم أفقد الوعي إن كان هذا ما تظنه.. بل فقدت الإحساس بالزمن فحسب!!!.. ثم.. وجدت نفسي بعد ذلك جالسا على ركبتي أنظر إلى التلفزيون بغباء وخمول وبعين خاوية.. كيف حدث هذا؟!.. لا أعلم؟!!.

نهضت من على الأرض مستغربا ألتفت يمينا ويسارا بقلق.. ظانا أن (فقدان الإحساس بالزمن) هذا قد استغرق ثوان قليلة فحسب!!!.. إلا أن شعوري بالتنميل التام في ساقي جعلني أنتبه إلى أنني كنت جالسا في هذا الوضع لفترة طويلة!!!..

نظرت إلى الساعة المعلقة على الحائط!!!.. فانتفض جسدي بقوة!!!.. يا إلهي.. لقد كانت الساعة تقارب الثامنة مساء قبل قليل.. أما الآن فهي تقترب من العاشرة والنصف تقريبا!!!.

عزيزي (خالد).. لك أن تتصور ما دهاني من حيرة.. وما أصاب توازني من خلل بعد هذا الاكتشاف الغريب!!.. لقد مضى من الزمن ساعتان ونصف لا أذكر منها شيئا على الإطلاق رغم أنني كنت مستيقظا في غرفتي أقوم بترتيب بعض الأوراق كما أخبرتك!!.

كيف حدث هذا؟!.. كيف فقدت إحساسي بالزمن فجأة طوال ساعتين ونصف؟ !!.. كيف جلست على ركبتي بهذه الصورة أنظر فيها إلى التلفزيون بعين خاوية إلى درجة أن ساقيّ أصيبتا بالتخشب والتنميل؟ !!.. لا أعلم!!!.. رحت أنظر حولي ببلاهة شديدة!!!.. ثم حركت ساقيّ قليلا آملا أن أعيد الدورة الدموية إليهما وعقلي مشغول تماما بما حدث لي!!.

إنني أعلم جيدا أن هناك عشرات التفسيرات الطبية لحالات فقدان الوعي.. حتى المفاجئة منها.. أما (فقدان الإحساس بالزمن) دون فقدان الوعي.. فهذا ما لم أسمع به من قبل!!!.. هل.. هل أنا مصاب بلوثة عقلية مثلا؟ !!.. لا يمكن.. لا أحد يصاب بالجنون فجأة.. هذا مستحيل على حد علمي.. هل أنا مصاب بمرض ما؟ ؟!.. لا أعلم!!.

رحت أفكر بقلق شديد بما حدث دون أن أخبر أحد.. وظللت على هذا الحال طوال ساعتين أو أكثر باحثا عن تفسير أو سبب واضح لما جرى لي.. ثم.. تناسيت كل شيء محاولا إقناع نفسي أن هذه مجرد ظاهرة غريبة من تلك الظواهر التي لا نجد لها تفسيرا.. وأنها على الأرجح لن تتكرر!!!.

فجلست بعدها أمام شاشة الكمبيوتر بعد أن فاتني مشاهدة المباراة بسبب حالة (فقدان الإحساس بالزمن) هذه!!.. ولا أعرف في الواقع إن كان هناك مصطلح علمي كهذا!!!.. إنها مجرد

عبارة اخترعتها لتسمية ما حدث لي.

ماذا حدث بعدها؟ ؟!.. لم يحدث شيء يستحق الذكر!!!.. ولم تتكرر تلك الحادثة مرة أخرى.. حتى أنني نسيتها تماما مع مرور الأيام.. قبل أن تبدأ قصتي الفعلية في تلك الليلة من ليالي (الجمعة).. وفي بدايات شهر (يونيو) الماضي.. عندما كنت أشاهد مسرحية كويتية قديمة في ساعة متأخرة وبعين نصف نائمة.. شاعرا بالنعاس يثقل جفوني ويزيل مقاومتي للبقاء مستيقظا شيئا فشيئا.. فأمسكت بجهاز التحكم.. ورحت بأصابع خاملة أبحث عن زر إغلاق التلفاز.. ولكن.. قبل أن أضغط على الزر.. شعرت فجأة بصداع رهيب لا حدود له.. صداع سيطر على كل ذرة من عقلي!!!.. حتى أنني أمسكت رأسي بكلتا يدي بقوة من شدة الألم!!!.. وظننت أن هناك قنبلة موقوتة في رأسي ستنفجر لا محالة وتحيله إلى أشلاء!!.

لحظات قليلة من هذا العذاب والألم.. قبل أن أشعر فجأة بتحسن!!!.. وأنهض وسط قلق هائل بسبب ما تعرضت له!!!.. لقد كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بصداع رهيب لا مبرر له كهذا!!!.. ثم... (ليلى)!!..

فتاة نادرة كـ(البلاتين) ([13]).. إنها أجمل فتاة رأيتها في حياتي.. تنتمي لأرقى عائلة عرفتها في حياتي!!!.. يا إلهي..

(ليلى).. يا لها من فتاة جميلة!!!.. لا.. إن كلمات مثل (جميلة) أو (رائعة) أو (ملائكية) لا تصلح!!.. أحتاج إلى كلمات أعمق.. أحتاج إلى كلمات مثل.. مثل.. لا أعرف!!!.

إنني على يقين أن كل شخص يحمل في ذهنه تصورا مثاليا خاصا به وحده عن الجمال.. ولكن.. (ليلى) تختلف تماما.. إنها نموذج حقيقي للجمال الذي يقف على الأرض المشتركة بين البشر جميعا.. هات رجلا من الصعيد ليراها.. سوف يصرخ في ذهول:

-يا بووووي!!!

ويلقي بطاقيته على الأرض!!!.. هات لوردا من الريف الانجليزي.. ولسوف يعجز عن الكلام و يسقط رماد سيجاره على سترته الفاخرة!!.. أما الأعرابي فسينيخ ناقته وينظم قصيدة من الشعر النبطي عن هذا الجمال وهذه الفتنة.. نعم.. هذا ما سيشعر به كل من يرى (ليلى)!!!.

كلام جميل.. ولكن.. من هي (ليلى)؟ ؟!.. لا أعرف!!.. لقد (اكتشفت) فجأة أنني أعرف فتاة رائعة تحمل هذا الاسم.. وأن كل تفاصيل حياتها تنساب إلى عقلي فعليا دون توقف وبوسيلة مجهولة!!!.. هواياتها.. صديقاتها.. بل وعنوان بيتها في منطقة (النزهة).. حتى أنني أعرف أسماء أشقائها وأعمارهم.. واسم والديها وأقاربها!!!.

ظلت المعلومات تنهمر في عقلي بشكل غريب وكأنه جهاز كمبيوتر يتم تحميل معلومات ضخمة في ذاكرته!!!.. اسمها (ليلى) بالفعل!!.. إنها ملاك.. يمكنك أن تغفر لها أي شيء.. وطبعا لا تستطيع أن تغفر لها شيئا لأنها لا تفعل أي شيء يستحق الغضب أصلا!!.. فتاة بريئة.. تحمل شفاهها أعذب ابتسامة رأيتها في حياتي.. ضحكتها تملك القلب وصوتها شبيه بأجراس الملائكة.. لم أسمع في حياتي صوت أجراس الملائكة لكنه من المؤكد شبيها بصوتها!!.. شعرها أسود كالليل ينسدل على كتفيها المستديرين الجميلين.. بياض بشرتها يشبه اللؤلؤ.. وعيناها صادقتان حساستان إلى أبعد مدى.. بل وتكاد أن ترى بريق النجوم في عينيها الرائعتين!!.. ثمة عيون يمكنك أن تعتبرها نوافذ على الروح!!.. يا إلهي.. هذه الفتاة تملك كل معالم الجمال.. لها ذلك الأنف

البارز الذي لا أرى جمالا في أي وجه ما لم أره فيه.. ثم.. الرشاقة.. و.. الرقة التي تأسر القلب!!.. خاصة مع ذلك القرط اللؤلؤي الجميل الذي يتدلى من أذنيها.. دعك من حضورها اللافت بشكل غريب.. حتى شعرت أن وجودي ذاب تماما بسبب تلك الفتاة التي اكتشفت كل خبايا خريطة عقلي!!.

أعلم أنك تكاد تسألني مرة أخرى يا (خالد): من هي (ليلى)؟؟ !!.. وأنا أكرر إجابتي لك: لا أعرف.. تسألني: كيف إذاً وصلت كل هذه المعلومات إلى عقلي؟!.. صدقني لا أعرف أيضا!!!.

لقد شعرت بقلق هائل بعد لحظات النشوة هذه.. ترى.. هل تحول عقلي إلى جهاز إرسال واستقبال لا سلكي لموجات أثيرية؟ !!.. لا أعلم.. إنه تفسير اختلقته للتو ولم أسمع عن شيء كهذا من قبل في واقع الأمر.. هل هي تلك الكيمياء المعقدة بين الأرواح التي لا يمكن فهمها؟؟ !!.. يا إلهي.. إن المعلومات مثبتة في عقلي بشكل غريب جدا.. حتى شعرت أن قلبي قد تعلق بهذه الفتاة وكأنني أعرفها منذ زمن طويل!!.. متى أصبحت حبيبتي يا حبيبتي؟!.. كيف وصلت إلى عقلي؟!.. ثم.. لماذا يخفق قلبي بهذه القوة؟ ؟!.. لماذا أشعر بتوتر في أعماقي؟!.. ليس ذلك التوتر الناجم عن الخوف.. بل هو شيء آخر مجهول!!.. حتى ظللت صامتا لفترة طويلة لم أكن أسمع خلالها سوى صوت تنفسي المنتظم الذي ساد غرفتي بعد أن أطفأت جهاز التلفاز.. شاعرا أن (ليلى) قد سبرت بحوري واكتشفت كنوزي وصالت وجالت إلى أن وصلت إلى أعماق قلبي!!!.

عزيزي (خالد).. إنني لا أملك تعريفا واضحا للحب.. فهو عبارة عن مجموعة من المعادلات الكيميائية.. ومعظم الناس راسبون في الكيمياء!!!.. لهذا لا نستطيع أن نفهمه.. والسؤال عن ماهية الحب لهو سؤال قديم قدم الكون نفسه!!!.. ولم توجد له إجابة واضحة حتى الآن.. إلا أنني مؤمن تماما أنه شيء إلهي.. نفحة من نفحات الجنة على الأرض.. ولذلك لا يمكن تفسيره بالنظريات الأرضية!!!.. و.. نسيت أن أخبرك بملحوظة مهمة!!.. أنا متفوق في مادة الكيمياء ولست راسبا فيها إطلاقا.. ومع ذلك لم أستطع فهم الحب!!!.. لكني أعلم جيدا أن الحب قد اشتعل الآن في قلبي.. وكأنني أرض جافة ترتوي لأول مرة بالماء!!.

كنت أنظر إلى سقف غرفة نومي ببلاهة.. وكل المعلومات المتعلقة ب(ليلى) تنساب وتتدفق إلى عقلي دون توقف حتى لتتكون في ذهني صورة أوضح وأوضح عن حبيبتي (ليلى)!!.. وكأنني أشاهد فيلما سينمائيا لم أشاهده في ظروف جيدة أول مرة.. وأنا أشاهده الآن في ظروف أفضل!!.

ترى.. هل أنا متلبس بالجن وهذه الفتاة آتية من عالم الجن مثلا؟؟ !!.. اقشعر بدني من هول الفكرة!!.. فطردتها مباشرة من ذهني محاولا تحاشي التطرق لها مرة أخرى.. هل ما يحدث لي هو توارد خواطر؟؟ !!.. ما هو توارد الخواطر أصلا؟!.. لا أعلم.. مجرد جملة خطرت ببالي.

كان جميع أفراد الأسرة نياما في هذا الوقت المتأخر.. فنهضت مبلبل الفكر ذاهبا إلى المطبخ.. أخذت زجاجة الماء من الثلاجة وشربت جرعة كبيرة قبل أن أعاود التفكير في الأمر!!.. رحت أنظر حولي بقلق شديد.. وقد عادت فكرة التلبس بالجن بقوة رغما عني!!!.. إنني لا أملك أي تفسير لما يحدث لي!!.. كيف دخلت هذه الفتاة إلى عقلي؟ ؟!.. كيف؟؟ !!.. الغريب أنها تسيطر على جزء كبير من ذاكرتي بالفعل دون أن أكون موجودا معها في تلك الذكريات؟!.

جميعنا قد نمر بذلك الشعور.. ذكريات معينة تعشقها رغم أنك لم تعشها أبدا.. تماما كما تفعل أنت دائما يا (خالد).. إنك تحب فترة الستينات في (الكويت) وتتحسر عليها.. وتتحدث عنها دائما بعشق لا حدود له رغم أنك لم تعشها!.. أليس كذلك؟ !!.. أعرف أنه أمر غريب.. لكني أفهمك

الآن.. فكم من لحن نسمعه ونشعر أننا سمعناه من قبل في مكان ما.. بل وربما في زمن ما؟! !!.. كم من منظر رأيته في مكان ما وشعرت أنك رأيته من قبل؟؟ !!.. أشعر أن هناك كيمياء غامضة معقدة تلهو بنا طوال الوقت.

لا.. ليست (ديجافو) ([14]).. فعلماء النفس يعطونا تفسيرا أكثر تعقيدا.. إنه الوجدان الجمعي!!!.. إنها خبرات متراكمة عبر الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف ([15]).. المشكلة أنني لم أجد في حياتي الوقت لأفكر في تلك الأمور.. فأنا إنسان واقعي جدا يا (خالد).. وقد كانت الروحانيات -وربما لا زالت-آخر اهتماماتي!!!.

أتذكر أن أبناء شقيقتي الكبرى قد صنعوا لوح (أويجا) ([16]) ذات مرة.. وراحوا يلعبون بحماس ظنا منهم أنهم يستحضرون الجن!!!.. فكنت أسخر منهم.. لأنني أذكر أنني قرأت يوما في إحدى المجلات عن تجربة قام بها بعض الخبراء على هذا اللوح.. إذ تم عصب أعين المشاركين وقدم لهم اللوح مقلوبا.. فراحوا يحركون المؤشر تلقائيا حيث المكان الذي كانوا يظنون أن الإجابة ب(نعم) و(لا) موجودة.. أي عكس الاتجاه الحقيقي ([17])!!!.... وهذا ما جعلني على يقين في ذلك الوقت أن كل هذه الروحانيات والاتصال في الجن من وحي الخيال فحسب. لكني الآن أجد نفسي أمام لغز هائل بالفعل.. فتاة وجدتها في عقلي فجأة دون أن ألتقيها في حياتي!!!.. وأعرف كل هذه التفاصيل الدقيقة عن حياتها؟!.. ثم.. هناك سؤال بالغ الأهمية.. هل هذه الفتاة لها وجود في عالم الواقع أصلا؟؟!!.. إنني أعرف عنوان بيتها.. بل هو محفور في ذاكرتي.. وأعرف أيضا كيف يبدو بيتها من الداخل والخارج!!.. أعرف كل شيء دون استثناء!!.

نظرت إلى الساعة.. إنها الثانية والنصف فجرا!!!.. لن أنام قبل أن أتأكد.. من ماذا؟!.. من أنني لا أخرف ولم أصب بالجنون!!!.. نعم.. سأخرج الآن للتأكد إن كان بيت كهذا موجودا في عالم الواقع أم لا.. وسأعرف إن كانت (ليلى) بدورها موجودة على أرض الواقع أم لا!!!.

خرجت من البيت بهدوء شديد كي لا أوقظ أحد.. وتوجهت بعدها إلى منطقة (النزهة) وعقلي مشغول تماما بما يحدث لي!!!.. الشوارع خالية تقريبا في مثل هذه الساعة حتى ليبدو لك أن الكون بأكمله نائم سواي.. مع موزعي الجرائد!!!.. إنني أحفظ العنوان جيدا.. شارع (....).. منزل (....) و.. أصبت بخيبة أمل شديدة.. وشعرت بإحباط هائل!!!.. البيت.. إنه يختلف تماما عن الصورة الموجودة في ذهني!!!.. ما هذا اللغز؟؟ !!.. هذا غريب.. غريب بحق!!.. هل أنا واهم؟!!.

لا أعلم.. ولكن.. أشعر -مجرد شعور -أن هذا البيت قريب جدا من روحي.. هل تعرف ذلك الشعور الذي يجعلك لا تبدل بيجامتك؟ ؟!.. تشتري غيرها.. لكنك تصر على ارتداء تلك البيجامة.. إنها مريحة أكثر من غيرها.. هذا ما يشعرني به البيت.. أشعر بالراحة عندما وجدته.. وكأنه شيء اعتدت رؤيته ثم تركته لفترة طويلة.. وها أنا الآن أراه مرة أخرى!!!..

وقفت بسيارتي طويلا أمام ذلك البيت وعقلي مضطرب تماما.. ثم رحت أفكر بعمق في سلسلة الألغاز هذه.. إنني إنسان عادي.. أعيش حياتي كما أريد ولا توجد هناك أي ضغوط من أي نوع.. فلا أعتقد أنني أعاني من مشاكل نفسية إن كان هذا ما سيتبادر إلى ذهنك يا (خالد)!!.. لكني كنت مشتتا بالفعل!!!.. زائغ النظرات وأشعر أن هناك أمراً غير عادي يخصني!!..

تركت تلك الأفكار جانبا.. وعدت مسرعا إلى البيت وقد قررت أمرا لا أعرف جدواه.. لكني رأيت أنه قد يكون ضروريا!!.. إذ دخلت غرفتي.. وأمسكت بورقة وقلم.. ورحت أدوّن كل الأمور التي أعرفها

عن هذه الفتاة.. عن حبيبتي (ليلى).. صورتها الموجودة في ذهني.. ملامحها.. اسمها الثلاثي.. مكان سكنها.. هواياتها.. أفراد أسرتها وملامحهم وكافة المعلومات عنهم!!.. تعليمها الثانوي الذي أنهته قبل شهور قليلة مما يعني أنها تصغرني بخمسة أعوام تقريبا.

وفي النهاية.. شعرت بالفعل أنني قد صنعت عالما متكاملا محوره هذه الفتاة.. محوره (ليلى) فقط!!!.. أشعر براحة أكبر الآن بعد أن تحولت أفكاري المضطربة الذائبة إلى نقاط على الورق!!.. فذهبت بعدها إلى الفراش وقد قاربت الساعة الرابعة والنصف فجرا.. و.. وسط أفكاري المتوترة.. تسلل النعاس شيئا فشيئا إلى عقلي دون أن أشعر!!!.

عندما استيقظت في العاشرة صباحا.. بدت الأمور شبيهة لما كانت عليه قبل النوم.. لا زلت أتذكر كل المعلومات التي انسابت إلى عقلي.. لم أنسَ أي شيء منها..

فكان ما كتبته ليس ضروريا على الإطلاق.. كل ما أعرفه عن (ليلى) لا زال محفوظا في ذاكرتي.. وكأنه مكتوب على ورقة تم تثبيتها بالمسمار على حائط عقلي.. وهذا من دون أي مبالغة!!.

و.. بعد أسابيع قليلة غرقت فيها تماما في عالم (ليلى) الجميل.. قررت أن أضع حدا لما يحدث وأن أقوم بالحل العملي والأنسب لهذه الألغاز النفسية العجيبة التي أعيشها.. أتحدث عن زيارة طبيب نفسي بالطبع!!!.. نعم.. لم أجد حلا آخر.. أخشى أن أكون مصابا بمرض نفسي غريب لم أسمع به من قبل.. ولو كان الأمر كذلك.. فلن يخفى هذا على طبيب نفسي متمرس دون شك!!.

رحت أبحث في الصحف عن عناوين وأسماء أفضل الأطباء النفسيين في (الكويت).. ولم يكن الأمر عسيرا لأعثر على واحد بطبيعة الحال.

اتصلت بعدها دون تردد وحددت موعدا للزيارة في الثامنة من مساء اليوم التالي.. وهكذا مر الوقت بطيئا للغاية دون شيء يذكر.. قبل أن يحين الموعد وأجد نفسي أخيرا أمام عيادة ذلك الطبيب النفسي في منطقة (الشعب) البحري!!.

كنت أشعر بتوتر شديد في بادئ الأمر.. فليس من اليسير أن أجلس أمام إنسان لم أره في حياتي لأخبره عن أدق أسراري دون أن أعلم إلى أي مدى سيكون تشخيصه صحيحا.. فالطب النفسي ليس له مقاييس.. إذ لا يوجد جهاز لقياس الضمير أو (الأنا العليا) مثلا.. لكن.. لا توجد حلول أخرى كما ترى!!.

لحسن الحظ أن العيادة كانت خالية تماما.. ربما هو فصل الصيف حيث يتواجد عادة أكثر من نصف سكان (الكويت) من مواطنين ومقيمين في الخارج!!.

لحظات قليلة قبل أن تطلب مني السكرتيرة الدخول.. و.. ها أنا جالس أمام طبيب نفسي كبير في السن من جنسية عربية يرتدي بذلة أنيقة توحي بخطورة مهنته..

وبعد عبارات الترحيب والمجاملة المعتادة.. قلت له بصراحة يشوبها بعض الخجل:

-لا أعرف إن كان بوسعك مساعدتي.. لكن الكتمان مرهق.. مرهق جدا.. لعل الكلام نصف العلاج كما يقولون!!.

رد بابتسامة واسعة:

-من هذه الناحية اطمئن.. فأنا أذنان تمشيان على قدمين.. هذه هي وظيفتي!!!.

طلب مني بعد لحظات قليلة الجلوس على مقعد هو أقرب إلى السرير.. تماما كما نرى في عيادات

الطب النفسي في الأفلام والمسلسلات.. حتى شعرت للحظة أن الطب النفسي مرتبط بشكل أو بآخر بهذا المقعد أو السرير!!!.

خلعت حذائي.. وتمددت على الكرسي.. قبل أن يبدأ الطبيب باستجوابي بشكل هادئ جدا تحت أضواء خافتة للغاية تساعد على الاسترخاء!!.

وبعد أن طرح علي بعض الأسئلة المعتادة المتعلقة بعمري ووظيفتي.. بدأ يسألني عن حياتي الخاصة وعن علاقتي بجميع أفراد الأسرة.. والديّ وأشقائي.. وشقيقاتي.. أحلامي.. هواياتي.. كل شيء تقريبا.

أخبرته بكل ما يريد معرفته دون تردد آملا أن أجد عنده إجابة على أسئلتي.. ثم.. طرح فجأة السؤال المعتاد عن مشكلتي وعن سبب مجيئي لعيادته!!.. توقفت قليلا عن الحديث.. وازدردت لعابي.. ونظرت إلى ذلك الضوء الخافت في غرفته!!.. قبل أن يتحرك شيء في داخلي وتدمع عيناي.. حتى شعرت بأن دموعي تنساب فعليا من عيني.. فأخبرت الدكتور وبحزن شديد بكل شيء تقريبا عن فتاة أحلامي.. كل شيء عن (ليلى)!!!.. قلت له أنني وجدت نفسي فجأة أعرف فتاة بهذا الاسم وأعرف كل تفاصيل حياتها.. وشعرت بأنني أغرق معها في عالم رومانسي جميل لم أعرفه من قبل.. حتى أصبح الأمر وكأنه حب من طرف واحد.. ولعلك تعرف يا (خالد) كيف يكون الحب من طرف واحد!!!.. إنه عذاب حقيقي!!.. هذا على اعتبار أن (ليلى) موجودة في عالم الواقع بالطبع!!.

نظر إلي الطبيب باستغراب شديد.. قبل أن يبتسم ابتسامة العالم ببواطن الأمور وهو يتنحنح ويقول بهدوء وكأنه سيلقي محاضرة:

-اسمعني جيدا.. عندما يبحث الإنسان عن الحب بهذه الصورة التي أخبرتني عنها.. فإنه قد يخلق عالما من الأوهام كي يهرب من واقعه.. والأوهام تنقسم أحيانا إلى وساوس وضلالات!!.. الوساوس يقاتل المريض كي يتخلص منها.. بينما الضلالات يقاتل المريض كي يحتفظ بها.

قاطعته بملل وأنا أقول بحدة لم أقصدها:

-أعرف ما ستقول!!.. ستقول أن عقلي الباطن يحاول الخروج من الكبت الذي أعيشه في رحلة بحثي عن الحب.. أعرف هذا كله رغم أنني لم أقرأ كتابا واحدا عن علم النفس.. ولو أن كلامك صحيحا لعاش معظم الشباب تجربتي.. ولكن.. من بين ملايين الناس.. لماذا أنا؟!.. لماذا أنا بالذات؟ ؟!.. أرجوك.. لا تجعلني أندم على مجيئي إلى هنا.. لا تجعلني.....

أشار إلي بهدوء أن أنتظر كي ينهي كلامه دون أن يلتفت لحدتي التي تحمل شيئا من الإهانة دون شك.. ثم أردف مبتسما وكأنه لم يسمعني:

-كثيرا ما يحب الإنسان أن لا يكون ما هو عليه.. شخصيته.. مشاعره.. أو أي شيء آخر في حياته.. لذا نجده في بعض الأحيان يريد أن يهرب من نفسه.. وهذا يحدث عادة مع هؤلاء الذين يعانون ضغوطا نفسية رهيبة.. ولكن.. إلى أين سيهربون؟!.. هم أنفسهم لا يعلمون.. تماما كما فعلت أنت.. فخلقت لنفسك عالما متكاملا يحوي فتاة تتمناها في عقلك الباطن!!.. ستسألني ما هي الضغوط النفسية التي تعيشها؟ !!.. الجواب هو: بحثك عن الحب دون شك!!.. هذا بحد ذاته يشكل ضغطا نفسيا لا يمكن تجاهله.. لماذا أنت تحديدا دون كل الشباب؟ ؟!.. كل إنسان يعيش مشكلة نفسية حول هذا الأمر بشكل أو بآخر.. وأنت مشكلتك النفسية فريدة من نوعها.. أعترف

لك بهذا.. المهم أن الهروب من النفس يمكن أن يكون صحياً.. لأنه يخرجك من حالتك التي ليست بالصحية بالتأكيد.. وأنا أشجع الهروب من النفس.. ليس لأني لا أريد مواجهة الواقع بشجاعة.. بل لأنني أفضّل تأجيل المواجهة حتى أكون مستعدا لها!!.. إن الجسم قد يلجأ إلى هذا الهروب أحيانا ليستعيد توازنه بعد أي أزمة نفسية يمر بها!!.. وواضح أنك شاب مرهف الحس.. وأن الحب يمثل كل شيء بالنسبة إليك..

أنهى كلامه.. فلم أجد ما أقول.. ليضيف وهو يشير بإصبعه محذرا:

-ولكن.. تذكر دائما.. في بعض الأحيان لا يكون الهروب من النفس صحيا.. لأنك بهذه الطريقة قد تعتاد على أشياء بعيدة عن الواقع.. لتعيش بعدها في عالم من الأوهام!!!.

قلت بإصرار:

- أنا لست من معتادي الهلوسة.. ولا أتوهم شيئا.. بل شعرت بالمعلومات تنساب إلى عقلي بطريقة عجيبة عن تلك الفتاة كما أخبرتك!!!.. لا يمكن أن تكون (ليلى) من نسج خيالي!!.. أرجوك افهمني يا دكتور.. أرجوك!!.

قال باهتمام شديد:

-اسمعني جيدا.. نحن لا نعرف كيف يعمل العقل!!!.. لا أحد يعرف حتى الآن.. ربما.. أقول ربما حان وقت انفجارك النفسي في رحلة بحثك عن فتاة الأحلام.. فبدأ عقلك الباطن يتذكر معلومات قرأتها هنا أو هناك.. وشكّل من كل هذا عالما متكاملا تتمنى أن تعيشه!!.

لا زلت غير مقتنع في كلامه!!.. وبدا هذا واضحا من نظراتي اليائسة الحزينة.. فقال وهو يحك ذقنه وينظر إلى سقف الغرفة:

-على كل حال.. أحتاج إلى المزيد من الوقت والجلسات كي أخبرك بتحليلي النهائي.. ولكن.. أخبرني أولا.. هل هناك أي أمراض نفسية سابقة مررت بها؟!.. أي شيء على الإطلاق يستحق أن تخبرني به؟!.. سيكون التشخيص أكثر دقة كلما عرفت عنك أكثر!!.

نظرت إليه بحزن شديد.. ثم نظرت بدوري إلى سقف الغرفة مفكرا بشرود.. هل هناك أي أمور أخرى في حياتي تستحق الذكر؟ ؟!.. لا أعرف.. لا أعتقد أن.... يا إلهي.. مهلا!!!.. قلت للطبيب بلهفة:

-يا لغبائي!!.. كيف نسيت؟؟ !!.. هناك أمر بالغ الغرابة لم أخبرك به رغم أنني لا أعرف جدواه.. لكنه يستحق الذكر دون شك!!.. لقد مررت بتجربة غريبة ذات مرة.. تجربة غريبة بالفعل أصابتني بقلق بالغ حينها!!!.

نظر إلي الطبيب باهتمام وكأنه يحثني على الكلام.. ثم أردفت قائلا بحماس:

- قبل شهور قليلة.. فقدت الإحساس بالزمن لسبب مجهول!!!.. نعم.. لقد فقدت إحساسي بالزمن تماما لساعتين ونصف تقريبا.. قبل أن أجد نفسي جالسا أمام شاشة التلفزيون أنظر إلى أحد الأفلام ببلاهة!!!.. لم أعرف السبب وراء ذلك.. وقد شغل الأمر عقلي بضعة أيام.. قبل أن أنغمس في حياتي وأنسى الأمر برمته.. خاصة وأن هذه الحادثة الغريبة لم تتكرر بعدها!!.

حك رأسه مفكرا وقال وهو عاقد حاجبيه كناية عن التفكير العميق:

-إن فقدان الإحساس بالزمن ممكن أن يحدث لأسباب كثيرة!!.. ولكن.. من العسير تحديد سبب

بعينه.. فقد يحدث لنقص السوائل في جسمك.. أو الخوف الشديد من أمر ما!!.. ربما فوبيا تعانيها من شيء ما يجهله عقلك الواعي وقد طفت أخيرا إلى السطح لسبب أو لآخر!!.. وأحيانا تتعلق الأسباب بمشاكل في القلب!!.. الأسباب كثيرة لكنها غير مرتبطة ببعضها إطلاقا!!.. وبصورة عامة.. حوالي 40% من حالات فقدان الإحساس بالزمن تكون مجهولة الأسباب ([18])!!..بالمناسبة.. هل أنت واثق أن الأمر لم يتكرر؟!.

أجبته بقلق:

-لا.. إنها مرة واحدة فحسب!!.

ساد الصمت ثوان قليلة.. قبل أن يزفر بقوة وهو يقول:

-لا أدري.. من الصعب تشخيص حالتك بهذه السرعة!!.. يجب أن تزورني مرة أخرى مستقبلا.. ربما سنحتاج عدة جلسات!!.

نظرت إليه بحزن شديد وكأنني أبحث عن الأمل الأخير.. ثم سألته بحزن:

-دكتور.. إنني أشعر أن (ليلى) فتاة حقيقية.. صدقني.. أشعر بهذا بقوة!!.

سألني فجأة وكأنه تذكر أمرا هاما:

- مهلا.. تقول أنك تعرف مكان سكنها وكيف يبدو بيتها.. هل ذهبت إلى هناك للتأكد على الأقل؟!!.

اللعنة!!!.. كنت أخشى هذا السؤال تحديدا.. لكن.. لا بد من التطرق للأمر الآن.. قلت للطبيب باقتضاب متحاشيا النظر إليه وكأنني وقعت في الفخ أخيرا:

-نعم.. ذهبت إلى بيتها.. لكنه بدا مختلفا من الخارج.. إنه ليس بيتها كما رسمت صورته في عقلي بكل تأكيد!!.

قال بتعاطف.. وبلهجة المنتصر:

-إذاً فكلامي صحيح على ما يبدو!!.

لم أجد ما أقوله فنظرت إلى ساعتي بتوتر.. يبدو أن الوقت المخصص لي قد شارف على الانتهاء!!.. نهضت من مكاني ورحت أمسح دمعة هربت من عيني دون قصد محاولا أن أبدو بصورتي الطبيعية عندما أخرج!!!.. ولكن.. نظرت إلى الطبيب طويلا قبل خروجي.. ثم قلت بأسى:

-أنا أحبها يا دكتور.. أحبها كثيرا!!!.

تنهد بعمق واقترب مني.. ثم قال:

-أنت لا تحبها.. أنت تحب الحب!!!.. إنها متلازمة (حب الحب) الشهيرة.. وهي تتكرر كثيرا في المجتمعات المحافظة.. فكلا الطرفين يحمل شحنة جاهزة من العواطف المُلتهبة كأنها كلاب حبيسة!!!.. وما أن يجد المرء الفرصة حتى يطلق هذا المخزون في اتجاه الطرف الآخر.. دون أن يسأل نفسه إن كان يحب بالفعل أم أنه يريد إفراغ عاطفته فحسب!!.

هذا اللعين.. إنه يملك الإجابة على كل شيء!!.. يجيب على كل سؤال بمحاضرة كاملة!!!.. كتمت مشاعري.. وهززت رأسي بأسى.. ثم ألقيت عليه تحية باردة دون أن أنظر إليه على أمل أن أراه بعد

بضعة أيام من الآن.. والواقع أنني لم أكترث كثيرا لتجديد موعدي معه!!!.. فلم أكن في حالة نفسية تسمح بهذا.. كما أنني لم أقتنع كثيرا لكلامه.. لماذا؟!.. ربما لأنني أعرف نفسي أكثر من أي شخص آخر!!..

ولكن.. ألا يقول هذا الكلام كل مجنون؟!.

طرحت ذلك السؤال جانبا.. وخرجت من عيادة الدكتور عائدا إلى سيارتي..

ورحت أثناء عودتي إلى البيت أستمع إلى ذلك المقطع الذي يدمي القلب:

((ستفتش عنها يا ولدي في كل مكان.. وستسأل عنها موج البحر.. وتسأل فيروز الشطئان.. وتجوب بحارا وبحارا.. وتفيض دموعك أنهارا.. وسيكبر حزنك حتى يصبح أشجارا!!!!)).

من قال هذا الكلام؟ ؟!.. (عبد الحليم حافظ).. متى تكرر هذا الموقف؟!.. في مذكراتك يا (خالد[19]) التي قرأتها مؤخرا.. لكن هذا ليس موضوعنا هنا!!!.

عندما عدت إلى البيت.. توجهت مباشرة إلى غرفتي.. عازما على دخول عالم الانترنت علني أجد شيئا ينير لي الطريق.. كنت مصرا على أن أكتشف حقيقة ما يجري لي بنفسي.. شيء في داخلي يرفض فكرة الوهم هذه.. إحساسي الداخلي يؤكد لي ذلك!!!.

بعد دقائق قليلة.. كنت في غرفتي أمام شاشة جهاز الكمبيوتر.. أبحث وأبحث.. ولم يطل البحث كثيرا.. فليس هناك أسهل من العثور على المعلومة في زمننا الحالي.. نصف ساعة ربما أو أقل لأعرف بعدها الكثير.. الكثير جدا!!!.. إلى درجة أنني شعرت بالخوف!!!.

المشكلة أنني لا أعرف مدى دقة ما وجدته.. فالأمر شبيه بدوائر متداخلة من الألغاز!!!.. كلما كشفت منها شيئا.. يضعك في دائرة تحوي لغزا أكبر.. وهكذا!!.. حتى تحيط بك الدائرة وتشعر أنك غارقا في وسطها!!.

فقد عثرت من خلال بحثي في شبكة الانترنت على أمر خطير زلزل كياني وأضاع توازني!!.. يا إلهي!!.. لماذا لم يخبرني الطبيب بهذا؟ !!.. ربما لأن الأمر ليس من مفردات الطب النفسي.. بل من عالم ما وراء الطبيعة!!!!.

لقد عثرت على قصة حقيقية شبيهة إلى حد مخيف بقصتي!!!.. إنها قصة الطفل الهندي (برامود) الذي كان طفلا طبيعيا للغاية.. قبل أن تنقلب حياته رأسا على عقب وهو لم يبلغ الخامسة من العمر بعد!!!.. ففجأة ودون سابق إنذار.. راح (برامود) يرفض تماما هويته الأصلية ويصر على أنه شخص آخر تماماً!!!!.. شخص يدعي (بارامانندا) يقيم في مدينة (مراد أباد)!!!.. وكانت مفاجأة مذهلة لوالديه أثارت رعبهما إلى أبعد الحدود!!.. خاصة بعد أن فاجأهما (برامود) بأنه يريد أن يعود إلى مسقط رأسه.. إلى (مراد أباد).. وبرصانة لا تتناسب أبدا مع سنه.. تخيل هذا!!.. نحن نتحدث هنا عن طفل في الخامسة من العمر فحسب!!!.

ثم بدأ بعد ذلك يصف كل ما يتعلق بهويته التي يدعيها وبكل دقة للتأكيد على صحة كلامه.. إذ تحدث عن أبنائه الأربعة وابنته الوحيدة.. وزوجته البدينة التي تعيش أيضا في (مراد أباد).. بل وراح الطفل يعدد لوالده عشرات الأصناف والسلع التي تتوافر في متجره في نفس المدينة!!!.

ثم راح يبكي في حرارة ويتوسل إلى والده أن يسافر ليرى عائلته ومنزله ومتجره.. وليثبت صحة روايته!!!.. الأمر الذي أصاب والديه بقلق هائل.. ليعلن بعدها الأب وبكل حزم وصرامة.. أنه لن

يدع ابنه الصغير يذهب إلى (مراد أباد) أبدا.. ظنا منه أن الأمر يرتبط بأرواح شريرة تريد أخذه إلى هناك لغرض ما حسب معتقداتهم الدينية!!!.

هنا جن جنون الطفل.. وراح يستعين بالأقارب والأصدقاء الذين حاولوا التدخل لإقناع الأب وزوجته باصطحاب الطفل إلى (مراد أباد) للتأكد من صحة روايته على الأقل!!.. وأمام هذه الضغوط والإلحاح المستمر.. رضخ الأب أخيرا!!.

وفي الخامس عشر من أغسطس عام 1949م.. سافر (برامود) مع والده برفقة بعض الأقارب إلى (مراد أباد) لحسم هذه المسألة التي شغلت أفراد العائلة طويلا.. و.. ما حدث كان لا يصدق!!!.. فعلى الرغم من أنها أول مرة يزور فيها (برامود) (مراد أباد) بطبيعة الحال.. إلا أنه لم يكد يصل إليها حتى شملته سعادة غامرة.. وأخبر الجميع أنه سيقودهم بنفسه في شوارعها!!!.. ودون لمحة واحدة من التردد.. قادهم إلى متجره.. والتقى بإخوته الذين يديرونه.. فسألهم الأب عن شقيقهم (بارامانندا).. فأخبره الأخوة أن شقيقهم قد مات في واقع الأمر في التاسع من مايو عام 1942!!.. أي قبل مولد (برامود)!!!.

لكن (برامود) لم يكترث لهذا الكلام.. بل أخبر الإخوة وسط استغرابهم الشديد أن شقيقهم لم يمت.. وأنه هو شقيقهم (بارامانندا) وقد عاد إليهم أخيرا!!!.. حتى أنه تعرّفهم جميعا بلا استثناء!!!.. وتحدث عن دعابات قديمة بينه وبينهم لا يمكن أن يعرفها سواهم!!.. كل هذا يحدث وسط ذهول الجميع!!!..

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. بل توجه (برامود) إلى مصنع المياه الغازية الذي كان يديره (بارامانندا) وشرح للجميع كيف تعمل آلاته.. وكيف يتم استيرادها وتشغيلها!!.. وعلى نحو يستحيل أن يفهمه أو يستوعبه طفل في مثل عمره!!.

ثم كان اللقاء الأكثر إثارة.. لقاء (برامود) بأفراد العائلة!!!.. فقد تعرّف على جميع أفراد عائلة (بارامانندا) واحدا واحدا!!!.. وتحدث معهم عن أمور ومواضيع عائلية خاصة يستحيل أن يعرفها شخص غريب!!.. وأجاب بعدها على كل الأسئلة التي طرحت عليه.. بل ووصف البيت بكل تفاصيله قبل أن يرى أي حجرة فيه!!!.. لينهض بعدها لرؤية البيت والتجول فيه فعليا وبشوق شديد.. و.. وانهارت أسرة (بارامانندا) تماما.. فقد أذهلهم تماما ما رأوه وما فعله (برامود)!!.

وقد اكتفى والد (برامود) بما رآه.. شاعرا بقلق بالغ على ولده بعد أن ازدادت الأمور غموضا!!!.. فأمسك بيد ولده واستأذن الجميع الرحيل.. ولكن.. في لحظة الخروج من البيت.. تعلق الجميع بالطفل.. وراحوا يبكون في مرارة حتى أن (برامود) قد صرخ عندما حاول والده انتزاعه منهم انتزاعا.. باعتباره يريد البقاء مع أسرته الفعلية!!!!.. لكن والده أجبره على العودة معه وسط الصراخ والعويل.. خاصة من عائلة (بارامانندا) التي شعر أفرادها وكأنهم فقدوا رب الأسرة للمرة الثانية!!.. لكن هذا لم يثنِ والده لأخذه إلى البيت آملا أن يعود طفله إلى حالته الطبيعية!!!.

وهكذا عاش (برامود) مع والديه اللذين راحا يبذلان قصارى جهدهما لجعله ينسى هذه القصة العجيبة والتي لا يمكن لأحد أن يجد لها تفسيرا!!!..على أمل أن يحيا باعتباره (برامود) وليس(بارامانندا).. قبل أن يعود الطفل إلى طبيعته فعلياً مع مرور الأيام وينسى كل ما حدث ([20])!!!.

ربما أنت تعرف يا (خالد) أن هذه القصة هي واقعة مسجلة حار فيها كل خبراء علم النفس ولم يجدوا لها حلا حتى لحظة كتابة هذه السطور!!.. لا شك أنك تعرف هذا كونك قد غصت في

عالم ما وراء الطبيعة حتى شحمة أذنيك!!!.. ولا شك أيضا أنك تعرف أن الخبراء قد أعطوا تلك الظاهرة اسما على الأرجح.. فقط ليعرّفوها.. وليس ليفسّروها.. فالتفسير لم يُكتشف وربما لن يُكتشف أبدا!!.

لقد ظن البعض أن القصة مرتبطة بالجن.. أو بتناسخ الأرواح ([21]) الذي لا نؤمن به بطبيعة الحال.. لكن هذا ليس موضوعنا هنا.

المهم أن هذه القصة الحقيقية التي عثرت عليها أثناء بحثي في شبكة المعلومات قد شجعتني كثيرا للإقدام على ما فعله (برامود)!!!.. نعم.. سأفعل تماما ما فعله ذلك الطفل الهندي.. المواجهة ولا شيء غيرها!!!.. سأواجه أسرة (ليلى) بكل ما أعرفه!!.. ولن يكون الأمر سهلا بكل تأكيد.. ماذا؟!.. تقول أننا في مجتمع محافظ؟!.. تقول ربما سيخلع أشقاؤها أحذيتهم ويضربوني بها لو سألتهم عن شقيقتهم!!.. أعرف كل هذا.. والإجابة ببساطة هي: قلب المحب لا يفكر!!.

كما لا يوجد لدي حل آخر.. هذه القصة ستصيبني بالجنون.. خاصة وأن هناك معلومات إضافية عن (ليلى) تنساب إلى عقلي يوما بعد يوم!!.. نعم.. إنني لم أخبرك بهذا.. لقد أصبح عقلي وكأنه بوابة صغيرة مواربة تدخلها المعلومات بشيء من البطء!!.. لذا قررت بالفعل أن أقوم بهذه الخطوة غدا حتى أحسم الأمر.. غدا في السابعة مساء.. ستكون ساعة الحسم!!.

كنت أقول هذا لنفسي عالما أن المشكلة ليست فقط في المواجهة.. فهناك احتمال لا بأس به أن يكون الطبيب النفسي محقا فيما قاله عن حالتي.. وأن (ليلى) ليست سوى فتاة من عالم الخيال صنعها عقلي وصدق وجودها..

لا تنسى أن منظر البيت من الخارج لم يبدُ لي كما هو موجود في ذاكرتي.. لقد أخبرتك بذلك.. وهذا قد يهدم كل شيء ويثبت أنني مصاب بمرض نفسي فحسب.. لكن.. هل تذكر ما قلته لك عندما رأيت البيت؟ !!.. هل تذكر شعوري الغامض أن البيت قريب من روحي؟ !!.. هو شعور فلسفي إن صح التعبير.. لكنه يكفيني تماما ويجعلني عازما على المواجهة.. وسنعرف بعدها من هو الأحمق.. أنا.. أم الطبيب النفسي!!!.

و.. في الساعة الموعودة في اليوم التالي.. كنت أقف أمام ذلك البيت الفخم في منطقة (النزهة).. أفكر بجدية عما يجب فعله.. حاملا الورقة بيدي والتي تحوي كل التفاصيل التي كتبتها عن (ليلى) وعن عائلتها.. ولكن.. كان التردد يسيطر علي.. شاعرا أن هناك نقطة.. بل نقاط مفقودة في عالم الألغاز الذي أعيشه!!.. ترى.. هل أطرق الباب؟ !!.. هل أخبر أصحاب البيت بكل التفاصيل التي أعرفها عنهم؟ !!.. هذا لو كان لـ (ليلى) وجود في عالم الواقع وتعيش في هذا البيت!!.. ترى.. كيف ستكون ردة الفعل؟ ؟!.. ربما سيخلعون أحذيتهم ويضربوني بها كما ذكرت.. لكن على الأقل سأعرف إن كنت في المكان الصحيح.. سأعرف وضعي في هذا العالم!!!.. سأعرف إن كنت مصاباً بمرض نفسي أم لا!!!.

حزمت أمري أخيرا.. ونفضت تلك الأفكار عن رأسي.. ثم ضغطت على زر جهاز المناداة الموجود على يمين الباب.. ورحت أفكر بقلق حقيقي.. فحتى لو مر استقبال أشقائها لي بسلام.. ماذا سيكون رأيها بي؟ !!.. نحن نقدّر أنفسنا دائما ونرى أننا نستحق أن نُحَبْ.. ولكن أثناء مرورنا باختبار كهذا.. نخشى أن تكون فكرتنا عن أنفسنا خاطئة.. ربما نحن غير جديرين بالحب.. ربما نحن أقبح أو أغبى أو أضعف من أن نروق لفتاة الأحلام!!!.. لهذا يكون اللقاء الأول بحبيبتك مرعبا دائما.. لأنك لا تعرف كيف ستبدو في عينيّ الفتاة الوحيدة التي تهمك في الكون كله.

مرت تلك الخواطر في ذهني بسرعة خاطفة.. قبل أن أسمع صوتا ذكوريا من خلال جهاز المناداة يسأل عن هويتي.. فقلت بتردد شديد وبتلعثم واضح:

-هل.. هل لي أن أتحدث إليك يا سيدي؟!..

قال مرحبّا:

-هل تريد (عبد العزيز)؟!.

أثار الاسم اهتمامي كثيرا!!!.. فقلت بأدب شديد:

-العفو يا سيدي!!.. إنني هنا من أجل أمر آخر.. هل لي أن أتحدث إليك قليلا؟!.

رد باستغراب:

-ومن تكون حضرتك؟!!.

تلعثمت وأنا أقول:

- إنك لا تعرفني يا سيدي.. إذ لم نلتقِ من قبل.. لكني أريد أن أتحدث إليك بأمر هام جدا.. أرجوك!!.

سكت الرجل للحظة وكأنه يزن الأمر بعقله!!.. قبل أن يوافق أخيرا على لقائي.. فأغلق جهاز المناداة.. وساد المكان صمت يشوبه توتر واضح.. من ناحيتي أنا بالطبع!!.

رحت أنتظر عند الباب بترقب وقلق شديدين!!.. ما حدث حتى الآن يوحي بأنني في الطريق الصحيح!!.. إذ تحوي ذاكرتي بالفعل معلومات عن شخص اسمه (عبد العزيز) وهو شقيق (ليلى).. هل هي صدفة؟ !!.. لا أعلم.. إن اسم (عبد العزيز) دارج جدا في (الكويت) كما تعلم وربما....

قطع حبل أفكاري وقع أقدام تقترب لتفتح الباب.. رحت أعتدل وأتنحنح وأزدرد لعابي بصعوبة.. وإذ برجل في منتصف الثلاثينات من العمر.. يمتلك وجها طفوليا مريحا!!!.. ويبدو أنه (ابن ناس) كما نقول في (الكويت) كناية عمن أحسن أهلهم تربيتهم.. ويبدو أنه من عائلة محترمة وثرية!!.. وهذا ما هو موجود في ذاكرتي بالفعل عن عائلة (ليلى)!!!.

طرحت أفكاري جانبا أمام نظراته المتسائلة.. وسألته بقلق:

-مرحبا.. المعذرة يا سيدي.. إنني هنا لأمر ربما سيبدو غريبا جدا عليك.. لقد ترددت مليون مرة قبل أن أقدم على هذه الزيارة.. لكن.. لا توجد أفضل من الحقيقة!!!.. هل.. هل.. هل لي أن أتحدث معك بصراحة؟!!.

راح ينظر إلى ثيابي النظيفة وإلى شكلي المهندم بصورة عامة قبل أن يقول:

-لا تبدو لي فقيرا.. هل أنت بحاجة للمال؟!.. يمكنني أن....

لوحت بيدي بقوة وكأنني أنفي تهمة عن نفسي وأنا أقاطعه قائلا:

-العفو يا سيدي.. لست هنا من أجل المال.. بل من أجل أمر آخر تماما.. إنني.. إنني....

زفرت بقوة عاجزا عن إكمال عبارتي!!.. ورحت أنظر إليه بتوتر شديد حتى بدا وكأنه قد شعر بالشفقة الحادة نحوي.. فوضع يده على كتفي وسألني مشجعا:

-ما الذي تريد قوله؟!..

نظرت إليه.. ثم.. قررت المواجهة.. فسألته بحذر شديد:

-هل توجد فتاة في هذا البيت اسمها (ليلى)؟!!.

نظر إلي بدهشة بالغة.. ثم قال وقد تبدلت لهجته الودود إلى أخرى مستغربة:

-من أنت بالضبط؟ ؟!.. ثم.. لا.. لا توجد لدينا فتاة بهذا الاسم!!.

قالها وكأنه صفعني بقسوة!!!.. هل أنا مجنون إذا؟؟ !!.. هذا مستحيل!!!.. لا يمكن أن يكون كل ما في ذهني مجرد خيال!!!..

وأمام صمتي وارتباكي.. قال مبتسما:

-هل هو موضوع زواج؟!.. يبدو أنك أخذت العنوان الخطأ!!!.

هززت رأسي نفيا.. وقلت بضياع:

- سيدي.. إن قصتي غريبة.. غريبة جدا.. سأخبرك بكل شيء!!.. أرجوك اسمح لي بالدخول.. سيطول حديثنا!!!.. ولا أعلم كيف ستستطيع أن تساعدني.. اسمي هو (.....) وأسكن في منطقة (الشامية).. إنني مهندس كيميائي وعلى وشك الرحيل لإكمال دراستي العليا في (الولايات المتحدة الأمريكية).

لماذا أخبره بكل هذا؟!.. حتى يعرف أنني (ابن ناس) أيضا ولست صعلوكا يبحث عن المال!!..

نظر إلي طويلا باستغراب.. قبل أن يفسح لي الطريق ويقودني بصمت إلى صالة جانبية في البيت.. صالة تحوي كل معاني الفخامة!!!!..

جلسنا في تلك الصالة.. وراح يلقي بعض عبارات الود والمجاملة.. قبل أن أبدأ بالحديث أخيرا!!!..

أخبرته بالقصة كاملة.. وبكل التفاصيل الدقيقة التي أعرفها عن تلك الأسرة.. وعن.. وعن حبي ل(ليلى) ورغبتي في الزواج منها!!!.. ثم رحت أقول له بانفعال وبعينين دامعتين:

- أشعر أن هذه الفتاة تناديني.. إنها الأنوثة الخالدة التي تظلل الإنسان من شمس الواقع الحارقة!!.. ربما ليس من العار أن تلتمس الأمن لدي فتاة.. ففي البداية كنا نلتمس الأمن من امرأة.. وكانت هي كل شيء بالنسبة لنا.. تمنحنا الأمن والغذاء والدفء وتبدل ثيابنا المتسخة!!!.. صدقني يا سيدي.. أشعر بأنني مفتونا مسحورا في حبها.. أرغب أن أكون زوجها وأفني عمري في إسعادها.. هذا كل ما أريده!!!.

و.. ماذا كانت ردة فعله بعد ملحمة الحب التي أتحفته بها؟ !!.. لم تكن هناك ردود فعل!!.. كان ما أخبرته به أقوى من أي رد فعل.. إذ ظل مشدوها مصدوما ينظر إلي باستغراب هائل وأنا أتحدث وأخبره كل ما عندي..

يبدو.. يبدو أنني في المكان الصحيح!!!.. هذا الارتباك الواضح على ملامحه يؤكد كلامي!!.. ولكن.. لماذا ذكر أنه لا توجد لديهم فتاة بهذا الاسم؟ !!.. لماذا يكذب؟!.. لا أدري!!!.

ثم.. نطق أخيرا وسألني بذهول واضح:

-من أنت بالضبط؟!.. وكيف تعرف كل تفاصيل حياة (ليلى) بهذه الدقة؟!!.

قلت بأسى:

-صدقني لا أعلم.. لست أبتغي منكم المال.. ولا أريد شيئا سوى العثور على هذه الفتاة على أمل الزواج منها!!!.. لا أعلم كيف وصلت تلك المعلومات إلى ذهني.. إنه لغز هائل كما ترى.. كنت أظن أنني واهم.. بل ظننت لوهلة أنني مصاب بمرض نفسي جعلني أختلق عالما خياليا لأعوض من خلاله نقصاً بداخلي.. لكن.. يبدو أن كل ما أعرفه حقيقي!!.. فالمعذرة.. لا أعتقد أنك كنت صادقا معي عندما أخبرتني أنك لا تعرف فتاة بهذا الاسم.. إنك تتصرف على عكس ذلك تماما!!!.

رد باستغراب وهو ينظر إلي بعينين متسعتين:

- ولكن هناك أموراً كثيرة أنت لا تعرفها.. ف(ليلى) ليست في سنك كما تظن.. إنها.. إنها جدتي!!!!!!.

عزيزي (خالد).. لا أظن أنني سأصاب يوما بصدمة كهذه!!!.. لقد كان هذا آخر ما توقعته!!!!.. فنظرت إليه بحدة وبلاهة وعقلي كمحرك يعمل في أقصى طاقاته!!!.. جدته؟! !!.. كيف تكون (ليلى) جدة هذا الشاب الذي يكبرني سنا؟ !!.. إنها أصغر مني بحوالي 5 أعوام.. إنني واثق من ذلك تمام الثقة!!.

وأمام صمتي.. أكمل وهو يمط شفتيه استغرابا:

-(ليلى) هي جدتي بالفعل!!!.. والمعلومات التي ذكرتها عن (عبد العزيز) صحيحة.. لكنها تخص (عبد العزيز) شقيق جدتي الذي توفي منذ سنوات طويلة بسبب إصابته بالسرطان.. وليس (عبد العزيز) شقيقي!!!.. لقد أطلقنا على شقيقي هذا الاسم تيمّنا بشقيق جدتي رحمه الله.

نظرت إليه باستغراب واضعا يدي لا شعوريا على رأسي!!!.. يبدو أن كل ما أعرفه عن هذه الأسرة من الماضي!!!.. نعم.. إنني أعرف ماضي هذه الأسرة فحسب.. وأجهل كل شيء عن حاضرها!!.. ولكن كيف؟!.. كيف؟ !!.. كيف انسابت إلى عقلي معلومات كاملة عن ماضي تلك الأسرة؟!!.

ثم.. يا إلهي.. لقد نسيت.. (ليلى).. إنها جدة هذا الرجل؟؟!!.. لا شك أنها في الستين أو ربما السبعين من العمر!!!.. شعرت بغصة في حلقي.. ورحت أنظر إلى اللامكان بمزيج غريب من الحزن والذهول!!!.

ظللت صامتا لفترة طويلة بعد هذه الصدمة!!.. كنت أظن أنني سأكتشف حل اللغز.. لكني وجدت نفسي تائها في لغز جديد!!!.. فكل ما أعرفه عن تلك الأسرة هو في ثنايا الماضي!!.. هل سافر عقلي إلى الماضي مثلا بوسيلة مجهولة؟ !!.. إن قصتي تبدو شبيهة إلى حد كبير بقصة الطفل الهندي (برامود) التي أخبرتك عنها.. ويبدو أنها ستنتهي دون حل أيضا!!.. لكن.. ماذا عساي أن أقول؟!!.

نظرت إلى مستضيفي بحزن شديد.. ثم طرحت عليه سؤالا أعرف إجابته مسبقا.. لكن لا بأس من المحاولة.. إذ سألته منكسرا وبعين دامعة:

-أرجوك.. هل لي أن أرى جدتك؟؟ !!.. أريد أن أتأكد فقط من الصورة التي أحملها لها في ذاكرتي.. أرجوك.. إنها امرأة كبيرة في السن.. ولا أعتقد أن أمرا كهذا سيسبب مشكلة.

كنت أتوقع منه الرفض.. لكنه نظر إلي باستغراب..

ثم قال:

- لا أجد ضررا في ذلك.. خاصة وأنك أثرت لغزا هائلا بحق.. إنك تعرف أدق تفاصيل ماضي عائلتنا!!.. ربما لو رأيت جدتي فسنكتشف بعض الغموض المحيط بقصتك!!!.

سكت قليلا وكأنه يزن الأمر بعقله.. ثم هز رأسه موافقا وطلب مني الانتظار قليلا.. فخرج لبضعة دقائق.. ليعود وهو يقول:

-تفضل معي.. إنها في الداخل.. ولكن.. لا تخبرها شيئا مما قلته لي.. لقد أخبرتها أنك صديقي.. وأنك تريد أن تلقي عليها التحية فحسب!!.. إن قصتك هذه غريبة وشائكة.. فلا تشغل جدتي العجوز بها أرجوك.

أومأت برأسي موافقا.. ثم تبعته متوترا منكمشا عبر بعض الممرات متجهين إلى صالة المنزل.. وكل شيء يوحي بفخامة وثراء ما بعده ثراء كما قلت سابقا.. و:

-جدتي.. هذا صديقي (......).. إنه يريد أن يلقي عليك التحية!!!.

يا للهول!!!.. رحت أحدق بوجهها دون قصد.. ماذا يفعل الزمن في الإنسان؟ ؟!.. إنها على الأرجح في الستينات من العمر الآن.. هل هي نفسها (ليلى).. ن.. ن.. نعم.. إنها هي!!!.. لكن.. الزمن ترك تأثيره على وجهها وجسدها بكل تأكيد.. وكأنها.. وكأنها امرأة عجوز من فيلم عربي قديم.. ترتدي ثوبا أنيقا.. والزمن قد نال من سواد شعرها فجعله أبيض.. وبدا واضحا أنها سيدة من الطبقة الراقية.. إذ تختلف كثيرا عن الصورة التي عليها جداتنا إن كان هذا ما سيخطر ببالك يا (خالد).. بل وبدا هذا واضحا من طريقة ترحيبها بي:

-مرحبا بك يا بني.. كيف حالك؟!.

أومأت برأسي مرحبّا بحزن ملحوظ دون أن أنطق بحرف.. هذا غير معقول!!.. لا زالت رغم سنوات عمرها تحمل لمحات من جمال قديم.. ولكن كيف؟؟ !!.. كيف حدث ما حدث؟ !!.. لقد تأكدت الآن أن كل ما أعرفه عن هذه الأسرة هو من الماضي.. فصورة (ليلى) الموجودة في ذاكرتي هي لفتاة في التاسعة عشرة من العمر.. وحتى بيتهم.. إنني أحمل في ذهني صورته في الماضي.. لهذا بدا لي مختلفا.. لأنهم قاموا بتجديده وربما هدمه وبنائه مرة أخرى بعد كل هذه السنوات دون شك!!!.

تنحنحت.. واقتربت من السيدة أو الجدة (ليلى)!!!!.. يا له من موقف غريب.. موقف لا أستطيع وصفه!!..

جلست على المقعد المقابل لها في صالة المنزل.. ثم.. خطر ببالي سؤال قد يعني شيئا ما!!!.. يجب أن أجرب أولا.. سألتها بحذر:

-يا... يا... المعذرة يا... يا...

لم أعرف بأي صفة أناديها.. فأصبت بارتباك شديد أمام نظراتها المتسائلة.. وتنحنحت.. ثم قلت:

-المعذرة.. هل.. هل تعرفينني؟؟ !!.. هل يبدو لك وجهي مألوفا بشكل أو بآخر؟؟!!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

-المعذرة يا بني.. لكن.. لا أعتقد أنني رأيتك من قبل.. هل من المفترض أن أعرفك؟!!.

لم أجد ما أقول.. فالتفت إلى (عبد العزيز) بعينين مليئتين بالدموع وسط نظرات الاستغراب التي أحاطني بها هو وجدته.. ثم.. قررت فجأة أن أتكلم وأخبرها بكل شيء!!!.. وليحدث بعدها ما يحدث!!.. ربما لن تتكرر هذه الزيارة.. لذا يجب استغلالها خير استغلال!!.

لم أتمكن من السكوت.. تكلمت!!.. نعم.. قلت لها كل ما أعرفه عنها.. حياتها.. دراستها.. هواياتها.. ما تحبه وما تكرهه في هذا العالم.. كل ما أعرفه عنها دون استثناء!!!.. فراحت تنظر إلي بذهول شديد.. وقد خلعت نظاراتها دون شعور.. ثم.. دمعت عيناها بشدة.. بل وراحت تبكي فعليا وكأنني أعدت لها ذكريات عزيزة جدا على قلبها كما يبدو!!!.. يا إلهي.. لا أطيق دموع الأنثى مهما كان سنها!!.. إن دموعها غزيرة وافرة!!.. هذا تناقض غريب.. فلو صار الذهب متوفراً كالحديد لما ساوى شيئا.. لكن دموع الأنثى هي الشيء الوحيد في العالم الذي تزداد قيمته كلما كثر!!.. إنها تشلّنا معشر الرجال وتحيرنا وتربكنا!!!!.

انتهيت أخيرا من كلامي.. ولم تنتهِ دموعها.. بل مدّت يدها إلي!!!.. لتحتضنني بحب شديد وكأنها تحتضن ولدها أو ربما حفيدها.. دون أن يبدي (عبد العزيز) أي اعتراض.. فجدته امرأة عجوز وفي عمر جدتي كما علمنا!!!.

كانت تحتضنني وهي تبكي بصمت.. وراحت دموعي بدورها تنهال دون توقف.. وقلبي يخفق بمزيج عجيب.. يا له من شعور غريب!!!.. من أجمل لحظات العمر دون شك عندما تحتضنك امرأة عجوز.. سواء كانت جدتك أو أي امرأة أخرى.. ولا شك أنك تعرف معنى هذا الشعور يا (خالد)!!!.

و.. بعد احتضان دام بضعة دقائق.. تركتني لأمسح دموعي.. وراحت هي تمسح دموعها.. ثم كسرت حاجز الصمت أخيرا.. لتسألني باستغراب واضح:

-لقد أعدت لي يا بني أجمل أيام حياتي.. أيام الستينات.. بدايات الستينات تحديدا!!!.. يا إلهي.. لقد مسست شغاف قلبي بكلامك!!!.. عندما كانت الحياة جميلة.. عندما كانت الحياة بسيطة.. عندما.. عندما.. لا أعرف ما أقول.. ولا أعلم من أين أتيت يا ولدي.. لكن.. كيف؟ !!.. كيف تعرف كل هذا عني؟ !!.. كيف؟ !!.. هناك أمور كثيرة قد نسيتها أنا نفسي.. فأعدتها أنت إلى ذاكرتي!!!.. من أنت؟!.. بالله عليك أخبرني!!!.

لم أجد ما أقول.. أخبرتها فقط باسمي واسم عائلتي.. وأخبرتها عن هذا اللغز الذي ظل يطاردني أياما طويلة.. وكيف أن الأمور قد زادت غموضا الآن بعد أن كنت آملا أن أجد الجواب عندها!!!.

كان موقفا غريبا لا يوصف.. (عبد العزيز) لا زال واقفا على قدميه وقد شلته المفاجأة تماما.. أما (ليلى) فلا أستطيع حتى أن أناديها باسمها مجردا هكذا دون لقب (جدتي) أو (سيدتي) أو (عمتي)!!!..

رحنا ننظر إلى بعضنا بعضاً دون توقف.. قبل أن أتنحنح بحزن.. وأستأذنهما الخروج!!.. لكن الجدة أصرت علي البقاء وتناول العشاء معهما.. خاصة وأن جميع أفراد الأسرة في الخارج الآن يقضون إجازتهم الصيفية.. وكأنها.. وكأنها تريد مني أن أنعش ذاكرتها وأخبرها بالمزيد عن حياتها في

فترة شبابها!!!.

لكن.. لم يكن هناك المزيد ليقال!!!.. أقسمت لها بأغلظ الأيمان أنني لا أعرف أبدا أسرار هذه القصة العجيبة!!!.. كل ما أعرفه أخبرتها به!!.. ووعدتها بزيارة أخرى.. لكن رجوتها أن تدعني أرحل الآن.. لماذا؟!.. لأنني كنت أريد الانفراد بنفسي.. كنت أريد أن أبكي كالأطفال!!!.. نعم.. فبكائي قبل قليل لم يكن كافياً.

ودعتها أخيرا.. مع الوعد بزيارة أخرى قريبة كي ألتقي بجميع أفراد العائلة كما أصرت هي بنفسها!!.. وعند باب المنزل.. قطع (عبد العزيز) صمته.. وراح يقول باستغراب بالغ:

-لا زلت عاجزا عن تصديق ما حدث.. شاب لم أره في حياتي يأتي إلى بيتنا ويفجر علامات استفهام لا حصر لها.. ويرحل هكذا بكل بساطة!!!.. أخبرني عن نفسك المزيد على الأقل.. أنا لا أعرف عنك شيئا!!!.

نظرت إليه بحزن شديد.. قبل أن أقول بانكسار:

-أنا لا أحد!!.. لا قيمة لدي!!.. أشكرك كثيرا يا أخي على حسن استضافتك.. وأعتذر لك بشدة عما حدث.. لكن لم أستطع مقاومة رغبتي المجنونة في إفصاح ما أعرفه أمام جدتك!!.

قلت كلمتي هذه واستدرت متجها إلى سيارتي.. أسمع صوته خلفي وكأنه يريد أن يعرف المزيد.. يريد مني أن أكشف له السر!!!.. أنا نفسي لا أعرف السر يا عزيزي.. أعلم أنه من المريب أن يأتي شخص غريب لبيت أحدهم ويخبرهم بأدق أسرارهم.. ولا يقدم لهم إجابات واضحة على تساؤلاتهم.. ولكن.. لا يوجد لدي ما أقوله بالفعل!!!.

هل تعرف ما هي أكثر الأشياء إثارة للفزع يا (خالد)؟ ؟!.. ألاّ يعرف الإنسان وضعه في هذا العالم!!.. أن تجهل نفسك وتجهل مكانتك!!!.. لقد فقدت البوصلة تماما.. حتى أنني أطرح تساؤلا أرجو أن تطرحه على نفسك وتطرحه على كل قرائك.. فقط توقف واسأل نفسك هذا السؤال: هل أنت هو أنت فعلا؟؟!!.. هل أهلك هم أهلك فعلا؟؟ !!.. هل وطنك هو وطنك فعلا؟ ؟!.. هل اسمك هو اسمك فعلا؟ ؟!.. أنا لا أمزح!!!!.. إنني أعني ما أقول.. فأنا لم أعد أثق بشيء!!!.

إن الحزن يلتهم قلبي.. لقد كان صندوق حبي مغلقا بالسلاسل مغطى بالغبار!!.. فجاءت هذه الفتاة لتفتحه لي وتأخذ قلبي الموجود فيه..

أستطيع الآن أن أتناسى كل شيء بعد أن عرفت الحقيقة المرّة كما يقولون!!.. لم أعد أمتلك تلك الرغبة المجنونة لمعرفة كيفية وصول كل هذه المعلومات عن ماضي (ليلى) الجميل إلى عقلي.. إنه لغز قاتل دون شك.. لغز يفجر كل علامات الاستفهام.. لكن لم أعد أهتم!!!.. حقيقة لم أعد أكترث كثيرا!!.. خاصة وأن العثور على الحل أمر مستبعد تماما.. إنها مجرد واحدة من تلك القصص التي لا نعرف خباياها وأسرارها.. تماما كما حدث لذلك الفتى الهندي (برامود)!!.

كنت أقول لنفسي هذا الكلام غير عالم أن حل اللغز سيكتشف بعد أسابيع قليلة فحسب.. وأن الحل كان سهلا بسيطا أمام عيني طوال الوقت دون أن أنتبه!!!.

حدث هذا بعد بضعة أسابيع من زيارتي لبيت (ليلى) كما ذكرت.. كنت أنتظر أن تعود حياتي إلى صورتها الطبيعية وأن يبدأ الجرح يندمل شيئا فشيئا.. منتظرا هدية الأيام التي لا تقدر بثمن.. النسيان.. وهو أمر لن يكون سهلا على الإطلاق.. فلو أن أفعى الكوبرا المخيفة أقامت تحت

فراشك لفترة طويلة.. لا بد أنك ستفتقدها لو صحوت يوما دون أن تسمع صوت فحيحها!!.. فما بالك بذكريات (ليلى) التي تشربتها حتى النخاع وانغرست في عقلي وكياني إلى الأبد؟!!.

ماذا كنت أقول؟!.. آه.. نعم.. بعد بضعة أسابيع من زيارتي لبيت (ليلى).. كنت جالسا في غرفتي أمسك بجهاز التحكم عن بعد وأحاول العثور على فيلم أو مسرحية أشاهدها.. لكن.. رغم كثرة القنوات الفضائية.. لم أجد شيئا يذكر.. رحت بعدها أبحث في الأقراص المدمجة (DVD) علني أجد شيئا أشاهده.. لكن.. لم يكن مزاجي رائقا لمشاهدة أي شيء من مجموعة الأفلام التي أمتلكها.. ثم تذكرت الفيديو.. لقد اشتريته بعد التخرج والعودة إلى (الكويت) لكني لم أستخدمه سوى مرات قليلة جدا.. إن دور جهاز الفيديو في زماننا الحالي قد بدأ يندثر كما تعلم.. لذا فلا أذكر آخر مرة شاهدت فيها شيئا على شريط فيديو...

المهم أنني رحت أبحث في أشرطة الفيديو.. إلى أن وجدت مسرحية لم أشاهدها منذ زمن طويل!!.. أمسكت بالشريط.. و.. مهلا.. جهاز الفيديو.. يوجد شريط في الجهاز!!!.. من أتى به إلى هنا!!!.. ثم تذكرت.. لقد أخبرتك أننا انتقلنا للتو إلى هذا البيت الجديد.. لكني نسيت أن أذكر أن مالك البيت السابق قد ترك بعض حاجياته دون أخذها لضيق الوقت.. فقام والدي بوضع كل شيء في صندوق ومن ثم وضعه في غرفتي على أمل أن يعود هذا الرجل في أي وقت أو يرسل أحد أقاربه لأخذ تلك الحاجيات.. لماذا وضعوا ذلك الصندوق في غرفتي تحديدا؟ !!.. لأنني كنت أدرس في الخارج أثناء شراء والدي للبيت.. فاستخدموا غرفتي كمخزن لحين عودتي.. وقد تركت الصندوق مركونا في زاوية غرفتي وأهملته تماما منذ تخرجي وعودتي من الخارج.

أتذكر الآن أنني عبثت بذلك الصندوق ووجدت شريط الفيديو هذا.. وقمت بتشغيله فعليا.. لكن.. لا أذكر ما كان يحويه!!!.. مططت شفتي مستغربا.. ثم قمت بتشغيل الشريط.. لأسمع صوتا مألوفا للغاية.. صوتا يقول:

-مرحبا.. اسمي (ليلى)!!!.. إنني أقوم بتسجيل كل ما يتعلق بحياتي أمام هذه الكاميرا التي أهداها لي والدي.. لقد تخرجت من المرحلة الثانوية اليوم.. وسأكون من أوائل الفتيات الكويتيات اللاتي يذهبن للدراسة في (بريطانيا).. و.....

لم أستمع إلى الباقي!!!.. بل قفزت كالملسوع وأنا أنظر بلهفة إلى الشاشة.. إنه شريط الفيديو إياه!!!.. تسجيل سينمائي قديم جدا بالأبيض والأسود لفتاة رائعة الجمال.. إنها هي.. إنها (ليلى).. يا إلهي.. إنها تقول أمام الكاميرا كل ما أعرفه عنها!!!.. لا بد أنها قامت بعدها بسنوات بتحويل التسجيل السينمائي هذا إلى شريط فيديو هو الذي بحوزتي الآن!!!.

أخرجت الشريط كالمجنون.. ورحت أنظر إليه بلهفة!!.. إنه.. إنه شريط فيديو عادي جدا.. قامت (ليلى) بتسجيله كنوع من التوثيق لحياتها.. وكأنه دفتر مذكرات تتحدث فيه عن نفسها بالتفصيل.. وكأنها.. وكأنها منبهرة بالحصول على كاميرا فيديو!!!.. لا تنسَ أننا نتحدث عن أوائل الستينات حيث هذا النوع من الأجهزة لم يكن مألوفا حينها!!!.. إنها تتحدث في التسجيل أيضا عن عائلتها وعن بيتها وعن كل تفاصيل حياتها تقريبا!!!!.. وأنا أشاهد بدوري كل شيء بتحفز وترقب وعدم فهم.. قبل أن تنتهي مدة الشريط!!!.

رحت أفكر وعلامات الذهول واضحة على ملامحي!!!.. يبدو أنها فتاة من طبقة ثرية بالفعل.. هذا واضح.. فلم يكن من اليسير أن يحصل أحد في تلك الفترة على كاميرا فيديو.. لهذا استخدمت (ليلى) الكاميرا لتصنع مذكراتها ثم قامت بتحويل التسجيل إلى شريط فيديو.. على الأرجح في فترة

الثمانينات.. عندما انتشرت تلك النوعية من الأشرطة!!!.

كان مكتوب على الشريط بخط قديم تكاد أن تعجز عن قراءته (شريط عائلي خاص).. ثم.. شيئا فشيئا بدأت أتذكر.. وبدأت تنتعش خلايا مخي الرمادية!!.. نعم.. لقد أثار فضولي هذا الشريط عندما عبثت بأغراض مالك البيت السابق!!!.. وشاهدته.. وهو أمر غير لائق دون شك لكني لم أكترث حينها!!!.. كيف نسيت كل ما يتعلق بالأمر؟!.. كيف نسيت محتوى الشريط؟ !!.. كل ما عرفته عن (ليلى) موجودا فيه.. فكيف أكون قد شاهدته ولا أذكر شيئا منه؟ !!.. يا إلهي.. هل يعقل أن يكون حل اللغز بأكمله بهذه البساطة؟ ؟!.. لكن الحل ليس كاملا بالتأكيد!!!.. لا زالت الأمور غير واضحة!!!.. فكيف فقدت إحساسي بالزمن عندما شاهدت الشريط؟؟ !!.. لا أعرف!!.. لا أعرف!!.

ثم.. فكرت في الذهاب إلى الطبيب النفسي ذاته.. ربما سأجد الجواب عنده!!!.. ولم يكن الأمر عسيرا لحسن الحظ.. فقد حصلت على موعد لزيارته بعد بضع ساعات فحسب!!.

وعندما حان الموعد.. كنت في مكتبه بالفعل ممسكا بالشريط!!.. ولحسن حظي أيضا.. فقد كانت لديه في عيادته غرفة استراحة تحوي جهاز فيديو وجهاز آخر للأقراص المدمجة (DVD) يستخدمهما لمشاهدة بعض الأفلام الوثائقية التي تصل إليه بين الحين والآخر عن علم النفس كما يقول!!.

ذهبنا إلى الغرفة.. وقام بتشغيل الشريط.. ثم شاهد بضعة دقائق منه.. قبل أن يجلس أمامي.. وينظر إلي مفكرا بعمق.. ليقول وعلى وجهه علامات التفكير:

- أعتقد أن الشريط قد قام بتنويمك مغناطيسيا!!!.. نعم.. التصوير قديم جدا.. وبدائي جدا بطبيعة الحال.. وكان واضحا أن الصورة متقطعة مضطربة في البث مثل الكثير من الأفلام السينمائية القديمة!!!.. فأصبحت الصورة وكأنها تبث موجات شبيهة بموجات تردد عقلك!!!.. وهذا ساهم بتنويمك مغناطيسيا!!!.

ثم سكت قليلا وكأنه يتذكر شيئا.. ليقول بعدها:

- الأمر شبيه بما تراه في السينما.. منوم مغناطيسي يضع صورة شبيهة بالوميض المتقطع المضطرب أمام عين رجل.. فتقوم الصورة بتنويمه مغناطيسيا!!.. تماما كما فعل الشريط معك!!.

كنت أنظر إليه ببلاهة دون أن أفهم ما قاله.. فسألته بغباء:

- ماذا تعني؟ !!.. تقول أن الشريط قد قام بتنويمي مغناطيسيا.. ولكن.. كيف حفظت كل هذه المعلومات؟ ؟!.. كيف دخلت كل هذه المعلومات إلى عقلي؟!.. ثم.. لماذا لم يقم الشريط بتنويمي مغناطيسيا مرة أخرى عندما شاهدته اليوم؟؟!!.. ولماذا لم يقم بتنويمك أنت مغناطيسيا؟!!.

رد دون أن ينظر إلي:

- التنويم المغناطيسي يساهم في إدخال المعلومات إلى عقلك الباطن.. وهذا ما حدث معك حين شاهدت الشريط وقام بتنويمك دون أن تعلم!!.. فالشخص الخاضع تحت التنويم المغناطيسي يستطيع عقله أن يمتص أي قدر من المعلومات.. ثم يتذكرها لاحقا إذا تسلل شيء لعقله الباطن وقام بتذكيره بها.. مثل كلمة معينة.. أو إشارة.. إلخ!!.

قلت له بتحدٍّ:

-لكنك لم تجبني.. لماذا لم يخضعني الشريط للتنويم المغناطيسي عندما شاهدته للمرة الثانية.. ولماذا لم يقم بتنويمك أنت مغناطيسيا؟ !!.. ثم.. كيف تذكرت أنا كل شيء؟ ؟!.. تقول أن المعلومات قد امتصها عقلي الباطن.. لتظل محفوظة فيه.. قبل أن أسمع أو أقرأ كلمة هنا أو هناك أعادت كل شيء إلى عقلي الواعي!!!.. حسنا.. ما هي هذه الكلمة التي أخرجت المعلومات التي عرفتها عن (ليلى) من عقلي الباطن إلى عقلي الواعي؟!!.

نظر إلي بهدوء وكأنه يرتب أفكاره.. ثم قال باهتمام:

-الشريط لم يخضعك للتنويم المغناطيسي في المرة الثانية لأنك لم تكن مهيئا للخضوع للتنويم المغناطيسي أصلا.. فعندما شاهدته للمرة الثانية.. كنت متحفزا.. شاعرا بمفاجأة قوية زلزلت كيانك.. أليس كذلك؟!!.

أومأت برأسي إيجابا بذهول.. ثم أردف بذات الغموض:

-التنويم المغناطيسي يشترط أن تكون خاضعا تماما له.. لا أن تكون متحفزا متوترا.. ولا شك أنك عندما شاهدت الشريط للمرة الأولى.. شعرت بأن (ليلى) قد خلبت لبك وسحرتك.. فغصت معها في عالمها وأنت تشاهد الشريط.. وساهمت صورة البث المتقطعة بتنويمك مغناطيسيا!!!.. أما لماذا لم يقم الشريط بتنويمي أنا مغناطيسيا.. فالسبب بسيط وهو ما يثير فضولي واستغرابي الآن.. فالصورة التي يبثها الشريط ليست متشابهة مع موجات تردد عقلي أنا.. بل أنت فحسب!!.

سكت قليلا أمام نظرات الاستفهام وعدم الفهم التي بدت على ملامحي.. ثم قال:

- هذا يعني أننا اكتشفنا باباً نستطيع أن ندخل من خلاله إلى عقل الإنسان!!.. تخيل حجم المعلومات الهائل الذي نستطيع إدخاله في عقلك الباطن لو عرضنا عليك فيلما متقطع البث ومتشابه مع موجات تردد عقلك!!!.. ثم نخرج بعدها تلك المعلومات إلى عقلك الواعي!!.. ستتذكر فيلما وثائقيا كاملا بكل تفاصيله لو شاهدته ولو مرة واحدة تحت هذه الظروف!!!.. إنه أمر رائع كما ترى!!!.. أما كيفية تذكرك المفاجئ لكل المعلومات المتعلقة ب(ليلى).. فأعتقد أنها قد قالت شيئا في الشريط.. كلمة أو جملة.. ثم سمعتها لاحقا.. فكانت هي المفتاح الذي أيقظ في عقلك كل ما شاهدته في الفيلم.

ساد المكان صمت طويل بعد كلامه هذا.. يا إلهي.. كم هو غريب ذلك العالم المتشابك الكامن تحت فروة رأسي!!!.. ثم.. سألني الطبيب بحذر:

-حاول أن تتذكر.. هل شاهدت فيلماً قديماً.. أو مسرحية قديمة ربما؟ !!.. هل قرأت كتاباً قديماً مؤخرا؟!!.

نظرت إليه مفكرا.. ثم.. شهقت بقوة وقلت بانفعال واضح:

-نعم.. إنني أتذكر الآن!!!.. كنت أشاهد مسرحية كويتية قديمة تعود إلى فترة الستينات.. وقد شعرت بكل المعلومات المتعلقة ب(ليلى) تنساب إلى عقلي الواعي أثناء مشاهدتي للمسرحية بالفعل!!!.. لابد أنهم استخدموا مصطلحا دارجا في تلك الفترة.. أو كلمة ما أيقظت في عقلي كل المعلومات التي تحدثت بها (ليلى) عن نفسها.

اتسعت ابتسامته.. ثم وضع يديه على كتفي وهو يقول:

-هذه التجربة النادرة التي حدثت معك قد فتحت في ذهني العديد من الأفكار لكشف لغز هذا النوع من العلوم.. ولو كنا في أوروبا أو (الولايات المتحدة الأمريكية) لهزت قصتك الأوساط العلمية هزا!!!.. فالعلماء هناك يجرون أبحاثا ودراسات جادة منذ مدة طويلة لتلقين العلوم للإنسان بأساليب مشابهة.. وهناك تجارب فعلية تدور حول هذا المجال إلا أنها لم تحقق النتائج المرجوة حتى الآن.. لأن علم النفس لم يكشف كل مفاتيح التنويم المغناطيسي بعد.. ولكن.. تذكر جيدا.. بشيء من الدراسة.. نستطيع إدخال أي قدر من المعلومات إلى ذهنك أنت تحديدا.. لأننا كشفنا الموجات المتقطعة التي تساهم بتنويمك مغناطيسيا!!!.. تصور أنك -بالمزيد من الأبحاث والدراسات- ستكون قادرا على تذكّر كل معلومة يتم تلقينها إليك أثناء تعرضك للتنويم المغناطيسي.. ستتذكر وتستوعب أي نوع من العلوم لأنه سيتغلغل في عقلك الباطن وسيخرج بعدها إلى عقلك الواعي ويظل ثابتا هناك طوال العمر!!!.

نظرت إليه وإلى حماسه الشديد صامتا!!.. لماذا لا أشعر بكل هذا الحماس؟ !!.. ربما لأنني لا أهتم كثيرا بكلامه.. فكل ما أعرفه أن حبي قد تحول إلى سراب وإلى الأبد.. لقد كنت آمل أن أبدأ بنسيان ما حدث.. ولكن.. عاد هذا الاكتشاف الآن ليذكرني بكل شيء.. لقد تحولت أحلام حبي إلى تراب.. وقد حان وقت الكنس!!!.

أعتقد أن سبب تعلقي الشديد ب(ليلى) ليس فقط جمالها وما عرفته عنها وعن عائلتها التي يشع الدفء منها!!.. بل السبب هو أنها تنتمي إلى الماضي.. الماضي الجميل الذي كان يحمل دفء المواطن الكويتي الذي فقدناه!!!.. لقد تطورنا عمرانيا.. لكننا نحتاج إلى ما هو أكثر من مبان ومنشآت!!!.. نحن نحتاج إلى الإنسان.. إلى الأمل!!!.. لهذا نشعر بالحنين إلى الماضي!!!.. هذا الحنين الذي اختلط بقصة حب غامضة من جانب واحد جعلتني مزعزع الفكر فاقدا صوابي.

و.. لم أجد بعدها ما يقال أمام حماسة الطبيب وكلامه!!.. إذ تركته بعد أن طلب مني الاحتفاظ بالشريط وإجراء بعض التجارب علي!!!.. لكني رفضت تماما.. فلن أسمح له باستخدامي كفأر تجارب!!.. حتى وإن كانت النتيجة غرس سيل من المعلومات في عقلي.. نعم.. يستطيع إجراء أبحاثه بصورة أو بأخرى بعد أن عرف الباب الذي يدخله إلى العقل الباطن كما يقول!!!.

تركته أخيرا وأخذت الشريط معي وسط احتجاجاته.. ثم توجهت بحزم إلى بيت (ليلى) والساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف مساء..

وهناك.. كان جميع أفراد عائلتها قد عادوا من السفر!!.. فاستقبلني شقيق (عبد العزيز) الذي قابلته في المرة السابقة بترحاب.. وأخبرته بدوري بكل شيء!!.. وكيف أن الحل كان قريبا جدا مني دون أن أعلم!!.. إذ كان موجودا في الشريط القابع في جهاز الفيديو في غرفتي طوال هذه المدة..

وقد اعتذرت له بشدة على تطفلي ومشاهدتي لهذا الشريط الذي ساهم بتنويمي مغناطيسيا وجعلني أعيش لغزا طوال الشهور الماضية.. قبل أن تنكشف الأمور أخيرا!!.

وعندما رأى الشريط بيدي.. أخبرني أنه سمع ذات مرة بالفعل أن جدته قد قامت أثناء شبابها بعمل تسجيل يحوي كل ما يتعلق بحياتها بعد أن حصلت على كاميرا فيديو من والدها كهدية نجاحها!!!.. ثم قامت بعدها بتحويل التسجيل إلى شريط فيديو في فترة الثمانينات.. تماما كما توقعت!!!.. لكن لم يعرف أحد أين ذهب الشريط بعد أن فقدوه لسنوات طويلة.. ولم يعلم أنه كان بحوزة خاله المقيم الآن في أوروبا!!!.. خاله الذي اشترى والدي منه البيت قبل أن يسافر إلى

الخارج ليقيم هناك بضع سنوات بسبب ضائقة مالية كما أخبرتك في بداية القصة !!.. وقد ترك عندنا ذلك الصندوق على أن يبعث أحدا من عائلته ليأخذه فيما بعد.. لكن يبدو أن هذا الخال قد نسي الأمر برمته وسط زحمة الحياة!!!.

قام بعدها شقيق (عبد العزيز) بأخذي مرة أخرى إلى جدته.. إلى (ليلى)!!.. وهناك في صالة المنزل.. التقيت بمعظم أفراد العائلة الذين رحبوا بي كثيراً !!.. ثم طلبت (ليلى) أن يقوم أحدهم بتشغيل الشريط ليشاهده الجميع!!!.

و.. لا يمكن أن أنسى أبدا ملامحها حينها!!!.. وقد اغرورقت عيناها بالدموع مرة أخرى وهي تتذكر شريط قامت بتصويره منذ نصف قرن تقريبا!!!.. فنظرت إلي وهي تقول باكية بأسى:

-إنه حنين إلى ماض لن يعود يا ولدي.. يا إلهي.. عندما يفكر الإنسان في سنوات مضت من عمره.. يشعر للحظة وكأن تلك الأحداث قد جرت لشخص آخر!!!.. لا أعرف ما أقوله لك.. ولكن.. شكرا.. شكرا على كل شيء!!.

و.. لا يوجد لدي ما أقوله بعد هذا.. كانت لحظات حميمة.. حزينة.. جميلة.. تركت على إثرها الجميع عالما أنني لن أزورهم مرة أخرى على الأرجح!!.. وعالما أيضا أنني عشت قصة حب وهمية ظننت خلالها أنني أمتلك النجوم والقمر معا.. لكن اتضح أنني مخدوع.. خدعة لا ذنب لأحد فيها كما تبين لنا!!!.

مع الأسف.. يبدو أن الأنسام الرقيقة لا تدوم للأبد يا (خالد).. إنها ترحل دائما بعد أن ترطب وجودك!!!.. والمشكلة أننا لا نتحمل بعد رحيلها فكرة الحياة من دونها.. لكن.. هذه مشكلتي ويجب أن أتعايش معها!!.. يبدو أنني سأظل أغازل ذكرى (ليلى) وأقدس ذلك الماضي الجميل الذي يتباكى عليه الجميع إلى أن أنسى!!!.

هذه هي قصتي يا (خالد).. تقول أنها سخيفة؟ !!.. ربما.. تقول أنها بسيطة؟!.. ربما أيضا!!!.. لكنها ليست كذلك لو عشت أحداثها بنفسك.. لقد شغلتني بضعة شهور وجعلتني على حافة الجنون قبل أن أكشف كل شيء أخيرا!!.. ربما عزائي هو قرب موعد السفر لاستكمال دراستي.. رغم أنني سأرحل مكسور القلب.. بسبب قصة حب ناقصة.. قصة حب عجيبة من طرف واحد عشت فيها أحداثا شائكة!!.

لم تكن هناك أي خطورة على حياتي في تلك القصة كما يحدث لك في مغامراتك.. لكنها لم تكن أيام سهلة بالنسبة لي بكل تأكيد.. فأقسى ما يحدث لنا.. هو أن نمر بأحداث غامضة مريبة لا يمكننا تفسيرها.

هذه قصتي بين يديك يا (خالد).. وأنا أرجوك أن تنشرها لقرائك.. ماذا؟!.. تقول أن قصتي قد لا تروق لهم؟!.. هذا لا يهمني.. نعم.. رأيك أو رأي قرائك لا يهمني.. فأنا لا أستمد ثقتي من الآخرين.. ولا أعتقد أن هناك خطأً في هذا.. كل ما يهمني هو أن تجربتي نادرة غريبة وتستحق النشر دون شك.. بعد أن فتحت لي أبواب الحب ثم أقفلت بوجهي فجأة.. وبتجربة تفجر كل علامات الاستفهام.. تجربة الحب ولكن بطريقة غريبة غير مألوفة..

تجربة جعلتني أصرخ بكل عقلي وكياني:

-أيها الحب.. ترفق!!.

أخوك (.......).

الرسالة الثالثة

بعد أن احترقت زوجتي!!

المرسل: مجهول

ملاحظة: عزيزي القارئ.. هذه الرسالة أنشرها إليك كما وصلتني دون تعديل.. سوى بعض المعلومات التي أضفتها حتى تساهم في توضيح أحداث القصة.

خالد سليمان ال....

عزيزي (خالد)..

تابعت مؤخرا صولاتك وجولاتك في عالم (الميتافيزيقيا) الرهيب.. وصدقت كل حرف مما كتبته.. وعرفت أنك إنسان تعيش حياة غريبة تستحق أن تكتب عنها بحق.. لكنك - والمعذرة لهذا الكلام -أحمق كبير إن أردت رأيي!!!.. فلحظات الخوف التي تدعي أنك تعيشها لا تساوي شيئا مما رأيته أنا وعايشته بنفسي.. تأكد من هذا.

لذا قررت أن أكتب لك عن خبرتي الشخصية في هذا المجال.. ولا أبغي منك في واقع الأمر رأيا أو مساعدة.. فمشكلتي ليس لها حل.. وستعرف هذا أثناء قراءتك لقصتي التي أرجوك أن تنشرها لقرائك الأعزاء.. والتي أرى أنها تجربة بالغة الغرابة تستحق المتابعة بالفعل.. وتقتحم عالم (الميتافيزيقيا) اقتحاما مخيفا!!!.. وتتركك في النهاية تطرح أطنانا من علامات الاستفهام حول ما جرى لي.

هل أحداث قصتي سعيدة؟؟!!.. بالطبع لا.. فالسعادة لا يكتب عنها أحد.. لأننا نكره أن نبدّدها بالكلام عنها.. بل نعيشها في جشع ولا نشارك فيها أحدا.. أما التعاسة فتغرى بالكلام.. لهذا نرى كل القصائد والقصص يكتبها أشخاص تعساء أرادوا أن يتقاسموا تعاستهم مع الآخرين.. وكل القصص الشبيهة بقصتي كتبها أناس في غرفهم الموصدة حيث يجلسون في المساء ليشربوا فنجانا من القهوة.. ويمسكوا القلم ليكتبوا: كم نحن تعساء.. لا أحد يفهمنا في هذا العالم القاسي.

على كل حال.. أنا أحذرك منذ البداية.. إن قصتي مخيفة جدا!!!.. وأحداثها شنيعة تتجاوز كل كوابيسك.. وأنا على يقين أنك ستكرهها كثيرا لأنها ستثير في داخلك مخاوف لا حدود لها.

مهلا!!!.. لا تسئ فهمي.. ستثير القصة اهتمامك بكل تأكيد ولن تصيبك بالملل.. لكنك لن تحبها..

هل تعرف الوصف الإنجليزي الشهير (disturbing) والذي يطلقونه على عدد لا بأس به من أفلام الرعب والغموض؟؟!!.. هذه الكلمة تعني (مقلق).. أو (شيء يسبب الإزعاج النفسي)!!!!.. حسنا.. هذا ما أعنيه تماما!!.. فقصتي ستسبب لك القلق.. وتجعلك تشعر بعدم الأمان!!.. ولعلك تلحظ في كلماتي بعض الهدوء على عكس ما أعدك به من أحداث مخيفة تعرضت لها وأتلفت أعصابي تماما.. ربما سبب ذلك يعود إلى أنني قد استسلمت تماما للأمر الواقع.. ولم أعد أكترث بشيء.

كم أود أن أبدأ قصتي بإخبارك أنني رجل فاحش الثراء لا يشق له غبار وكائن أسطوري تهيم فيه

العذارى كحال أبطال القصص.. لكني في واقع الأمر لست سوى شاب عادي جدا أبلغ الرابعة والثلاثين من العمر.. حصلت على ليسانس في أدب اللغة الإنجليزية من جامعة (الكويت) منذ سنوات.. لأحصل بعدها على وظيفة لا بأس بها في إحدى الجهات الحكومية.

كما أنحدر من أسرة عادية.. فوالدي ليس رجل أعمال.. وأشقائي ليسوا من كبار رجالات البورصة.. بل هي أسرة كويتية لا تختلف عن غيرها من الأسر محدودة الدخل ولا يوجد ما يستحق الذكر بشأنها.

لقد كنت أعيش حياتي قبل سنوات قليلة كأي شاب أعزب.. أسافر في فترات الصيف مع أصدقائي.. وأقضي وقتي بعد العمل في علاقات عاطفية شائكة عالما أن أي منها لن تنتهي بالزواج!!!.. وهي ليست حياة ماجنة إن كان هذا ما يخطر ببالك!!!.. فلم أكن أمتلك شقة مثلا لممارسة الموبقات كما يفعل العديد من الشباب العابث.. بل هي مجرد علاقات هاتفية إن جاز التعبير.. وتتجاوز ذلك أحيانا إلى الخروج وقضاء وقتا ممتعا مع تلك الفتاة أو غيرها!!!.

لقد كنت أرفض تماما فكرة الزواج!!.. ولا أذكر عدد المرات التي خرجت فيها من البيت غاضبا بسبب كلام والدتي وأشقائي الذي لا ينتهي عن أهمية الزواج والاستقرار.. وعن ضرورة أن أنجب ابنا يحمل اسمي من بعدي!!!.. وكأنه اسم (آلبرت آينشتين) ([22])!!.

في البداية كنت أخبرهم برفضي لفكرة الزواج فحسب.. ثم بدأت أدخل معهم في نقاش وسجال يومي تقريبا.. خاصة مع ذلك الكلام المكرر الممل الذي تسمعه من شقيقتك الكبرى والتي تحذرك باستمرار من أنك ستكبر يوما وستكون عاجزا عن المشي.. عندها ستحتاج أولادك بجانبك.. وستحتاج من يهتم لأمرك!!!.. فترد عليها بتحدٍّ أن أولاد الحلال كثيرون جدا.. وأنك لن تجد نفسك يوما مرميا في شبكة المجاري لو بلغت هذه السن.. كما أنه من الغباء أن أعيش تحت وطء الزواج ومسؤولياته 40 عاما لكي أجد من يهتم لأمري في السنتين الأخيرتين من حياتي.. إنني أفضل أن أعيش حرا طوال تلك الأعوام.. على أن يحلها ألف حلال في السنوات الأخيرة من عمري!!!.

وهكذا يستمر النقاش ويتكرر بصورة يومية كما يحدث في كل بيت تقريبا ومع كل شاب أعزب.. وأنا أزداد عنادا يوما بعد يوم.. إلى أن يتغير كل شيء فجأة دون سابق إنذار وأرضخ لهذه الضغوط في النهاية!!!.. خاصة بعد أن شعرت بشيء من الوحدة بسبب ابتعاد أصدقائي واحدا تلو الآخر بعد زواجهم!!!.. مع إلحاح شقيقتي الصغرى بأنها قد عثرت لي أخيرا على زوجة لن أرفضها أبدا.. إنها واحدة من صديقاتها.. فتاة جامعية من أسرة محترمة وعلى قدر كبير من الجمال!!!.

أنت تعرف كيف تتم هذه الأمور.. حتى لتجد نفسك تتساءل باستغراب كيف كنت ترفض فكرة الزواج في البداية.. ثم.. تتراجع فجأة عن رفضك هذا ببساطة شديدة وتجد نفسك مقتادا إلى تلك الفتاة بواسطة قوة خفية لا تستطيع مقاومتها!!!.

يطلقون على هذا اسم (النصيب) أحيانا.. أما علماء الاجتماع فيقولون أنها طبيعة الإنسان أصلا!!!.. ففي فترة من فترات حياتك.. ستجد أن قلبك يميل حقا إلى الارتباط بفتاة.. لا أتحدث هنا عن القلة من سعداء الحظ الذين صمدوا بوجه تلك الرغبة الخفية وعاشوا حياتهم بلا زواج!!!.. ليتني كنت من هؤلاء.. لكن الوقت الآن متأخر جدا لهذا!!!.

لن أتحدث معك كثيرا عما حدث بعد رضوخي لضغوط الأهل.. أنت تعرف أيضا كيف تسير تلك الأمور!!!.. اللقاء بالفتاة في منزل أهلها.. تبادل نظرات الإعجاب.. ثم الموافقة من الطرفين.. ليتم كل شيء بعدها بسهولة ويسر مرورا بعقد القران وإلى أن يقام حفل الزفاف!!!.. فنعيش حياة

جميلة أيام قليلة بعد الزواج قبل أن تبدأ المشاكل الزوجية المعتادة.. خاصة إذا ما صاحبها مشاكل مادية لم تكن في الحسبان.. إذ تنتبه فجأة إلى أنه قد أصبح لزاما عليك أن تستقطع جزءا من راتبك لدفع أيجار الشقة.. وراتب الخادمة.. مع المسؤوليات الزوجية الأخرى التي لا تنتهي.. كالمجاملات والزيارات.. و.. شيئا فشيئا.. تجد نفسك تبتعد عن الحياة التي كنت تعيشها قبل الزواج.. وتذهب إلى الحمّام بين الحين والآخر فتضرب رأسك بالحائط لأنك تزوجت.. وتستمع إلى الأغاني التي كنت تستمع إليها قبل الزواج.. وتشعر بحنين غريب إلى ماضٍ لن يعود على الأرجح!!!.. وتتحسر أكثر وأكثر على أيام العزوبية الجميلة!!!.. فتشعر حينها أنك تكره زوجتك.. وأنها كائن دخيل غير مرغوب به في حياتك!!!.. وكانت هذه هي البداية دون شك!!!..بداية قصتي!!.

مهلا.. أكاد أسمعك تسألني عن الإنجاب!!!.. في الواقع أننا لم ننجب رغم مرور سنتين على زواجنا.. فمع تزايد المشاكل الزوجية وارتفاع وتيرتها.. ظللنا نؤجل موضوع الإنجاب عن غير عمد!!!.. مما جعل بيننا ما يشبه معاهدة غير مكتوبة على تأجيل هذا الأمر.. خاصة وأن زوجتي من النوع الكتوم.. إذ لم تكن تشكي مشاكلنا الزوجية أو تطلب النصح من أحد.. وهذا ما كنت أفعله أنا أيضا.. مما أشعرنا بضغوط نفسية شديدة.. وأن حياتنا غير مستقرة ولن تكون بيئة مثالية لتربية طفل.

أشعر أن ثلاثة أرباع الرجال في مجتمعنا يرغبون في الطلاق لكنهم لا يجرؤون على تلك الخطوة!!!.. وقد كنت أنا من هؤلاء الرجال للأسف!!!.. وساهم هذا بطبيعة الحال في تعميق الخلافات أكثر وأكثر مع زوجتي.. الجميع يظننا سعداء نعيش حياة زوجية هانئة.. بينما في واقع الأمر.. كان كل يوم يمر علينا هو جحيم جديد!!!.

لم تكن خلافاتنا حول وجهة نظر محددة.. بل هي الخلافات الغبية المعتادة.. إذ تجد زوجتك فجأة في مزاج سيئ.. تسألها عما بها.. فترد عليك ببرود وتعال دون سبب واضح.. فتغضب وتقرر ألا تسألها مرة أخرى!!!.. وعندما تأتي هذه المرة الأخرى في اليوم التالي على الأرجح.. تتجاهل زوجتك بالفعل مقررا أن تنفذ وعدك وتلقنها درسا في السلوك.. فتتمادى بتصرفاتها معك.. وتخبرك بغضب أنك لا تكترث بها ولا تسأل عنها!!!..

لو سألت عنها.. ستتعرض للإهانة دون سبب كما فعلت معي سابقا.. ولو لم تسأل.. ستتهمك بإهمالها وأنك رجل بارد المشاعر!!!!.

دعك من الخلافات الأخرى حول أمور لا تقل تفاهة عما ذكرته لك.. كما حدث ذلك اليوم عندما أضعت خاتم الزواج!!!.. إذ راحت زوجتي تتهمني بالإهمال وأنني لا أحبها.. ولو كنت أحبها لما أضعت أهم رمز من رموز زواجنا.. فأثور وأغضب.. وأخبرها أنه مجرد خاتم لن يغير شيئاً.. لترد وتقول:

-إن اهتمام الآخرين بشيء ما يضفي أهمية حقيقية على هذا الشيء.. ولهذا يتلخص كبرياء الوطن في قطعة قماش هي العلم.. ويتلخص حبك لزوجتك في حلقة قد تكون من الذهب أو الفضة.. هي الدبلة.

فأشعر بغضب تجاه هذا الرد وأقول بحنق:

-هكذا تظن النساء دائما!!!.. هن شفافات نقيات الروح ونحن ماديون مغلقو الروح كالحجارة..

أقول هذا وأتذكر ساخرًا عبارة قالها أحد ملوك الكوميديا الأمريكيين لفتاته: ((لو أنني كنت رجلا أفضل.. لاخترت فتاة أفضل منك بكل تأكيد!!)).

لقد ظللت أتساءل طوال فترة زواجي.. هل المشكلة في الزواج أم فينا نحن؟؟ !!.. هل كل الفتيات كزوجتي؟ !!.. لا أعلم.. لكني وصلت إلى قناعة تامة أن المعاشرة الدائمة مشكلة.. اجعل أعز صديقين مع بعضهما طوال الوقت ولا يفترقان أبدا.. سيصيبهما الملل بعد فترة دون شك وستبدأ الخلافات تدب بينهما!!!.

كنت أردد هذا لنفسي.. ثم أحاول التصرف بعقلانية وأقول:

-كف عن الرثاء لنفسك لأنك لم تملك العالم!!!.. كم من فتاة حسناء عرفت أنها لن تكون لك؟ !!.. كم من قصر عرفت أنك لن تطأه بقدميك أبدا؟!.. كم من سيارة فارهة رأيتها وعرفت أنك لن تملك ثمنها يوما؟!.. الأمر لا يختلف يا صاحبي.. فبعد الزواج تكون قد فقدت شيئا جديدا.. فقدت حياتك السابقة وحريتك.. إنها مجرد فقرة جديدة تضاف لقائمة الحرمان التي يخفيها كل منا في صدره!!!.

كما ترى.. كنت أرى الأمور بمنظار أسود متوقعا أن حياتي ستسوء وأنه يجب علي أن أخرس أخيرا وأتقبل الواقع كرجل.. ولكن.. ما زاد الأمور سوءا هو البُعد الجديد الذي بدأت تتخذه حياتنا الزوجية شيئا فشيئا.. بُعد (الميتافيزيقيا) وعالم الرعب والغموض!!.. نعم.. وكأن مشاكلنا الزوجية كان ينقصها أمر كهذا!!.. ما الذي حدث؟!.. وما الذي أعنيه بكلامي هذا؟!.. تابع معي!!.

لا زلت أتذكر تلك الحادثة المخيفة وكأنها حدثت بالأمس فحسب!!!.. كان هذا بعد قرابة السنتين من زواجنا.. وبعد يوم عادي لا يختلف عن أي يوم آخر.. عندما كنا نائمين بهدوء والساعة تقترب من الثانية فجرا.. آملين أن نحصل على قدر لا بأس به من الراحة استعدادا ليوم جديد والذهاب إلى العمل.

كان هذا قبل أن يبدأ مسلسل الرعب.. بالمناسبة.. هل تعرف ما هي أشنع لحظات الرعب؟!.. إنها بكل تأكيد حين تسمع صوتا غريبا في الظلام.. صوت غير مألوف!!!.. صوت شيء يزحف ويقترب بهدوء شديد من الفراش!!!.

لقد ظننت في البداية أنني أحلم.. خاصة في تلك اللحظات التي تشعر فيها أنك بين النوم واليقظة!!!.. ولكن.. لا.. هذا الصوت يأتي من عالم الواقع بالفعل!!!.. استيقظت وسط الظلام الدامس في الغرفة.. والتفت ناحية زوجتي بقلق.. لم أتمكن من رؤيتها بشكل واضح بسبب الظلام بطبيعة الحال.. لكني رغم ذلك.. رأيت حدودها الخارجية وهي متدثرة تحت اللحاف.. إنها نائمة.. فمن أين يأتي ذلك الصوت إذا؟؟!!.

التفت إلى الناحية الأخرى.. و.. رغم الظلام أيضا.. إلا أنني رأيت منظرا كاد أن يصيبني بسكتة قلبية!!!.. هناك امرأة طويلة القامة تلبس عباءة سوداء تغطي جسدها بأكمله وتقترب من الفراش؟ !!.. هل هي امرأة فعلا؟؟ !!.. بل.. هل هو إنسان أصلا؟؟ !!.. رحت أدقق النظر مبهوتا غير مصدق ما تراه عيني!!!.

عزيزي (خالد).. أنت لا تكف عن تذكير قرائك بأنك إنسان جبان جدا!!!.. أما أنا فلست كذلك على الإطلاق!!!.. وهذا ليس من باب التباهي.. فأنا لست جبانا بالفعل.. ولكن.. ما أراه يفوق حدود الشجاعة بكثير.. لن أكون إنسانا طبيعيا لو لم أشعر بالخوف لما رأيته في تلك اللحظة!!!..

خاصة وأن تلك المرأة المخيفة تقترب مني ببطء شديد متشحة بالسواد وكأنها تقول:

-إنني أملك الوقت كله لأصل إليك أيها الوغد.. وسأحيل حياتك بعدها جحيما.

رحت أنظر إليها وهي تقترب من الفراش بذات الهدوء.. وجسدي يرتجف بأكمله وقد طار النوم تماما من عيني!!!.. وراح سؤال واحد فقط يدور في ذهني وأنا أنظر إلى ذلك (الشيء) عاجزا حتى عن الصراخ!!!.. هل الصواب لغويا أن أتساءل (من) الذي يقترب من الفراش.. أم (ما) الذي يقترب من الفراش.. هناك فارق لغوي شاسع بين الكلمتين كما تعلم؟؟ !!.. لكني لم أبحث عن الإجابة.. فعند هذه النقطة تحديدا.. لم أحتمل السكوت أكثر!!!.. لأطلق أخيرا صرخة رعب هائلة.. وأنهض من مكاني وكأن شياطين العالم كلها تطاردني!!!.. فاستيقظت زوجتي بدورها من الفراش صارخة تسألني بذعر:

-ما الذي تفعله؟ !!.. هل جننت حتى تصرخ بهذا الشكل؟؟!!.

لكني لم أرد عليها.. بل نهضت كالمجنون إلى ركن الغرفة حيث مفتاح الإضاءة.. و.. لحظات قليلة قبل أن يتضح الأمر بأكمله!!!.. لقد كان ذلك الجسم الذي يقترب مني هو في واقع الأمر شمّاعة الثياب الموجودة في زاوية الغرفة!!!.. إن زوجتي تعلّق عباءتها عليها فظننتها امرأة أو كائنا متشحا بالسواد يقترب مني!!!.. هذا جميل.. ولكن.. كيف وصلت الشمّاعة بالقرب مني؟ !!.. لقد رأيتها تمشي -أو فلنقل تزحف -وهي تقترب مني ببطء شديد.. أقسم بهذا!!!.

والأمر على كل حال لا يحتاج إلى قسم أو إثبات.. فها هي بالقرب من فراشي بالفعل.. وأنا لم أرَ أحدا يدفعها.. بل كانت تزحف وتقترب مني من تلقاء نفسها بكل تأكيد.. إن زوجتي نائمة بجانبي ولم تتحرك.. أما الخادمة فنائمة في غرفتها أيضاً!!!.. كيف تحركت شمّاعة الثياب إذاً ومشت من تلقاء نفسها ناحية فراشي؟ !!.. لا أعلم.

رحت أنظر حولي برعب وأنا أردد مزدردا لعابي وسط نظرات زوجتي التي لم تفهم ما يجري في بادئ الأمر:

-هذا مستحيل.. مستحيل تماما!!!..

فنحن نعلم أن كل جسم يبقى على حالته من حيث السكون أو الحركة ما لم تؤثر فيه قوة ما.. و(نيوتن) لم يكن أحمق بالتأكيد.

لا داعي أن أخبرك بما حدث بعد أن عرفت زوجتي سبب صراخي.. بكاء ونحيب.. ونظرات ذهول سيطرت عليها وقد فقدنا أي رغبة بالنوم!!!.. ثم.. كوب ماء لي ولها.. والتأكد من أن الخادمة نائمة.. لنجلس بعدها ننظر إلى بعضنا بقلق ورعب.. وزوجتي لا تكف عن تلاوة بعض الآيات القرآنية!!!.

ظللنا على هذه الحال قرابة نصف الساعة.. قبل أن نجلس ونفكر بما حدث بشيء من العقلانية.. وإن كان ما حدث أبعد ما يكون عن العقلانية!!!.. لم يكن هناك ما نقوله.. لقد تحركت الشمّاعة من تلقاء نفسها بالفعل!!!.. و:

-هذه الشقة مسكونة بالجن!!..

قلتها بقلق وأنا أحك رأسي كالقرود.. فصرخت بي زوجتي ألا أقول هذا!!!.. وراحت تتلو بعض الآيات القرآنية والأدعية مرة أخرى حتى اطمأنت قلوبنا شيئا فشيئا.. وعدنا إلى الفراش آملين أن

تكون هذه الحادثة هي الأولى والأخيرة.

لاحظ أنني قلت أننا عدنا إلى الفراش فحسب.. أما النوم.. فلم ننم بالطبع!!!.. لأن ما حدث كان أقوى من أن ننساه وأن نعود للنوم وكأن شيئا لم يكن!!!..

ولك أن تتخيل كيف قضينا بقية الليلة!!!.. كنا متلاصقين ببعضنا نردد بعض الآيات القرآنية ونرتجف ونتساءل عن سر ما حدث.. بعد أن تركنا الأنوار جميعها مضاءة!!!.. إلى أن حان موعد الاستيقاظ في السادسة والنصف صباحا!!.. لم يكن من العسير أن ننهض من الفراش لأننا لم ننم أصلا.. بل في الواقع كنا ننتظر الذهاب إلى العمل على أحر من الجمر.. إذ شعرنا برغبة جامحة في العودة إلى حياتنا الطبيعية على أمل أن يساعدنا هذا في نسيان ما حدث.

كم هي جميلة ساعات النهار.. تختلط بالناس وتضيع في زحمة الحياة بعيدا عن عالم الجن والأشباح!!!.. ولا أنسى أن أذكر أننا قمنا بتشغيل الراديو في شقتنا على إذاعة القرآن الكريم حتى تطرد تلك الآيات الكريمة كل شياطين الإنس والجن من شقتنا.. وقد طلبنا من خادمتنا ألا تغير القناة طوال فترة غيابنا دون أن نعلمها بالسبب كي لا نخيفها.

كانت تلك التجربة هي الأولى.. لكنها لم تكن الأخيرة!!.. رغم أننا سألنا الخادمة عند عودتنا من الخارج إن كانت قد لاحظت أي شيء غير عادي في الشقة أثناء غيابنا.. إلا أنها هزت رأسها نفيا مستغربة من هذا السؤال كما بدا على ملامحها.. وهذا أشعرنا براحة بالغة دون شك.. فتوجهت مع زوجتي إلى غرفة النوم آملين أن ننال قسطا من الراحة في فترة الظهر بعد ليلة الأمس التي لم نذق فيها طعم النوم.. وكان نوما هادئا لم نستيقظ منه إلا على آذان المغرب.

مر بعدها اليوم كأي يوم آخر.. إذ توجهت مع زوجتي إلى الفراش في وقت متأخر بعد أن أمضينا الليلة في شجار انتهى عندما قلت لزوجتي بقسوة:

-لقد تعرضت لحادثين في حياتي.. رسوبي في المرحلة الثانوية.. وأنت!!.. لكن أنت أسوأ حادث حتى الآن!!!.

لا أعرف في واقع الأمر لماذا تشاجرنا في تلك الليلة!!!.. إنها من تلك الشجارات التي لا تعرف لماذا بدأت والتي تنتهي عادة من تلقاء نفسها.. هل أنا إنسان سيئ؟!.. هل زوجتي امرأة سيئة؟!.. لا أعتقد.. فأحيانا أنت قاس شرير كالشيطان.. وأحيانا أنت رقيق كالملاك.. وأحيانا أخرى أنت واهن كطفل رضيع.. وأحيانا أيضا أنت أقوى من طرزان!!.. إن كلاً منا ليس شخصًا واحدًا كما تعلم.. بل كل إنسان هو عبارة عن عدة شخصيات!!!.

المهم أننا توجهنا إلى الفراش وأنا أقسم بأنني لن أتحدث مع زوجتي مرة أخرى وأنني سأغير طريقتي في التعامل معها من الآن فصاعدا!!!.. بينما تقسم هي أنها ستنظر في موضوع زواجنا واستمراره بجدية بالغة عند استيقاظها غدا.. وهي من الوعود التي يطلقها كل زوجين.. ثم ينسيان الأمر برمته عند استيقاظهما صباح اليوم التالي..

ربما كان أحد الأسباب الرئيسية للخلاف هو الرهبة وجو التوتر العام الذي خيم على شقتنا بعد ما حدث ليلة الأمس.. لكننا رغم ذلك.. قررنا التوجه إلى الفراش والنوم تحت الأنوار المضاءة علها تبدد شيئا من مخاوف الليل.

المشكلة أن خيار البحث عن شقة أخرى ليس بهذه السهولة كما تعلم.. سيتطلب الأمر أياما طويلة للبحث عن شقة مناسبة.. ومن ثم نقل الأثاث ونقل حياتك بأكملها إليها!!!.. لذا فكان

الحل الأسهل أن ندعو الله أن يلهمنا القدرة على نسيان ما حدث في الأمس آملين ألا يتكرر الأمر بعد قراءة الكثير من الأدعية وتلاوة آيات من القرآن الكريم.

وهكذا توجهنا إلى الفراش بعد شجارنا.. وراح كل منا ينام في أبعد زاوية ممكنة منه كي نكون بعيدين عن بعضنا!!!.

و.. أثناء تواجدي تحت اللحاف.. وقبل النوم بلحظات قليلة.. راحت ذكريات العزوبية تغزو ذهني مرة أخرى.. أتذكر كم كانت الحياة جميلة بعيدة عن كل المسؤوليات.. أتذكر حين كان راتبي يكفيني تماما وأصرف منه بلا قيود.. أتذكر.. وأتذكر.. قبل أن أنام أخيرا!!!.. ولولا الآيات القرآنية التي ظلت تنبعث بخفوت من جهاز الراديو طوال الليل.. لما شعرنا ببعض الأمان.. فأنا أولا وأخيرا بشر.. ومن أبسط حقوقي الآدمية أن أرتجف خوفا حين أرى ما يدعو لذلك.. خاصة حين يفوق الأمر كل المقاييس المادية.. ولا علاقة لهذا بالشجاعة والجبن!!!.

هل مرت الليلة بسلام؟ !!.. بالطبع لا!!!.. لا أذكر الساعة حين أيقظتني زوجتي من النوم.. لكنها كانت تتجاوز الثالثة فجرا دون شك.. إذ فتحت عيني بسرعة بسبب يد زوجتي التي راحت تهزني بعنف وتوتر..

نظرت إليها بذعر.. فوجدتها تنظر إلي بعينين دامعتين وشعر منكوش وهي تقول:

-التلفزيون في غرفتنا!!!.. إنه يعمل من تلقاء ذاته!!.. لقد قمت بإغلاقه.. لكن هناك من يفتحه مرة أخرى وأخرى!!!.

قلت لها بقلق شديد وقد طار النوم من عيني:

-ربما.. ربما هو جهاز التحكم عن بعد.. ربما هناك خلل ما في الجهاز!!..

أقول هذا الكلام غير مقتنع أصلا لأني لم أسمع في حياتي عن خلل كهذا!!.. لكني رغم كل شيء أمسكت بجهاز التحكم عن بعد.. وأخرجت منه البطارية محاولة مني للتصرف بشكل عملي كي لا أثير رعب زوجتي أكثر!!!.. وكي لا تذكّرني بهذا الموقف فيما بعد وأنني تصرفت خلاله كالنساء.

لكني في قرارة نفسي كنت أشعر برعب هائل دون شك.. ولم أنسَ أن أربط ما يجري بحادثة الأمس.. فهذا واضح!!!.. و.. قطعت زوجتي حبل الصمت.. لتسألني بحذر لا يخلو من الخوف:

-هل تظن أن للأمر علاقة بما حدث في الأمس؟!!.

نظرت إليها.. ومططت شفتي كناية عن عدم معرفتي بالجواب!!!.. وطلبت منها أن تعود إلى الفراش وقد نسينا تماما خلافنا الذي حدث قبل النوم..

لم يكن الأمر عسيرا أن نعود إلى النوم هذه المرة رغم ما حدث.. خاصة مع إضاءة الغرفة التي تشعرك تلقائيا بشيء من الأمان.. دون أن نعلم أن الأمور ستسوء أكثر وأكثر!!!.

فعند استيقاظنا في السادسة والنصف صباحا كالعادة للذهاب إلى العمل.. وجدنا أن الخادمة لم تقم بتجهيز طعام الإفطار!!!.. ذهبت زوجتي إلى غرفة الخادمة لتسألها عن السبب.. فوجدتها ملتصقة في زاوية الغرفة.. وهي تبكي وتنتفض بقوة!!!.

لقد قالت لزوجتي كلاما وهي تقسم أنه حقيقي وأنها لا تكذب إطلاقا!!!.. فقد استيقظت بسبب حركة مريبة شعرت بها في غرفتها.. تقول أن المنضدة الصغيرة الموجودة في غرفتها قد ارتفعت.. ثم وقعت على رأسها وهي نائمة!!!.. لحسن الحظ أن المنضدة صغيرة خفيفة الوزن لا تحوي

سوى علبة المحارم الورقية وساعة منبه صغيرة.. لذا لم تصب بأذى يذكر سوى جرح بسيط في جبينها!!.

تقول المسكينة أنها شعرت بهلع لا حدود له وأنها على يقين أن أحدا لم يكن في الغرفة سواها.. كما أنها تنام عادة ونور غرفتها مضاء أصلا.. أي أنه من المستحيل أن يكون أحد قد قذف وجهها بالمنضدة ثم هرب دون أن تراه!!.

كان كلامها هذا بمثابة الصدمة!!.. فقد ظننت للحظة أن الخادمة قد تكون وراء ما يحدث.. أنت تعلم كيف يمارس بعض الخدم السحر.. خاصة هؤلاء الذين يأتون من شرق آسيا.. لكن الآن.. تبين أن لا علاقة لها بما يحدث.. لا يمكنني أن أخطئ نظرات الرعب تلك.. إنها مصابة بهلع -إن صح التعبير-من هول ما رأت!!.

عزيزي (خالد).. هل تعرف شيئا عن الأشباح؟ !!.. وليكن سؤالي أكثر دقة: هل تعرف شيئا عن (الأشباح الضاجة)؟؟ !!.. أذكر أنك تحدثت عنها ذات مرة في مذكراتك!!!.. حسنا.. دعني أخبرك بالمزيد.. لست أنت المثقف الوحيد كما تظن والباقين مجرد حمقى!!!.. بل أنا على قدر لا بأس به من الاطلاع والثقافة أيضا!!.

أعتقد أن ما يحدث في شقتنا هو شبيه بما تفعله (الأشباح الضاجة) !!.. إنها نوع من الأشباح غير المرئية كما تعلم.. وكل ما تفعله هو تحريك قطع الأثاث أو هز الفراش.. وأحيانا إطلاق الصرخات المخيفة ([23]).. من الغريب أن هناك كلاما عن تلك الأشباح تم ذكره في المخطوطات الفرعونية القديمة!!!.. إذ تحدّث الفراعنة عنها بالفعل وأطلقوا عليها اسما آخر.. وهو (الغضب المسجل).. حيث ذكروا أن موت شخص ما في ظروف صاخبة عنيفة -كتعرضه لجريمة قتل مثلا- يسبب تجمعا هائلا للطاقة.. ويتكرر تفجر هذه الطاقة في مكان حدوث الجريمة.. كأنك تعيد تدوير شريط التسجيل مرات عديدة.. إلى أن تنتهي تلك الطاقة مع مرور الأيام فتزول الظاهرة ([24])!!.. وقد بدا لي حينها أن هذا ما يحدث في شقتنا بالفعل!!!.

التفسير مقبول وجميل للغاية كما ترى.. ولكن.. إلى متى سنحتمل تكرر تلك الظاهرة في شقتنا؟!.. وهل ستنتهي أصلا؟!.. وهل سنحتمل البقاء في تلك الشقة حتى لو انتهت تلك الظاهرة؟ !!..

ثم أن الشقة التي نقطنها تقع في مجمع سكني حديث البناء.. ولا يمكن أن تكون قد حدثت فيها جريمة قتل في الماضي كحال معظم قصص الأشباح!!!.. كما أننا أول من يسكن تلك الشقة بعد أن تأكدت من ذلك بنفسي من بواب العمارة!!!.

لا أدري.. حقا لا أدري.. فالأشباح عموما هي أكثر ألغاز عالم ما وراء الطبيعة شهرة.. لكنا لا نعثر لها على إجابة شافية أبدا!!!.. فنظل دوما نتساءل.. هل الأشباح موجودة حقا؟ ؟!.. هل من ادعوا أنهم رأوها قد رأوها فعلا؟؟!!.. ثمة مشكلة خطيرة في الأمر.. وهي أن أكثر الناس لا ترى الأشباح إلا بركن العين!!.. فلا أحد يستطيع النظر إليها مباشرة.. وهذا ما جعل الخبراء يتذكرون موضوع العصب البصري والبقعة العمياء وأن ظاهرة الأشباح -على الأرجح- ليست سوى أوهام بصرية!!!.. خاصة بعد خروج ذلك التفسير العلمي الشهير.. وهو ظاهرة الموجات الكهرومغناطيسية التي تسبب الهلاوس.. فمعظم القصور والقلاع المسكونة في أوروبا توجد تحتها مجار مياه تحتك بشكل مستمر بالصخور.. وهذا يولد مع مرور الأيام موجات كهرومغناطيسية قادرة على إحداث خلل مؤقت في العقول فيجعل الإنسان يرى أشياء تتحدى المنطق!!!..

وهناك من يؤمن بأن الأشباح بقايا من القوى النفسية لمن ماتوا!!!.. فمن يمت يترك أظفاره وعظامه على سبيل المثال.. وبنفس المنطق يترك قواه النفسية أيضا في مكان الموت!!!.. ولكن.. يبقى السؤال المهم.. مم تتكون الأشباح أصلا؟!.. لا أحد يعرف.. دعك من أن ظاهرة الأشباح ليست حقيقة مثبتة حتى الآن ([25]).. هذا ما يقوله الخبراء بالفعل.. لكن.. اتضح لي الآن أن هؤلاء ليسوا خبراء.. بل مجموعة من الحمقى!!!.. فلا يمكن أن أكذب عيني وعين زوجتي وعين خادمتنا.. نعم.. نحن لم نرَ أشباحا.. لكنا رأينا أفعالها.. وهي ما يطلق عليها اسم (الأشباح الضاجة) كما أخبرتك.. وهذا هو التفسير الوحيد لما حدث في شقتنا.. لا يوجد أي تفسير آخر!!.. هل هناك فارق بين الجن والأشباح؟ !!.. هل الأشباح هي نفسها الجن؟ !!.. هذه أسئلة لا أملك الإجابة عليها مع الأسف.

وهكذا عزيزي (خالد).. تزايدت تلك الظواهر الغريبة في شقتنا في اليومين التاليين.. وتبين أن المكان مليء بهذه النوعية من الأشباح التي لا تنشط إلا ليلا كحال أي أشباح تحترم نفسها!!!.. وباتت الأمور تتطور ونحن نعيش في رعب ما بعده رعب!!!.. مقعد الزينة يتحرك.. الأثاث يتحرك.. باب الحمام يغلق دون سبب.. فراشنا يهتز بعنف أثناء النوم!!!.. الأواني المنزلية تتحرك!!!.. كل شيء أعرفه في هذه الشقة يتحرك.. ثلاثة أيام عشنا فيها جحيما لا يطاق.. لماذا لم تحدث تلك الظواهر طوال إقامتنا في هذه الشقة في العامين الماضيين؟!.. لا أعلم.. لا أملك جوابا لهذا.

أذكر أنني بعد ثلاثة أيام تقريبا.. ذهبت إلى الشقة المجاورة لأسأل جاري إن كان قد لاحظ شيئا غريبا.. كمحاولة مني لمعرفة إن كان كل هذا يجري في شقتنا فحسب أم في جميع الشقق الأخرى.. و:

-مرحبا..

رد جاري بترحاب شديد:

-أهلا بك يا (......).. أي رياح طيبة ألقت بك هنا؟ !!.. تفضل.. تفضل..

رددت عليه بعبارات المجاملة المعتادة واعتذرت عن الدخول ثم:

-المعذرة.. ولكن.. أريد أن أسألك شيئا بالغ الأهمية.. هل لاحظت أي شيء مريب في شقتك في الأيام القليلة الماضية؟!!!.

رد علي بقلق واضح:

-نعم.. نعم.. هل أنت تعاني من نفس المشكلة؟ !!..

تحفزت حواسي.. ثم سألته بقلق مماثل:

-ماذا يحدث في شقتك تحديدا؟؟!.

قال بغضب:

- نظام التدفئة في شقتي لا يعمل.. تخيل حالنا في هذه الأجواء الباردة!!!.. لقد شكوت الأمر للبواب.. لكنه لم يفعل شيئا.. تصور.. يريدني أن أصلح نظام التدفئة على نفقتي الخاصة.. يريدني أن....

يا له من أحمق!!!.. لم أستمع إلى باقي كلامه.. بل اعتذرت منه وتعللت بانشغالي الشديد.. ثم

رحلت بشيء من الوقاحة التي لم تخفَ عليه دون شك.. لكني كنت قلقا متوترا بحق.. ولم يكن مزاجي رائقا لتلك المجاملات الاجتماعية!!.

لم أكتفِ بهذا.. بل سألت جيراني في الشقق المجاورة إن كانت هناك أي أمور غير عادية تحدث عندهم.. لكن.. كل شيء كان يسير على ما يرام سوى من بعض المشاكل الشبيهة بما أخبرني به جاري!!.. وهي ليست المشاكل التي أبحث عنها كما تعلم!!!.

الأمر مرتبط بشقتي تحديدا.. فازداد يقيني أن شقتنا مسكونة ب(الأشباح الضاجة) أو ربما الجن!!!.. ولا أحتاج عموما إلى ذكاء لأتأكد من هذا.. حتى أن الخادمة أصرت على الخروج من الشقة والعودة إلى بلدها بعد ما رأته بنفسها.. ورفضت تماما البقاء ليلة واحدة في هذا المكان رغم وعودي المستمرة بزيادة راتبها!!.. علما بأن هذا سيرهق ميزانيتي أكثر وأكثر دون شك!!.

ماذا؟؟ !!.. تسألني لماذا لم نخرج من شقتنا ونذهب إلى بيت العائلة مثلا؟ !!.. هذا أمر بالغ الصعوبة!!.. فلا يوجد مكان لنا في بيت والدي أو بيت أهل زوجتي!!..

المهم أنني في النهاية.. أقنعت الخادمة على الأقل بالانتقال مؤقتا إلى بيت أهل زوجتي حيث ستبيت هناك في غرفة خادمتهم بصورة مؤقتة على أن نجد حلا لما يجري!!!.. ما هو هذا الحل؟؟ !!.. الخروج من تلك الشقة اللعينة.. والبحث عن مسكن آخر.. ظننت هذا واضحا.

وهذا ما قمنا به بالفعل.. إذ أخبرنا مالك العمارة بعدم رغبتنا في السكن عنده.. وقمنا بالفعل بالاستعداد للخروج من هذه الشقة الملعونة وسط امتعاض المالك وتذمره من رحيلنا المفاجئ وأنه يفترض بنا إبلاغه بهذا قبل رحيلنا بشهر تقريبا كما ينص عليه العقد!!!.

لقد حاولت ألا أبدو نذلا بهذا التصرف.. فأخبرت المالك أن شقته مسكونة.. وهذا هو السبب الوحيد وراء رغبتنا في الرحيل.. لكنه نظر إلي بحنق.. ثم راح يتحدث عن استهتار الناس وعدم احترامهم للعقود.. إلا أنني لم أكترث بالرد عليه.. ولم أكترث حتى بما يظنه!!!.. كنا نريد الخروج من هذا المكان فحسب.

وقد سمحت لنا شقيقتي الصغرى باستخدام غرفتها -والتي كانت غرفتي قبل زواجي- في بيت العائلة بصورة مؤقتة إلى أن نجد شقة جديدة.. علما بأننا لم نخبر عائلتي أو عائلة زوجتي بالأمر كي لا نثير قلقهم.. فقط أخبرناهم أننا لا نشعر بالراحة في شقتنا وأننا نعاني مشاكل عديدة مع المالك!!.

ولم يكن الأمر عسيرا بعد ذلك.. فقد انتقلنا فعليا إلى بيت العائلة.. وإلى غرفة شقيقتي مؤقتا.. وعثرنا بعدها ببضعة أيام لحسن الحظ على شقة جديدة لا بأس بها على الإطلاق في منطقة قريبة من مكان عملنا.. ولكن.. كان يجب علينا الانتظار قليلا كي يخرج منها المستأجر السابق الذي سينتهي عقده بعد بضعة أيام.

عندها فقط.. جاءت زوجتي بذلك الاقتراح الذي ظننته ذكيا للغاية حينها!!!.. والذي أعتبره البداية الحقيقية لقصتنا هذه!!!.. فكل ما حدث لم يكن شيئا يستحق الذكر مقارنة بما سيحدث لاحقا.. تخيل هذا!!!.

لقد اقترحت زوجتي في تلك الفترة من بدايات شهر (يناير).. أن نحصل على إجازة من العمل.. لنسافر خلالها بالسيارة إلى مملكة (البحرين) تغييرا للجو ومحاولة لنسيان ما مررنا به في الأيام الماضية!!!.. خاصة أننا لا نفعل شيئا حاليا سوى انتظار انتقالنا إلى الشقة الجديدة والذي لن

يحدث قبل أسبوعين من الآن كما علمنا.

كانت فكرة رائعة بالفعل.. أو هذا ما ظننته حينها!!!.. خاصة وأننا لم نسافر إلى أي مكان منذ زواجنا بسبب ظروفنا المادية.. وأن السفر إلى (البحرين) برّا لن يكلفنا كثيرا.. كما أن هذه الفترة من السنة هي الأجمل للسفر وقضاء الإجازة بعيدا عن فترات العطل الرسمية التي تزدحم فيها الشوارع في كل مكان في الخليج العربي!!!.

وبعد يومين فحسب.. وبعد أن حصلنا على إجازة طارئة من العمل.. كنت مع زوجتي في السيارة في مساء تلك الليلة متجهين إلى (البحرين) بالفعل.. شاعرين أننا سننسى ما تعرضنا له من أهوال في الأيام القليلة الماضية!!!.

كانت الساعة تقترب من السابعة مساء.. والأجواء غائمة منذرة بالأمطار.. والشارع خال تماما بالقرب من الحدود (السعودية).. لكن كل هذا لم يثبط من عزيمتنا.. بل وعلى العكس تماما.. رأيناها أجواء رائعة للسفر.. و.. نعم يا (خالد).. لا شك أنك خمنت ما سيحدث!!!.. فهذا ما يحدث لكل من يظن أن تلك الأجواء مثالية للسفر!!!.

فما أن ابتعدنا بسيارتنا قليلا.. حتى بدأت الأمطار تهطل شيئا فشيئا.. إلى أن أصبحت كالشلال الذي يرفض التوقف!!!.. المياه تضرب الزجاج الأمامي لسيارتي بقوة.. في حين تعمل المسّاحات بكامل طاقتها دون فائدة..

وبالطبع أيضا لا بد من الشجار مع زوجتي وسط هذه الأجواء!!!.. إذ بدأت ألومها على السفر في هذا الوقت.. لترد علي بحنق وتقول أنني وافقت ولم أعترض في حينها.. فلماذا ألقي باللوم عليها الآن؟؟ !!.. ومن الطبيعي أن يقودنا هذا الحوار إلى شجار آخر.. لأتذكر موقفاً سابقاً اتخذت فيه جانبا إيجابيا معها رغم سلبيتها!!.. وتتذكر هي بالمقابل موقفا آخر كانت فيه رمزا للحكمة.. بينما كنت أنا فيه كالخروف!!.

هذه الشجارات الزوجية معتادة جدا وتحدث لكل الأزواج كما ذكرت سابقا.. وهي لا تؤدي في النهاية إلى شيء.. ولا يمكن أن تقنع فيها أحد الطرفين بالاعتذار مثلا.. إنها من الشجارات التي تنتهي من تلقاء نفسها.. أو تتراكم وتتراكم إلى شجارات أكبر.. ثم ينتهي كل شيء!!!.. وهكذا نقرر أن نبدأ من جديد!!.. ثم يحدث شجار آخرا.. ونتصالح بعدها ونقسم أنه آخر الشجارات.. وتتكرر القصة إلى أن ننجب ويصل أبناؤنا إلى المرحلة الجامعية!!!.. هذه هي الحياة الزوجية!!!.

لقد عرفت صديقا لي كان يقود سيارته بأقصى سرعة لها في طريق مهجور.. ويخرج رأسه من النافذة و يصرخ و يشتم بأعلى صوته!!.. كان هذا يشعره بالراحة!!.. وأظن أنني أفهمه الآن.. لكني لا أستطيع أن أتصرف بهذه الطريقة أمام زوجتي كي لا أبدو ضعيفا مهزوزا أمامها.

ماذا كنت أقول؟!.. نعم.. ظللنا نتشاجر في السيارة.. وظل صوتنا يرتفع وسط هذه الأجواء الممطرة المحمومة وأنا أكرر وأتوعد في كل لحظة بأنني سأستدير عائدا إلى البيت وسألغي فكرة السفر هذه تماما!!.. في حين تتحداني هي وتدّعي أنها لا تكترث بعد أن فقدت حماسها للسفر أصلا!!!

و.. الظلام.. الطريق السريع.. الأمطار.. الأرض الزلقة.. أنت لا تصدق عينيك عندما تتعرض إلى حادث مروري.. لكنها الحقيقة!!!.. هذا ما يحدث وأنا أمسك بالمقود في هلع وسط صراخ زوجتي.. إذ تشعر أن السيارة قد انزلقت فجأة.. هل انفجر الإطار الأمامي؟ !!.. لا أعلم.. الإشارات

العصبية تنتقل إلى العضلات لأضغط على الفرامل بكل قوتي.. وهو أغبى خطأ ممكن ارتكابه.. لكن.. حدوث كل شيء بسرعة لا يسمح لك بالتفكير بعقلانية كما تعلم!!!.. فتدوس مرة أخرى على الفرامل.. لتنزلق السيارة وتصطدم بالحاجز الأسمنتي على جانب الطريق.. وتتحول بعدها إلى شهاب محلق في السماء!!!.

ثم يحدث السيناريو الذي يتوقعه أي إنسان!!!.. السيارة تنقلب مرة ومرتين وربما ثلاث.. لتستقر في منتصف الشارع الخالي تماما في تلك اللحظة!!!.. الباب مغلق.. لكن.. مازلت قادرا على الخروج من النافذة الأمامية التي تحطمت بالكامل!!!.. الأمطار تجعل الأمور أكثر سوءا.. أحاول الخروج بصورة آلية من السيارة وكأنني في عالم آخر!!.

شعرت أن كل شيء يجري بالسرعة البطيئة.. أخرج من السيارة.. أترنح وأسقط على الإسفلت بقوة شاعرا به يمزق وجهي!!!.. لكن هذا سيكون أقل الأضرار.. هل أنا مصاب؟ !!.. لا أدري.. في تلك اللحظات لا تشعر بشيء!!!.

ألتفت ناحية السماء.. إنها ذات الغيوم التي كنت أراها قبل قليل حين كنت سليما معافى.. الزجاج المتناثر في كل مكان حولي.. لا بد أن المأساة قد دامت ثوان.. إلا أنها بدت لي عدة قرون.. هل هي اللحظات الأخيرة من حياتي؟ !!.. لا أعتقد.. لا زلت قادرا على النهوض والتحرك.. لا أشعر سوى ببعض الآلام هنا وهناك والتي بدأت تعلن عن نفسها بعد استيعابي للصدمة.. ما هذا المذاق الكريه في فمي؟ !!.. إنها الدماء دون شك.. مهلا!!!.. أين زوجتي؟؟ !!.. يا إلهي.. إنها منكمشة في المقعد الأمامي.. تنظر إلي برعب هائل جعلها عاجزة عن النطق وعاجزة عن مغادرة مكانها.. يبدو أنها أصيبت بشدة!!!.

أنظر إلى الشارع باحثا عن مساعدة!!!.. أرى الكثير من الخيام على جانبي الطريق.. فنحن في أجمل فترات السنة في (الكويت) التي يخرج فيها الناس إلى التخييم.. لكن.. كل الخيام بعيدة!!!.. هل انتبه أصحابها إلى الحادث؟!.. لا أعلم.. توجهت مترنحا ناحية زوجتي.. ما هذه الرائحة؟ !!.. إنه البنزين.. إنه ينتشر بقوة!!.. ثم.. لحظات قليلة قبل أن تشتعل النيران فجأة وتنتشر بالسيارة وسط صراخ زوجتي ونظراتها التي لا تصدق ما يجري حولها.. لقد ظننت أن هذا يحدث في الأفلام فقط!!!.

يا إلهي.. زوجتي.. إنها تحترق.. تحترق حقيقة لا مجاز.. صوت صراخها كأنه يأتي من أعماق الجحيم!!!.. أما أنا.. فلا أعرف ما أصبت به.. أتذكر أنني رأيت أثناءها -وبصورة ضبابية- سيارة عابرة أخيرا!!!.. إنها تبطئ السير.. أشعر أنني أغيب عن الوجود وأقترب من فقدان الوعي فأقع على الأرض!!!.. لكني لم أفقد الوعي تماما.. إنني بين الوعي واللاوعي إن أردنا الدقة.. لا زلت أرى الأمور بشكل ضبابي.. يتم نقلي في سيارة الإسعاف.. ثم وجودي في المستشفى على سرير ما.. جهاز الأشعة يهبط من أعلى نحوي.. لأفقد الوعي بعدها تماما هذه المرة!!!.

لا أعلم كم مر من الزمن!!.. ربما هي بضع ساعات.. ربما أكثر!!.. قبل أن أستيقظ أخيرا لأجد نفسي على سرير نظيف محاطا بعدد من الممرضات.. مع طبيب من جنسية عربية كما بدا لي من ملامحه.. حاولت النهوض من على السرير.. فشعرت بإصابات متفرقة في جسدي!!!.

عندها اقترب مني الطبيب وقال مبتسما:

-لا تخشَ شيئا.. أنت في مستشفى (العدّان).. لقد تعرضت لحادث مروري.. لكنك لحسن الحظ لم تصب سوى ببعض الرضوض والخدوش في أماكن متفرقة من جسدك!!!.. لا توجد هناك

كسور من أي نوع.. وتستطيع النهوض من فراشك الآن لو أردت والعودة إلى منزلك لترتاح.. سأعطيك إجازة طبية كي تشفى جروحك وتستعيد نشاطك!!.

نظرت إليه باستغراب شديد.. ثم سألته بقلق:

-لماذا فقدت وعيي إذا؟ !!..

رد بتعاطف:

-كان هذا من هول الحادث.. ربما أصبت بصدمة قوية ولم تحتمل أعصابك ما حدث!!!.

نظرت إليه بذعر هائل بعد أن تذكرت ما حدث.. ورحت أصرخ:

-يا إلهي.. زوجتي.. زوجتي!!!.. لقد رأيتها تحترق قبل أن أفقد وعيي.. ماذا حل بها؟!!.

نظر إلي الطبيب طويلا.. ثم قال بأسى:

-المعذرة.. أرجوك حاول أن تفهم ما سأقوله لك.. إن زوجتك على قيد الحياة.. ولكن.. ولكن..

سكت وهو يتنهد بعمق.. ثم قال وهو يهز رأسه أسفا أمام نظراتي المذعورة:

- لا توجد طريقة أفضل أو أسهل لقول هذا!!!.. لقد نجت زوجتك بمعجزة حقيقية.. فقد اشتعلت في جسدها النيران ربما بسبب انفجار خزان الوقود.. لكنها خرجت من السيارة رغم ذلك.. وساهمت بعدها مياه الأمطار بإخماد النار.. إلا أن هذا جاء متأخرا مع الأسف الشديد!!!.

سألته بذعر:

-ماذا تعني؟!.. هل.. هل ماتت زوجتي؟ !!.. لقد قلت للتو أنها لم تمت!!!.

هز رأسه نفيا.. ثم قال بهدوء شديد:

-لم تمت.. وهي معجزة لا زلت عاجزا عن فهمها!!!.. لكنها احترقت وتشوه جسدها بالكامل.. لن أكذب عليك.. إن حالتها سيئة للغاية.. إذ أصيبت بحروق من الدرجة الثالثة وهي أسوأ أنواع الحروق!!!.. لقد احترقت كل طبقات الجلد.. بما فيها الخلايا التحتانية والدهون والعضلات والأعصاب.. فانسلخ جلدها تماما واكتسى باللون البني.. إنها حتى لا تشعر بالألم بسبب تدمير نهايات الأعصاب التي توجد على سطح الجلد ([26])!!.

ظللت مستمعا إليه في ذهول بالغ.. ثم نهضت من مكاني مترنحا وأنا أقول بحزم:

-سأذهب لأراها..

وضع الطبيب يده على كتفي.. ثم قال محذرا:

-لن تحب ما ستراه يا سيدي!!!.. إن جلدها منسلخ تماما كما أخبرتك.. وقد غطت الضمادات جسدها بالكامل.. وأسنانها كلها ظاهرة دون أن يغطيها الفم!!!.. وعينيها مفتوحتين رغم أنها في غيبوبة!!!.. إنها آثار الصدمة العصبية.. أرجوك حاول أن تفهم.. أنا أقول لك هذا الكلام كي تكون مستعدا حين تراها.

نظرت إليه طويلا واضعا يدي على فمي من هول الموقف!!.. وانهمرت دموعي لا شعوريا.. وراح جسدي يرتجف بشكل واضح.. ثم اتخذت قراري.. وقلت مرة أخرى وأنا أمسح دموعي وسط الصمت الذي سيطر على المكان:

-سأذهب لأرى زوجتي لو سمحت!!!.

نظر إلي متفهما.. فأحاط كتفي بيديه مشجعا.. لأذهب معه عبر الممرات متوجها إلى العناية المركزة.. وإلى حيث زوجتي!!..

كم أكره رائحة المستشفى.. إنها أقرب إلى رائحة العذاب البشري.. هذا ما ظللت أقوله لنفسي وأنا أمشي مع الطبيب مستسلما تماما.. و.. حين دخلت غرفة العناية المركزة لأرى زوجتي.. أدركت كم كان الطبيب محقا في تحذيره!!.. إن هذا ليس كيانا بشريا.. بل وجه شخص هلك محترقا.. لكنه -وهذا أسوأ ما في الأمر-ما زال حيا!!!.

عزيزي (خالد).. ما هو أبشع مسخ رأيته في كوابيسك؟؟!!.. لا داعي أن تصفه لي.. لكن ثق تماما أنه لا يمكن أن يكون بشعا كما بدت عليه زوجتي!!!.. جسد مغطى بأكمله بالضمادات.. ولكن رغم ذلك.. أستطيع أن أرى بعض ملامح وجهها وقد اختفى فمها وشفتاها بالكامل!!!.. تماما كما قال الطبيب!!!.. لم يتبقّ إلا أسنانها التي اختلطت مع اللثة بشكل مخيف يبعث على التقزز!!!.. كل الجلد المحيط بعينيها قد احترق تماما.. فبدت عيناها المفتوحتان مرعبتان بحق.. وكأنها تحدق باللا مكان إن صح التعبير!!!.. لكن.. كما قال الطبيب.. إنها في غيبوبة ولا تنظر إلى شيء في واقع الأمر.

ماذا كانت ردة فعلي؟ !!.. المعذرة.. فقد تقيأت أمام الجميع الذين أحاطوا بي ووضعوا أمام فمي كيسا لا أعرف كيف جاؤوا به بهذه السرعة!!!.. إنني أكره التقيؤ بشدة.. أشعر أن روحي نفسها تخرج من جوفي عندما أتقيأ.. لكن.. لا يمكن أن يلومني أحد!!!.

هذا شنيع للغاية!!.. هذا لا يصدق!!!.. لقد كانت هذه زوجتي منذ ساعات قليلة فحسب.. أما الآن فهي مسخ.. بل وحش بشري مخيف يتجاوز كل كوابيسك!!!.. وما زاد الأمر سوءا هو تلك الخراطيم العديدة التي تخرج من وإلى جسدها!!!.. هناك خرطوم يخرج من فمها.. وآخر يخرج من أنفها.. إن الخراطيم والأنابيب تتدلى منها من كل جانب!!.. فبدت لي ككائن خرافي من قصص الرعب!!!.

ظللت على الأرض ورحت أبكي بصوت مرتفع أثار شفقة الطبيب مع الممرضات.. فالتفوا حولي وراحوا يطلبون مني أن أسيطر على أعصابي.. وراح الطبيب بدوره يخبرني أن هذا قضاء الله وقدره.. وأنني يجب أن أواجه الأمور بشجاعة وأن أحمد الله على كل حال.. ومن هذا الكلام الذي يتردد دائما في المصائب!!!.

إلى أن هدأت أخيرا.. وجلست بعدها في غرفة الطبيب لأعرف تفاصيل حالة زوجتي.. غير عالم إن كنت قادرا على الدخول لأراها مرة أخرى أم لا!!!.. إذ كنت أشعر برهبة شديدة من مظهرها!!.. بل كنت أخشاها كالموت ذاته!!!.. ولا أظن أن أحدا يلومني على هذا!!.

سألت الطبيب بانكسار:

-هل ستنجو؟ !!..

قال بصراحة:

-إنها في غيبوبة.. في عالم آخر لا نعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه.. فلا يمكننا أن نفعل شيئا سوى مراقبة حالتها!!!.

أومأت برأسي متفهما.. وسألته وسط الدموع التي امتلأ بها وجهي:

-وماذا سيحدث بعد هذا؟!!.

رد بأسف بالغ:

-إنها حروق من الدرجة الثالثة كما أخبرتك.. مع إصابات خطيرة أخرى.. إنه موت دماغي لا شك فيه!!!.. سنحاول أن نبقي تنفسها منتظما فحسب.. مع أخذ القياسات الحيوية المعتادة!!!.. باختصار.. الروتين الذي تمارسه كل ممرضة والمعتاد في كل مستشفى!!!.. لن أكذب عليك.. الطب يجزم أن زوجتك ستموت.. اليوم.. بعد أسبوع.. بعد شهر.. لا أحد يعرف.. لكن لا تيأس من رحمة الله.. فتجد أحياناً طبيباً يتوقع موت مريض بعد أسبوع مثلا.. لكن تجد الطبيب نفسه يموت بعدها بنوبة قلبية مفاجئة في حين يشفى المريض فجأة.. معجزات؟؟!!.. نعم.. ولم لا.. فالله سبحانه وتعالى قادر على صنعها.

نظرت إلى الطبيب طويلا دون رد!!.. كلامه هذا يقوله كل طبيب بالتأكيد.. فهي ليست المرة الأولى أو الأخيرة!!.. كل يوم تمر عليه مآس كهذه.. حتى بات الأمر اعتياديا بالنسبة له..

ساد الصمت للحظات.. ورحت أتذكر منظر زوجتي وهي واقعة في غيبوبتها وقد تحولت إلى مسخ بشري.. دائما نظن أن الواقع في غيبوبة يعيش في عالم آخر لا نعرف مقاييسه.. وأنه يعرف ما لا نعرف.. وقد ازداد حكمة فجأة بما لا يقاس.. هذا ما أفكر به عادة حين أرى شخصا واقعا في غيبوبة!!!.. أما في حالتي.. فقد كانت مشاعري مزيجا من الرعب والاشمئزاز!!.

سألت الطبيب بعدها بقلق:

-ماذا عن أهل زوجتي.. هل أخبرتم أحداً بالأمر؟!!..

هز رأسه موافقا وقال:

-أعتقد أن إدارة المستشفى أبلغت عائلتك منذ قليل!!!.. لا شك أنهم قد أخبروا بدورهم عائلة زوجتك.. من الأفضل أن تكون بانتظارهم حتى تهدئ من روعهم!!.

أهدئ من روعهم؟ !!.. ومن سيهدئ من روعي أنا؟ !!.. لكني لم أرد على كلامه.. بل خرجت متثاقلا من غرفته إلى غرفة الاستراحة القريبة من العناية المركزة.. كنت دامع العينين.. أعتصر منديلا كبيرا.. وأنظر بعين مليئة بالدموع إلى السقف.. حيث تتراص مصابيح النيون الكئيبة في خط مستقيم ممل.. رحت أنظر إليها والخواطر تزدحم في عقلي!!!.. هذا المصباح الثالث يحدث أزيزا مزعجا.. والرابع لا يضيء إلا فيما ندر!!.. والخامس تعيش فيه عائلة كاملة من العناكب كما يبدو!!!.. لا تنسَ أننا نتحدث هنا عن مستشفى حكومي.

ترى.. كيف سيكون لقائي بأهل زوجتي وأهلي!!!.. لن يكون الأمر يسيرا على الإطلاق.. بل ستكون لحظات عصيبة دون شك!!!..

غرقت في خواطر لا نهاية لها شاعرا بآلام بسيطة في ذراعي وفي جسدي عموما بسبب الجروح السطحية التي أصبت بها جراء الحادث.. وأنا أنظر لا شعوريا إلى مصابيح النيون.. قبل أن أشعر بوقع أقدام تقترب مني على عجالة!!!.. التفت لأجد أهل زوجتي.. والديها.. وأشقاءها!!!!.. هذا والدي أيضا.. ووالدتي.. مع شقيقاتي!!!.. يا إلهي.. كانت هذه أصعب لحظة في حياتي بحق!!!.. اللحظة التي أخشاها!!!.. لحظة لقاء الجميع.. وبالتحديد أهل زوجتي.. لا بد أن أشرح لهم أن لا

يد لي بما حدث!!!.. وأن الأمطار هي السبب.. وأشرح لهم بعدها ما حدث لابنتهم.. وأن حالتها الآن حرجة جدا.. وهي معلقة بين الحياة والموت!!.

و.. لك أن تتخيل ما حدث بعدها.. انهيار والدة زوجتي.. البكاء.. والصراخ.. والعويل.. ليأتي الطبيب ويصر ألا ترى الأم ابنتها لأن منظر الابنة لن يروق لأحد بالتأكيد.. في حين يصر الأب مع الأشقاء على الدخول لرؤيتها والاطمئنان عليها.. لحظات قليلة.. قبل أن يخرج الجميع مذهولين غير مصدقين كيف تحولت ابنتهم إلى ذلك (الشيء) الراقد في العناية المركزة!!!.

الأب فقد وقاره تماما.. وراح يصرخ ويبكي.. وكان هذا كفيلا بتدمير نفسية الباقين.. فانفجر الجميع فجأة في بكاء هستيري.. هذه مصيبة.. لا يوجد من يلعب دور القوي الذي يهدئ الجميع!!!.

أنت تعرف تلك المشاهد يا (خالد).. فلن أصفها لك.. لكنها كانت دون شك أسوأ لحظات حياتي على الإطلاق.. تأكد من هذا!!.. ولا أنسى هؤلاء الناس المتواجدين حولنا.. يتظاهرون أنهم ليسوا فضوليين.. لكنهم جميعا كذلك!!.

أما أنا.. فلم يسألني أحد عن حالي رغم الضمادات التي تلف حول يدي ورأسي.. إذ بدا لهم أن جروحي سطحية وتافهة بالفعل.. ولا تقارن أبدا بما حدث لزوجتي!!.

ظللنا في المستشفى قرابة الساعتين وقد تحول المكان إلى مجلس عزاء.. قبل أن تهدأ الأمور قليلا.. ويقترح شقيق زوجتي أن نعود جميعا إلى بيوتنا.. فليس هناك ما نستطيع عمله الآن.. على أن نعود إلى المستشفى غدا لزيارة زوجتي.. أو فلنقل ما تبقى منها!!!.

خرجت من المستشفى والإرهاق يسيطر على كل ذرة من جسدي.. كنت أرغب في الخروج بشدة منذ ساعة.. لكني شعرت بحرج بالغ أن أقترح هذا بنفسي.. سيظن الجميع أنني نذل وأنني لا أكترث كثيرا لما حدث لزوجتي.. لذا فقد التزمت الصمت إلى أن اقترح شقيقها أخيرا أن نعود إلى البيت.

كانت الساعة تقترب من الرابعة فجرا.. عندما خرجت مع أفراد عائلتي في سيارة والدي التي امتلأت بنا.. منطلقين إلى البيت والنعاس يسيطر علي تماما.. حيث ساد السيارة صمت مخيف كما هو الحال في الخارج!!!.

ففي ساعات الفجر هذه تبدو (الكويت) صافية ناعسة شديدة الهدوء.. تكاد لا تصدق أنها ستتحول إلى خلية نحل بعد ساعات قليلة من الآن.. هذا يشعرني بالحزن.. بالشجن إن أردنا الدقة!!!.. وأعتقد أن شيئا تحرك في أعماقنا جميعا إزاء هذا الصمت.

هل أشعر بالحزن على ما حدث لزوجتي؟! !!.. لم يكن الشعور بالحزن بقدر ما هو عدم تصديق ما يحدث لي!!!.. أحيانا تكون الأحداث حولك مهولة إلى درجة أنها تشل مشاعرك نفسها!!.. كما أن ذهني كان مشغولا بأمر هام لا ننكره.. الرغبة المجنونة في الذهاب إلى الفراش!!!.. نعم.. لقد قتلني الإرهاق قتلا.. لا شك أنني سأصحو بعدها وسيكون ذهني أصفى وأنقى!!!.. سأصحو بعدها وأفكر بما حدث لزوجتي.. لن يضرها شيئا لو نمت قليلا.. أقول هذا لنفسي كي يطغى هذا الكلام على صوت ضميري!!!.. فالماضي انتهى بكل مسراته وأحزانه.. والغد لا يعلمه سوى الله.. إذا هي لحظة حاضرة طويلة ومريحة تمد أصابع قدميك فيها في الفراش إلى آخر امتداد لها.. وتغيب بعدها عن الوجود.

أكاد أشعر أنك تريد تكرار السؤال لأن إجابتي لم تبدُ لك مقنعة!!.. هل كنت أشعر بالحزن لما

حدث لزوجتي؟ !!.. حسنا.. لا أعلم!!!.. صدقني لا أعلم.. ربما كان الخوف من هيئتها هو الشعور الأكبر الذي سيطر علي!!!.

عدنا أخيرا إلى البيت.. أرجو ألا تنسَ أنني أقيم حاليا وبصورة مؤقتة في بيت العائلة على أن أنتقل إلى الشقة الجديدة بعد عشرة أيام تقريبا.. ولا أعرف في واقع الأمر ما سيحدث الآن بعد هذا الحادث ووقوع زوجتي في غيبوبة لن تستيقظ منها على الأرجح!!!.

جلسنا جميعا في غرفة المعيشة نفكر بتلك المصيبة.. بكاء والدتي وشقيقتي الصغرى على وجه الخصوص يضيف على المكان جوا دراميا كئيبا دون شك.. لا تنسَ أنها صديقة حميمة لزوجتي وهي التي اقترحت علي الزواج منها!!!..

أما والدي فكان يحتوي وجهه براحتي يديه ويفكر بعمق.. في حين راح شقيقي يلعب دور الحكيم الذي يواسي الجميع مستمتعا بهذا بشكل واضح!!!.. لينهض بعدها فجأة.. ويرجونا جميعا أن نذهب إلى النوم.. على أن نترك الأمر بيد الله وفي الصباح يحلها ألف حلال.. تماما كما قال الطبيب في المستشفى!!.

امتثلنا جميعا له.. فقد كنت أنا تحديدا أنتظر تلك اللحظة بسبب الإرهاق الشديد الذي أعانيه كما علمنا.. لكني خجلت إعلان ذلك بعد أن رأيت الجميع مستيقظين في غرفة المعيشة!!!.

ها أنا أخيرا في فراشي.. أفكر بعينين ناعستين.. وجفنين ثقيلين.. ولن أكذب عليك يا (خالد).. أعترف أنني شعرت بشيء من السرور كوني متجها في حياتي إلى العزوبية مرة أخرى!!!.. ستقول أنني نذل؟؟ !!.. ستقول أنني حقير؟؟!!.. لا يهم.. سأرد عليك وأقول بكل وضوح: الحي أبقى من الميت.. وزوجتي الآن في عداد الموتى.

كما أنني أحلم منذ زواجي أن أعود إلى حياة العزوبية.. وها هي الفرصة أمامي على طبق من ذهب.. فلماذا لا أستغلها وأبدأ أعيش حياتي كما أريد مرة أخرى؟!!.

وهكذا انتهت الليلة الأولى لذلك الحادث المخيف الذي تعرضت له مع زوجتي.. وهي أطول ليلة في حياتي.. أو هذا ما كنت أظنه.. فالقادم سيكون أسوأ.. أسوأ بكثير!!!.

عندما استيقظت في اليوم التالي.. بدا الجو العام في البيت بالغ الكآبة بطبيعة الحال.. وراح الجميع يواسيني مرة أخرى ويطلبون مني أن يكون إيماني بالله قويا.. وأنني رجل أستطيع أن أواجه تلك المصيبة بقلب قوي.. فكنت أنظر إليهم بعين خاوية.. وأهز رأسي بأسى موافقا..

ثم.. ارتديت ثيابي.. وذهبت مع شقيقتي إلى المستشفى مرة أخرى لزيارة زوجتي.. أفعل هذا مرغما دون شك حتى لا يصفني أحد بالنذالة.. فلا زلت أكره الذهاب لرؤيتها!!!.. إنها لم تعد زوجتي إن كنت تفهم ما أعني!!!.. بل مجرد مسخ بشع لا يمت للبشر بصلة.. لكن.. لا يمكنني أن أفصح عن مشاعري كما تعلم!!!.

وفي المستشفى.. لم يطرأ أي تغيير على الأمر.. فكما يقول الطبيب.. حالات الغيبوبة هذه قد تدوم أياما أو شهوراً.. أو حتى سنوات في حالات نادرة ([27]).. أي أن الأمر سيكون معلقا هكذا إلا أن يأتي أمر الله!!!..

ظللت أفكر بالسؤال الأهم: هل سأزور زوجتي كل يوم؟ !!.. إنني لا أريد ذلك.. لكني سأبدو قليل الأصل أمام الجميع دون شك إن لم أفعل!!!.. يا إلهي.. من يريد أن يرى هذا العذاب يوميا؟ !!.. العينين المفتوحتين المخيفتين..

ملامح الوجه التي لا تمت إلى زوجتي بصلة.. الجسد المغطى بالكامل بالضمادات وكأنه مومياء فرعونية مخيفة خرجت من قبرها!!!.. لا يوجد شيء يجعلني متلهفا متحمسا لزيارة زوجتي في المستشفى إن كنت تفهم ما أعنيه!!!.. كما أنني لا أحمل لها ذلك الحب الذي يدّعيه الأزواج طوال الوقت.. فقد تزوجنا منذ سنتين فحسب.. ولم ننجب حتى الآن.. فلا دور للعشرة هنا أو حتى للأطفال.. دعك من أن حياتنا كانت كلها عبارة عن مشاكل لا تنتهي!!!.

و.. عندما خرجنا من المستشفى.. كنت قد قررت أن أقلل من زياراتي شيئا فشيئا مع مرور الأيام.. إلى أن تصبح زيارة واحدة في الشهر.. هذا على اعتبار أن زوجتي ستعيش تلك المدة أصلا!!!.. ففي واقع الأمر.. تعامل الجميع مع ما حدث على أن زوجتي قد توفيت فعليا.. ولم يكن ينقصنا سوى مجلس عزاء حقيقي وإعلان وفاة رسمي.. نحن نتحدث عن غيبوبة لن تصحو منها على الأرجح.. وحتى في حالة حدوث هذه المعجزة.. ستحتاج إلى معجزة أخرى كي يتم علاجها وتلتئم جروحها وحروقها وتعود كما كانت في الماضي.. وحدوث معجزتين لنفس الشخص هو أمر مستحيل.. مستحيل بكل المقاييس!!!.

وهكذا بدأت عجلة الأيام تدور مرة أخرى شيئا فشيئا.. ولكن ببطء شديد!!!.. فكنت أزور زوجتي يوميا في البداية.. لكن لا أقضي عندها أكثر من دقيقة أو دقيقتين.. متعللا أنها في العناية المركزة وليس مسموح لنا أن نكون متواجدين في غرفتها طوال الوقت.. وهذا هو الواقع لحسن الحظ.. والواقع يقول أيضا أنني كنت أزورها فقط ليعرف والداها أنني لم أتخلَ عن ابنتهما.. وحتى أبعد عن نفسي القيل والقال!!!.

بدأت بعدها أبرمج حياتي على العزوبية مرة أخرى.. فبدأت بالاستقرار في بيت العائلة ونسيت تماما أمر الشقة الجديدة.. وعادت شقيقتي الصغرى لتقيم مع شقيقتي الأخرى في غرفتها كما كان الحال قبل زواجي!!!.. لأستعيد غرفتي وأستعيد معها حياتي.. شاعرا أنني حصلت على فرصة العزوبية مرة أخرى.. عالما أنها فرصة ذهبية لن أفرط بها هذه المرة مهما حدث.. وأنني لن أتزوج مهما كانت الضغوط!!!.

كانت كل الأمور تشير إلى أيام سعيدة قادمة.. خاصة بعد مرور شهر على تلك الحادثة المشؤومة واستمرار زوجتي في الغيبوبة دون أي تغيير إيجابي أو سلبي على حالتها.. فاستسلم الجميع لقدرها أخيرا.. ورحنا نتعامل مع الأمر على أن زوجتي متوفاة تنتظر فقط إعلان المستشفى لهذا..

كما بدأ أفراد العائلتين يعودون إلى حياتهم الطبيعية.. هذا بالطبع قبل أن أعلم أن الكوابيس الحقيقية قادمة.. وأن حياتي ستنقلب مرة أخرى رأسا على عقب.. أتحدث عن حياتي الشخصية هذه المرة.. وليست حياتي الزوجية فحسب!!.

كان هذا بعد مرور قرابة الشهر أو ربما أكثر قليلا منذ تعرضنا لذلك الحادث المروري.. وقد شفيت من كل جروحي أخيرا ونزعت كل الضمادات عن جسدي.. في حين لا زالت زوجتي تحت الغيبوبة العميقة في غرفة العناية المركزة بالطبع.

لا زلت أتذكر تلك الليلة جيدا.. عندما عدت متأخرا إلى البيت في عطلة نهاية الأسبوع.. وبعد سهرة قضيتها مع أصدقائي في أحد المقاهي حيث كنا نشاهد أحد المباريات المهمة..

كانت الساعة وقتها تقارب الثانية فجرا والجميع نيام.. حيث شعرت برغبة عارمة لإعداد كوب من الشاي.. قبل الذهاب إلى غرفتي والجلوس أمام شاشة الكمبيوتر لساعة أو ساعتين قبل النوم.

ذهبت إلى المطبخ بالفعل.. وقمت بإعداد كل شيء بذهن صاف مستريح.. شاعرا أن الحياة ستكون أجمل وأجمل خلال الأيام القادمة.. خاصة وأنني أخطط للسفر مع أصدقائي بعد بضعة شهور من الآن.. علما بأنني لم أقطع زيارتي لزوجتي.. بل كنت أزورها على فترات متقاربة بدأت تتباعد شيئا فشيئا!!!.

كنت أفكر بموضوع السفر مع أصدقائي.. وأنا أسمع المياه تقرقر في الإبريق بصوت محبب إلى النفس.. ثم.. تذكرت أن علي الانحناء لأجلب السكر من ذلك الدرج السفلي!!!.. انحنيت بالفعل لأفتح الدرج.. قبل أن يحدث شيئا غير متوقع.. شيئا مستحيل الحدوث.. لكنه حدث بالفعل.. إذ قفز إبريق الشاي فجأة!!!.. نعم.. أنت لم تخطىء قراءة الجملة!!!.. فالإبريق قفز فجأة بالفعل وتناثر الماء شديد السخونة في كل مكان حولي!!!.. ولو لم أنحنِ لحظتها لأجلب السكر.. لاحترق وجهي بالكامل وربما أجزاء من جسدي أيضا!!!.

تجمدت في مكاني ورحت أنظر حولي برعب بالغ وقلبي يدق كالطبل!!!.. فلو تأخرت في انحناءتي عشراً من الثانية.. لاحترق وجهي بالفعل.. وربما لكانت أجزاء من جلد وجهي متناثرة على الأرض إن كان شيء كهذا ممكن الحدوث!!!..

رحت أنظر بغباء مختلط بالذهول إلى الإبريق المرمي على الأرض والمياه الساخنة تنصب منه صبا!!!.. يا إلهي.. كيف حدث هذا؟!.. كيف قفز إبريق الشاي بوجهي بهذه الصورة؟؟!!.. لا أعلم. عزيزي (خالد).. لا داعي للحديث عن الخوف والرعب والتوتر والحيرة وكل المشاعر السلبية الأخرى التي سيطرت علي!!!.. فهذه أمور مفروغ منها كما تعلم.. سأكتفي بالقول أنني تراجعت إلى الخلف بقلق شديد حتى التصقت تماما بجدار المطبخ!!!.. ما الذي يحدث هنا؟؟!!.. لا يمكن أن يكون الإبريق قد قفز من تلقاء نفسه!!!.. هذا مستحيل.. مستحيل تماما!!!.. و.. شيئا فشيئا.. بدأت أتذكر التجربة المريرة التي عشتها مع زوجتي في شقتنا السابقة قبل تعرضنا للحادث المروري.. هل تذكرها؟ !!.. قصة (الأشباح الضاجة) إياها التي راحت تحرك الأثاث والأواني المنزلية وتثير الرعب في قلوبنا جميعا.. لقد نسيت تماما ما حدث لنا في تلك الشقة بسبب الحادث المروري إياه.. لكن القصة قفزت كلها بذهني الآن بعد هذه الحادثة الغريبة!!!.

هذا لا يعقل!!!.. هل.. هل بيت العائلة مسكون بالأشباح أيضا؟ !!.. مستحيل.. فلا يمكن أن تتكرر الصدف بهذه الصورة.. ثم أنني أعيش في هذا البيت طوال عمري وإلى يوم زواجي.. ولم يحدث شيء كهذا بتاتا لي أو لأي من أفراد العائلة!!!.. هل تكون المشكلة في أنبوب الغاز المتصل بالموقد؟ !!.. أو.. هل تكون المشكلة في الموقد نفسه مثلا؟ !!.. إنني لم أسمع عن مشكلة في الموقد تجعل أباريق الشاي أو أواني الطبخ تقفز في وجوه الناس هكذا!!!.

حاولت استجماع شجاعتي!!!.. وخرجت من المطبخ بعد أن قمت بوضع منشفة على الأرض حتى تمتص كل الماء الساخن الذي تطاير من الإبريق وتناثر في كل مكان.. فعلت هذا بعد أن فقدت رغبتي تماما في شرب الشاي.. لأعود بعدها إلى غرفتي وأنا أنظر حولي بقلق مرددا بعض الآيات القرآنية وقد عادت ذكرى (الأشباح الضاجة) البغيضة التي عايشتها في شقتي قبل أن أتعرض مع زوجتي لحادث السيارة إياه!!!.

جلست في غرفتي على الفراش.. وذهني مشغول تماما بما حدث.. أحاول أن أقنع نفسي أن سبب تلك الحادثة هو مشكلة في أنبوب الغاز أو الموقد نفسه!!!.. وقررت أن أتصل عند استيقاظي في الصباح بأحد الفنيين للتأكد من الموقد وتوصيلاته.. ثم.. قضيت ليلتي كلها على الفراش أتقلب

طوال الوقت وأفكر في حياتي بأكملها وفي مسلسل الرعب الذي خيم عليّ مؤخرا.. قبل أن أنام أخيرا.

في العاشرة من صباح اليوم التالي.. خرج الفني من المنزل ممتعضا وهو يؤكد أنه لا توجد أي مشكلة من أي نوع في الموقد أو في توصيلات أنبوب الغاز.. وأنه لا يوجد خلل ممكن أن يتسبب يوما بقذف الإبريق في وجه الناس!!!.. فنقدت الرجل ثمن حضوره.. وتركته يرحل وسط علامات الاستفهام التي خيمت على جميع أفراد الأسرة!!!.

وعموما أيضا.. فإن ما حدث لم يكن الأسوأ.. ففي اليوم التالي مباشرة.. كنت في الحمام أحلق ذقني وقد قمت بتشغيل الماء الساخن لملء حوض الاستحمام استعدادا لأخذ حمام بعد الحلاقة.. نعم.. أعشق الجلوس في حوض الاستحمام بعد ملئه بالماء.. إن هذا يغسل أعصابي من كل ضغوط الحياة.. وهي من لحظات الاسترخاء التي أعشقها بحق.

كانت الأمور تسير بصورة طبيعية.. عندما سمعت فجأة صوت جهاز التسجيل يرتفع شيئا فشيئا في غرفة النوم إلى أن صار صاخبا!!!.. و:

-إنها شقيقتي (......) دون شك.

هذا ما قلته لنفسي.. لكن.. من الغريب حقا أن تأتي شقيقتي إلى غرفتي وتقوم بتشغيل جهاز التسجيل ولم يفت على حادثة زوجتي سوى فترة قصيرة نسبيا وهي لا زالت حتى الآن بين الحياة والموت.. دعك من أن دخولها إلى غرفتي دون استئذان لهو أمر غير مألوف.. لكن.. تركت تساؤلاتي جانبا.. ورحت أكمل حلاقة ذقني.. قبل أن أشعر فجأة أن الحمام قد امتلأ تماما بالبخار بسبب المياه الساخنة التي راحت تصب في حوض الاستحمام بعد أن أغلقت فتحته بالسدادة.

توجهت ناحية الحوض بوجه مليء بمعجون الحلاقة.. محاولا أن أفتح صنبور الماء البارد لأوازنه بالساخن.. لكن.. الماء البارد لا يعمل.. إنه الماء الساخن فحسب.. والساخن جدا!!!.. لهذا أصبح الحمام مليئا بالبخار.. حتى بدا المكان وكأنه غرفة (سونا) حقيقية وجهاز بث البخار يعمل بأقصى طاقاته!!!.

إن هذا سيسبب لي الاختناق.. أحاول أن أغلق صنبور الماء الساخن.. لكن.. لا أستطيع.. المقبض ساخن جدا!!!.. أمسكت بالفوطة وقمت بلفّها حول يدي.. أحاول الآن أن أغلق صنبور الماء الساخن.. إنه عالق!!!.. ما الذي يحدث؟؟!!.. أحاول غلق الصنبور بكل قوتي.. والمياه الساخنة تخرج منه بكل قوتها أيضا وكأنه تحدٍ صريح وواضح!!!.. اللعنة.. المشكلة أن الحوض بدأ يمتلئ بالماء ولا أستطيع أن أضع يدي بطبيعة الحال في الماء الساخن لأفتح السدادة!!!.. سيفيض الحوض بعد دقائق قليلة بعد أن ملأت المياه ثلثيه تقريبا.

رحت أسعل بشدة بسبب البخار.. وتوجهت إلى باب الحمام لأهرب من هذا الجحيم.. و.. نعم.. تماما كما تتوقع يا (خالد).. الباب لا يفتح!!!.. لقد أتلف أحدهم القفل كما يبدو!!!.. سأفقد عقلي أو حياتي.. أيهما أسرع؟؟ !!.. أحدهم يرغب في قتلي.. هذا واضح ولا يحتاج إلى ذكاء!!!.

أمسكت بمقبض باب الحمام ورحت أحاول فتح القفل بكل قوتي.. ولكن.. البيت قديم نسبيا وكل مقابض الأبواب في البيوت القديمة تخرج في يدك إذا تعاملت معها بقسوة!!!.. لا زال الصوت الصاخب يخرج من المذياع أو من جهاز التسجيل.. ومن سخرية القدر أنها أغنية (عبدالله الرويشد) الحزينة (أحترق)!!!.. نعم.. سأحترق أو أختنق!!!.. لا أعلم.. لكن النهاية واحدة.. البخار

يتزايد حتى بت لا أرى يدي نفسها!!!.

رحت أصرخ بكل قوتي طالبا المساعدة.. يا إلهي.. المذياع.. هل سبب الصوت العالي هو محاولة لكتم صرخاتي كي لا يسمعها أحد؟ !!.. متى سينتبه أهلي أنني لست معتادا على رفع الصوت إلى هذه الدرجة ويأتون إلى هنا لإنقاذي؟!!!.

أصابني ذعر شديد.. ورحت أدق الباب مرة أخرى وأخرى دون فائدة.. شعرت بالدوران وكأنني سأفقد الوعي.. هل هي بداية الاختناق؟!.. لا أعلم.. إن حوض الاستحمام يكاد أن يفيض من المياه.. ثم.. تذكرت فجأة!!!.. النافذة الصغيرة في الحمام.. إنها ملاذي الوحيد.. توجهت إليها وأنا أسعل بقوة.. وفتحتها شاعرا أنني سأفقد الوعي بعد لحظات قليلة.. ثم وضعت وجهي في فتحتها التي بالكاد تتسع له.. وأخذت أعب الهواء كالمجنون وأنا أصرخ برعب هائل:

-أنقذوووووووووني.. النجدااااااااااااا..

لحسن الحظ أن نافذة الحمام قريبة من غرفة السائق الذي سمع صرخاتي وأبلغ جميع من في البيت.. ليتم إنقاذي بعدها بربع ساعة تقريبا.. بعد أن قام شقيقي بكسر الباب!!!.. وخرجت أخيرا من الحمام أمام جميع أفراد الأسرة مغطيا نصفي الأسفل بالفوطة.. ووجهي قد خلا تماما من الدماء من هول ما حدث!!.

كنت في أسوأ حال ممكن!!!.. ورحت أعب الهواء في جوفي بجشع غير مصدق أنني نجوت.. والجميع ينظرون إلي باستغراب بالغ ويسألونني بقلق عما دهاني.. لكني لم ألتفت إليهم.. بل رحت بالمقابل أصرخ في وجه شقيقتي التي دخلت غرفتي ورفعت صوت المذياع!!!.

إلا أنني خرست فجأة بسبب نظراتها المتسائلة التي توحي وبشكل واضح أنها لا تعرف ما أتحدث عنه.. وبعد أن أخبرني شقيقي أن الجميع كانوا متواجدين في الطابق الأرضي!!!.. في حين كانت الخادمة مع والدتي في المطبخ تعدّان العشاء.. أي أن أحدا لم يدخل غرفتي ليقوم بتشغيل جهاز التسجيل أو المذياع!!!.

وأمام هذا الجو المكهرب.. صرخت بغضب هائل وأنا أنتفض:

-من الذي فعل كل هذا إذاً؟!.. الأشباح؟!!.

قلتها وأنا أعلم في قرارة نفسي أن كلامي قد يكون صحيحا!!!..

سكت الجميع أمام صراخي.. وراحوا ينظرون إلي بأسى وتعاطف.. وينظرون إلى بعضهم نظرات من طراز:

- لن نلومه على شيء.. فزوجته بين الحياة والموت.. ومن الطبيعي أن يكون مضطربا عصبيا هكذا!!!.

لم أجد ما أقوله بعدها.. بل رحت أتساءل بقلق هائل عما يجري حولي!!.. بفعل من وكيف ولماذا يحدث لي ما يحدث؟؟!!.. لقد كاد إبريق الشاي أن يحرق وجهي بالأمس فحسب.. واليوم كدت أن أموت اختناقا في الحمام!!!.

هل هي (الأشباح الضاجة) التي تحدثنا عنها والتي فعلت كل ما يثير مخاوفنا في مسكننا السابق؟!!.. لكن.. هل تمتلك هذه الأشباح القدرة على اللحاق بي لأي مكان أذهب إليه؟ !!.. إنني مؤمن بوجودها الآن بعد أن رأيت كل شيء بنفسي!!!.. لكن.. لو كانت تملك القدرة على اللحاق بي أينما

كنت فهذا يعني أنني ضائع تماما الآن.. ومصيري بيدها فعليا!!!.. يا إلهي.. إنني لم أسمع بشيء كهذا من قبل.

ثم.. تنهدت بعمق مفرغا كل انفعالاتي.. واعتذرت من الجميع بكلمات مقتضبة متعللا بالضغوط النفسية التي أعانيها.. معلنا أنني سأتصل بفني الأدوات الصحية ليأتي ويعالج المشكلة.. قبل أن يخرجوا جميعا من غرفتي وهم يشعرون بالأسف لما يجري لي.. ظنا منهم أن ما جرى على الأرجح ليس سوى حادث منزلي من تلك التي تحدث في كل مكان.. وأنني قمت بتهويل الأمر بسبب الضغوط النفسية ذاتها!!.

قمت بعدها بارتداء ثيابي.. ونزلت إلى الطابق الأسفل لتناول العشاء بعد أن فقدت كل الرغبة بالخروج من البيت.. أخشى أن تلحق بي تلك الأشباح إلى السيارة وتتلف الفرامل مثلا!!!.. يبدو أنهم يملكون مصيري تماما!!!.

جلست مع أفراد العائلة نتناول وجبة العشاء وقد خيم الصمت تماما على المكان احتراما للظروف التي أمر بها دون شك.. كنت آكل بلا نفس وأفكر بما يحدث.. وما سيحدث!!!.. لم أعرف في حياتي أشياء كهذه.. هل هناك أشباح تريد قتلي؟ !!.. وهل الأشباح تقتل أصلا؟!.. لقد ظننت أن شقتي السابقة مسكونة.. ولم أكن واهما بالتأكيد.. فهذا ما رأته زوجتي وهذا ما رأته الخادمة أيضا.. ولكن.. هل انتقلت الأشباح معي إلى بيت العائلة؟ !!.. لو حدث هذا بالفعل.. فليس هناك سوى رحمة الله التي قد تنقذني.. إذ لا يوجد كائن بشري يستطيع إنقاذي.. إنني معرض للموت في أي لحظة؟!!.

ووسط هذه الأجواء المشحونة المكهربة.. تذكرت الفيلم الشهير (المحطة الأخيرة) (Final Destination) بجميع أجزائه!!!.. فما يحدث لي شبيه بما جرى لأبطال الفيلم.. إذ ينجو مجموعة من المراهقين من الموت المحقق.. لكن الموت يظل يطاردهم رغم ذلك في كل مكان إلى أن يحصدهم واحدا تلو الآخر!!!.

ولكن!!.. ماذا لو كان ما يحدث لي بفعل بشري؟ !!.. هل هناك أحد في البيت يريد قتلي؟ !!.. مستحيل.. الخادمة مثلا؟ !!.. إنها موجودة عندنا منذ سنوات.. لا يمكن أن تكون هي!!.. لا.. كل شيء يوحي بما هو خارج نطاق قدراتنا البشرية دون شك!!!.

على كل حال.. نجوت من حادثتين في ليلتين متتاليتين.. وهذا هو المهم الآن.. لكني لا أملك أي إجابات لما يحدث إن كنت تريد أن تسألني!!.. ولو جلبت (شيرلوك هولمز) نفسه وطلبت منه أن يجد حلا لكل هذا.. لما نبس ببنت شفة!!.

ارتديت ثيابي بعدها.. وخرجت من البيت مع شقيقتي متوجها إلى المستشفى لزيارة زوجتي وفي ذهني عشرات الخواطر والاضطرابات!!.. كم أكره أن أفعل هذا الآن.. لكني لم أزر زوجتي منذ يومين.. أخشى أن يبدأ أهلها بالكلام عن الزوج الوغد الذي ترك زوجته في غرفة العناية المركزة وانشغل وراء ملذات الحياة!!!.. ولا أنسى أن أذكر أنني خرجت مع شقيقتي الصغرى لأني لم أجرؤ على الخروج وحيدا خوفا أن تنفرد بي تلك (الأشياء) في السيارة وتتسبب في قتلي مثلا.. فكل ما تعرضت له قد تعرضت له وحيدا حتى الآن!!!.. هكذا كنت أفكر.

رحت طوال الطريق أفكر.. هل من الممكن أن يكون ما حدث لي أمس واليوم هو مجرد صدفة ؟؟.. هل قذف إبريق الشاي بوجهي بالصدفة؟ !!.. هل تعطل صنبور الماء البارد بالصدفة؟ !!.. هل تعطل قفل باب الحمام بالصدفة؟ !!.. هل ارتفع صوت المذياع في غرفتي بفعل الهواء مثلا؟

!!.. مستحيل!!!.. الأمر يتجاوز قوانين الصدفة بمراحل.. هناك من يرغب بقتلي!!!.. هناك من يريد موتي!!!.. هذا واضح.. ولكن من؟!.. من؟ !!.. لا أعلم.

زادت الأمور سوءا مع مرور الأيام القليلة التي تلت تلك الحادثة والتي قضيت فيها معظم الوقت في البيت!!!.. إذ راحت الأقلام تتدحرج من تلقاء نفسها على المكتب في غرفتي وفي الساعة الرابعة صباحا!!!.. المقعد الموجود في غرفتي يتحرك أيضا!!!.. وبعض التحف الصغيرة تعيد ترتيب نفسها!!.

ولا أنسى ذلك التمثال الصغير المصنوع من الفخار والذي قذف بوجهي فجأة لكني تجاوزته بمعجزة!!!.. الغريب أن كل هذا يحدث في غرفتي فقط عندما أكون وحيدا.. ولا يحدث في أي مكان آخر في البيت.. أو عندما أكون برفقة أحد.

الحقيقة أنني كنت أعيش أسوأ أيام حياتي بحق!!!.. وراحت عضلة ساقي ترتجف تلقائيا طوال الوقت وأنا أطرح نفس التساؤلات.. ما الذي يحدث حولي؟ !!..

لاحظ أن أحدا في البيت لم يشعر بأي شيء.. وأن تلك الظواهر الغريبة باتت تحدث حولي أنا تحديدا.. على عكس ما حدث في شقتي السابقة عندما شهدت زوجتي مع الخادمة كل شيء..

أنا على يقين الآن أنني لن أصاب بأي ضرر لو كنت برفقة أحد!!!.. وهذا ما جعلني بالفعل أقضي جُلّ وقتي مع أفراد العائلة.. فلا أخرج لوحدي إطلاقا.. وطلبت من شقيقي الأصغر أن أقضي الليلة في غرفته كوني أبحث عن الصحبة الآدمية بعد الحادث المخيف الذي تعرضت له مع زوجتي لأنني أشعر أنني لست على ما يرام.. أما السبب الحقيقي فهو كي لا تنفرد بي تلك (الأشياء) كما تعلم!!..

لقد أثار توتري المفاجئ هذا قلق الجميع.. لكني ظللت أعزو الأمر إلى حزني العميق لما حدث لزوجتي وإلى ذلك المنظر المخيف عندما رأيت زوجتي تحترق أمام عيني قبل أن أفقد وعيي!!!.

هل تعرف ما هي أكثر الأشياء إثارة للفزع يا (خالد)؟ ؟!.. أن تكون مهددا طوال الوقت ولا تعرف من أين ستأتيك الضربة!!.. أن تعرف أن عدوك هو شيء خارج نطاق قوانيننا البشرية.. فلا تستطيع الشرطة أو حتى الجيش أن يحميك منها!!!.. فكيف ستحمي نفسك حينها؟!!.

لقد وجدت حلا مؤقتا كما ترى.. بالتواجد طوال الوقت مع أفراد العائلة.. ولكن.. اللحظة التي سأكون فيها وحيدا قادمة دون شك!!!.. فحتى ذهابي للحمام أصبح مخاطرة غير محسوبة!!!.. لذا كنت أدخل الحمام وأقضي حاجتي بسرعة.. وأستحم بسرعة بعد أن تعمدت عدم إصلاح القفل.

وكما ترى أيضاً.. فقد انتهت الخصوصية تقريبا من حياتي.. وهذا عذاب في حد ذاته.. فالحياة التي لا يسمح لك فيها أن تكون وحيدا هي جحيم دون شك!!!.. أشعر أن مفردات القلق والتوتر والرعب قد صارت شيئا مألوفا في عالمي.. إلى حد أنني بت لا أفهم كيف يمارس الناس حياتهم دون رعب!!!.

أقول كلامي هذا قبل أن تتخذ الأمور منحنى جديدا ويبدأ اللغز ينكشف شيئا فشيئا!!.. كان هذا بعد بدء تلك الظواهر الغريبة بأسبوع تقريبا.. وقد شارفت إجازتي الطويلة من العمل على الانتهاء.. لا تسألني كيف سأذهب إلى العمل وحيدا في سيارتي.. إذ لم أفكر في هذا بعد!!!.

المهم أنني كنت في صالة المنزل نائما في قيلولة الظهر.. في حين تجلس والدتي مع شقيقاتي

يشاهدن التلفاز.. عندما شعرت بشيء غريب لم أشعر به من قبل.. ظننت في البداية أنني أحلم.. ظننت أنه كابوس.. لكن.. لا يمكن أن تستمر الكوابيس بعد استيقاظك!!!.. إذ شعرت بشيء ثقيل يجثم على جسدي ويمنعني من التنفس!!!.. حتى شعرت باختناق حقيقي.. ونهضت صارخا مترنحا من مكاني وسط نظرات الجميع!!.. حينها فقط شعرت أنني أتنفس مرة أخرى.. ورحت أعب الهواء في جوفي بقوة في منظر شبيه بما حدث لي في تلك الليلة عند خروجي من الحمام.. ما الذي يحدث لي؟ ؟!.. هل.. هل هو الجاثوم كما يطلقون عليه؟ !!.. إنني لم أمر بتجربة كهذه من قبل!!.

التف الجميع حولي يسألونني بقلق هائل عما دهاني.. فنظرت إليهم برعب.. ثم تمالكت نفسي شيئا فشيئا.. وأخبرتهم أنني مررت بحلم مزعج فحسب!!!.. وجلست بعدها على الأرض وسط نظرات القلق والترقب التي أحاطوني بها.

مهلا.. هل تعرف أولا ما هو الجاثوم يا (خالد)؟ !!.. يفسره العامة بأنه جني يجثم على صدر الإنسان أثناء نومه!!!.. لكن هذا ليس صحيحا.. فالعلم يفسره بما يطلق عليه اسم (شلل النوم)!!!.. ففي أعمق مراحل النوم.. يشعر المرء أحيانا وكأن شيئا ما يجثم على صدره.. مما يجعله غير قادر على الحركة ويشعر بضيق شديد في التنفس.. ولأن في فترة النوم العميق يكون الجسم غير متصل تماما بالدماغ.. فيعطي هذا شعوراً بالشلل!!!.. ويقول أهل الاختصاص أن (شلل النوم) يحدث للأشخاص الذين يعانون من نقص النوم.. أو الإرهاق.. أو التوتر ([28]).. وهذا يبشر بالخير كما ترى.. فهناك تفسير علمي على الأقل هذه المرة لما حدث لي!!!.

ظللت جالسا في صالة المنزل.. وقد غرقت تماما في الخواطر السوداء.. قبل أن أشعر بوميض غريب بجانبي!!!.. التفت برعب.. ثم.. آه.. إنها ابنة شقيقتي التي بلغت عامها الأول منذ أسابيع قليلة فحسب.

كانت ممسكة بكاميرا والدها الرقمية وتلتقط صورا عشوائية!!!.. ففي كل مرة تومض الكاميرا.. تجدها تضحك ببراءة تسحر القلوب.. فنبتسم جميعا لما يحدث.. قبل أن تفعل ما يفعله كل طفل في العالم!!!.. عندما وضعت الكاميرا في فمها.. لأنهض من مكاني مبتسما.. وأمسك بالكاميرا كي لا تتلفها بلعابها.. وسط احتجاجها الطفولي البريء!!!..

فربت على رأسها وقبلتها بحنان.. ثم رحت أنظر إلى الصور التي التقطتها وأنا أبتسم لهذه البراءة البعيدة عن الحياة السوداء التي أعيشها.. هذه صورة لبقايا طعام الغداء.. وهذه صورة للهواء.. وهذه.. وهذه.. وهذه.. لم أتمكن من التفكير.. فقد احتقن وجهي فجأة!!!.. وبشكل واضح أثار استغراب الجميع!!!.. وبدا أن وجهي قد خلا من الدماء تماما!!!.. لا.. شيء كهذا لا يمكن أن يحدث.. إنه أقسى من أن يحدث!!!.

رحت أنظر إلى تلك الصورة بعينين متسعتين على آخرهما!!!.. والجميع يسألني بدهشة بالغة عما دهاني.. لكني لم أرد.. بل أخذت الكاميرا معي إلى غرفتي غير مكترث بما سيحدث لي لو جلست فيها وحيدا!!!.. لم تكن شجاعة مني.. بل هو يقين في هذه اللحظة أن الأمر يفوق كل المقاييس المادية المتعلقة بالهرب والاختباء.. وأن لا أحد يستطيع حمايتي من تلك الأشياء!!!.

دخلت غرفتي بعد أن طلبت من الجميع أن يتركوني لوحدي قليلا وألا يتبعني أحد.. ثم.. رحت أحدق بالصورة مرة أخرى وأخرى وقلبي يضخ أنهارا من الدماء.. هذه الصورة اللعينة!!!!.. لقد التقطتها لي ابنة شقيقتي بصورة عشوائية أثناء نومي.. لكن.. لكن.. نعم.. تماما كما تظن.. إنني

لست وحيدا في الصورة.. هناك شيء آخر يقف فوق صدري أثناء نومي!!!.. إنك لم تخطىء قراءة الجملة!!!.. هناك مسخ بشري مخيف بشع.. وكأنه آدمي تعرض للاحتراق بالكامل.. وقد بدا شكله شيطانيا إلى حد لا يوصف.. هل.. هل ألمح ابتسامة.. أو نظرة غضب؟ !!.. لا.. إنها ضحكة.. ذلك الوجه البشع المشوه يضحك تلك الضحكة المنذرة بالويل وهو يقف على صدري!!.

إنني أتحدث عن زوجتي.. نعم.. هذا ما أقصده تماما يا (خالد).. إنني أرى الصورة العشوائية التي التقطتها لي ابنة شقيقتي أثناء نومي.. وهناك مسخ بشري مخيف يقف فوق صدري!!!.. وهو ما ظننته (الجاثوم)!!!.. لكن اتضح أن هذا المسخ هو زوجتي بكل تأكيد!!!.

لست مجنونا.. فأنا أرى هذا بنفسي.. وملامح زوجتي البشعة محفورة في ذهني.. إنها هي.. هي دون شك.

ماذا؟ !!.. لا تصدقني؟ !!.. لا ألومك كثيرا على كل حال.. فليس من رأى كمن سمع أو قرأ!!!.. وأنا نفسي لم أكن لأصدق لو لم أرَ تلك الصورة بنفسي.

رحت أنظر إلى الصورة مشدوها وقد تحولت إلى تمثال مجسد للرعب!!!.. أبحث بضياع عن تفسير لما أراه.. كيف أفسر هذا؟ !!.. كيف؟!!.

راحت الأفكار تتوالى في ذهني محاولا إيجاد حل لكل هذا الغموض!!.. ورحت أتساءل بذعر.. ترى.. هل توفيت زوجتي وتحولت إلى شبح مثلا؟ ؟!.. لا أعلم.. ولكن.. لم يخبرني أحد بوفاتها.. إنها لا زالت في تلك الغيبوبة اللعينة!!!.

أمسكت بهاتفي النقال واتصلت بالمستشفى سائلا عن حالة زوجتي.. و.. كل شيء كما هو.. إنها لا تزال في غيبوبتها في غرفة العناية المركزة!!!.. هذا لن يكفي.. لا بد من زيارتها بنفسي.. لا بد أن أتأكد من وجودها هناك قبل أن أجن!!!.

خرجت من غرفتي بسرعة.. وطلبت من شقيقتي أن تستعد لتخرج معي الآن!!!.. ورجوتها أن تفعل ذلك بسرعة وسط نظراتها المتسائلة!!!.. لن أنتظر يوما واحدا بعد هذا الاكتشاف المخيف..

هرعت شقيقتي مسرعة لارتداء ثيابها وعلامات الاستغراب لا تخلو من ملامحها بسبب لهفتي الغريبة!!!..

ورحت أثناء انتظارها أفكر بقلق شديد.. إن زوجتي إذاً هي وراء كل ما يحدث لي من ظواهر غريبة؟ !!.. ولكن.. هذا لا يفسر كيفية حدوث تلك الظواهر في شقتنا أيضا قبل أن نتعرض لذلك الحادث المروري؟ !!.. لا أعلم.. حقا لا أعلم.

يا إلهي.. إن كلامي هذا يعني أن طاقة زوجتي.. أو روحها.. أو قوتها النفسية.. أو أي ما كان اسمها قريبة جدا مني الآن.. وتريد قتلي!!!.. هذا واضح!!!.. إنها السبب دون شك في كل ما حدث لي في الأيام الماضية أيضا.

توجهنا إلى المستشفى مسرعين.. ودخلنا المكان الذي أصبحت أهابه أكثر من أي شيء آخر في العالم.. غرفة العناية المركزة..

لأجد زوج.. أعني.. ذلك المخلوق البشع يرقد على الفراش غائبا في عالم آخر!!!.. ما هذا اللغز الذي يجري حولي يا ناس؟!!.

ذهبت إلى غرفة الطبيب.. وطلبت من شقيقتي أن تنتظر في الخارج.. كان التوتر الشديد باديا على

كل ذرّة من ملامحي.. فابتسم الطبيب مشفقا وهو يقول:

-كان الله في عونك.. إن وضع زوجتك صعب للغاية.. ولكن.. لا تيأس من رحمة الله!!!.

سألته بذعر واضح دون أن أعلّق على كلامه:

-دكتور.. هل يوجد أي شيء غير عادي يخص زوجتي؟ !!.. أخبرني أرجوك!!.

هز رأسه نفيا ثم قال:

-إن حالتها صعبة.. وقد أخبرناك بذلك.. الأمر بيد الله الآن.. وليس بيدنا ما نفعله!!!.

مسحت وجهي بيدي وكأنني أمسح ملامحي نفسها!!!.. وبدا في كلامي التالي نفاد صبر يوشك على أن يستحيل صراخا:

-لا أتحدث عن حالتها الصحية يا دكتور.. بل عن أي شيء آخر غير عادي.. هل لاحظت أي شيء غير عادي على حالتها؟!!.

كاد أن يهز رأسه نفيا مرة أخرى.. ثم.. يبدو أنه تذكر فجأة.. فتحفزت حواسي وأنا أسمعه يقول بعينين متسعتين:

-نعم.. نعم.. هناك شيء غير عادي بالفعل!!!.. جهاز تخطيط المخ الكهربائي أعطانا نتائج غريبة للغاية!!!.. كان هذا قبل ساعتين تقريبا.. إذ راح الورق يتدفق منه.. ووقفت مع الممرضات نراقب ونقرأ نتائج التخطيط في توتر.. إذ كانت النتائج توحي أن هذه المرأة تفكر!!!.. وهذا مستحيل على حد علمي.. فأنا لم أرَ حالة غيبوبة كهذه من قبل!!!.

سألته بذعر:

-ما الذي يعنيه هذا؟!!.

رد باستغراب:

-لا أعلم.. نحن لا نعرف أي شيء عن الغيبوبة.. ولا نعرف أين يكون عندها عقل الإنسان.. إنه عالم مجهول يقع ما بين اليقظة والموت.. هذا كل ما أستطيع قوله!!!.

نظرت إليه بقلق هائل دون رد.. زوجتي الآن غائبة في عالم آخر لا نعرف مقاييسه ولا ما يحدث فيه.. لكنها تتحكم بكل قواعده كما هو واضح!!.. وليس بيدنا سوى أن نقف ونراقب وجهها الساكن المخيف.. يا إلهي.. بت أخشاها أكثر من أي مرة.. أشعر أنها تعرف ما لا نعرف!!.

مرت تلك الخواطر في ذهني بسرعة البرق.. قبل أن أسأل الطبيب وكأنني أحاول أن ألقي بطوق النجاة الأخير:

-ربما هي تحلم.. هل مرضى الغيبوبة يعيشون حلما طويلا مثلا؟!.

رد باهتمام مشابه:

-لا أعلم.. الأمر لغز كبير.. لكن هناك فرعا كاملا من علوم الماورائيات يدعى (تجربة الدنو من الموت) (NDE) ([29]).. والذين عادوا منه يحكون قصصا بالغة الغرابة.. ثمة ما يدعو للاعتقاد أن الواقعين في الغيبوبة العميقة أو موت الدماغ يمرون بحالة طويلة من ال(NDE).. لكن لا يوجد شيء مؤكد.. أما إن كنت تقصد أن تخطيط المخ الذي حصلنا عليه سببه هو أحلام زوجتك..

فالإجابة هي لا.. هذه النتائج تؤكد أن زوجتك تفكر فعليا!!!!.. ولا تعيش حلما فحسب.. ولا أجد في الواقع تفسيرا لهذا.. سنظل نراقب حالتها علنا نعرف!!.

نظرت إليه طويلا دون رد.. ثم سألني:

- مهلا.. إنك لم تخبرني.. كيف عرفت؟ !!.. كيف عرفت أن شيئا غير عادي قد حدث لزوجتك؟!!.

هززت رأسي وأنا أقول بتخاذل:

-لم أعرف شيئا.. كان مجرد سؤال!!!.

قلت هذا ثم تركت الطبيب وسط نظراته المتسائلة.. لقد بدا واضحا أنه لم يقتنع بكلامي.. لكني لم أكترث في واقع الأمر..

خرجت بعدها مع شقيقتي متجهين إلى البيت شاعرا بأنني فأر وقع في مصيدة.. وراحت الخواطر تتقاذف في ذهني.. وعشرات التساؤلات تطرح نفسها بقوة دون إجابة.. ووسط السكون المخيم في السيارة وعدم رغبتي في الحديث مع أحد.. راحت شقيقتي تسألني عما حل بي.. وتخبرني أن ما حدث ليس نهاية العالم.. وأنني يجب أن أكون أقوى.. فأنا لست أول ولا آخر رجل يفقد زوجته!!.

لكني طلبت منها برجاء بالغ أن تصمت وتتركني أفكر.. أحتاج إلى التفكير العميق.. أحتاج أن يتركني الناس أفكر بعض الوقت فحسب!!!..

وهكذا ظللنا صامتين إلى أن وصلنا إلى البيت.. حيث ذهبت إلى غرفتي مستسلما عالما أنني قد أفقد حياتي في أي لحظة.. وجلست ممسكا بورقة وقلم.. ورحت بعدها أكتب كل تفاصيل تلك القصة الغريبة آملا أن أجد تفسيرا لما يحدث!!!!.. لست وحدك من يفعل هذا يا (خالد).. إنني ألجأ كثيرا إلى الورقة والقلم كي أرتب أفكاري.. من الغريب حقا أنك عندما تخط أفكارك على الورق.. تصبح الأمور أكثر وضوحا.. وتكتشف أن الحقيقة كانت حولك طوال الوقت دون أن تنتبه!!!.. نعم.. هذا تماما ما حدث معي!!!.. لن أقول أنني أعتبر نفسي عبقرياً بكلامي هذا.. إنما أنا مجرد شخص يعرف كيف يستحضر المعلومة في الوقت المناسب.. فعندما قمت بترتيب أفكاري مع بعض المعلومات التي استذكرتها.. بدأت أفهم ما يحدث حولي.. ماذا أعني بهذا الكلام؟ !!.. فلنتابع.

لقد بدأ كل شيء في شقتنا السابقة.. إذ راحت الأشياء تتحرك حولنا كما علمنا.. ثم تعرضت مع زوجتي لذلك الحادث.. وقد احترق جسدها بالكامل ونجت بأعجوبة.. هذا إن كان ما حدث لها يستحق أن نطلق عليه (نجاة) أصلا!!!..

ثم.. بدأت أتعرض بعدها لحوادث غريبة في البيت كان الهدف منها إلحاق الضرر بي فحسب.. أو ربما قتلي!!.. وبعد كل هذا.. وجدت صورة لشبح زوجتي وهي تقف فوق صدري أثناء نومي!!!.. تماما كما يفعل (الجاثوم).. علما بأنني لم أقرأ من قبل أن هناك أشباح للأحياء!!!!.. فزوجتي لم تمت حتى الآن رغم كل شيء.. ثم.. هناك النشاط العقلي الذي لاحظه الطبيب كما يقول.. كل هذه الحقائق تؤدي إلى استنتاجات مترابطة واضحة.. نعم.. إننا نقترب من نهاية القصة.. ولكن.. قبل أن أبدأ بطرح استنتاجي.. يجب أن أعترف لك بأمر خطير للغاية!!!.. أرجوك أن تقرأ السطور التالية بدقة.. لأنها ستكشف لك الكثير.

دعني أولا أسترجع معك لحظات الحادث المروري الذي تعرضت له مع زوجتي.. عندما رأيتها منكمشة في المقعد الأمامي تنظر إلي برعب حقيقي دون أن تنطق بحرف.. هل تذكر عندما أخبرتك بأنني نظرت حينها إلى الشارع باحثا عن مساعدة ولم أجد أحداً حولي؟ !!.. هل تذكر حين شممت رائحة البنزين الذي كان ينتشر بقوة حول السيارة ويقترب من زوجتي!!!.. بالمناسبة.. هناك شيء لم أخبرك به.. إنني أدخن بشراهة.. وقد كانت الولاعة في جيبي حينها!!!..

صدقني.. صدقني.. لا أعرف كيف جرؤت على فعلها يا (خالد).. نعم.. إنها واحدة من تلك اللحظات المجنونة التي ترتكب فيها عملا أخرق دون تفكير في العواقب!!!.. صوت حشرجة زوجتي في السيارة وهي عاجزة عن الحركة.. صمت رهيب يغمر المكان سوى من الأمطار!!!.. أنظر إلى زوجتي وقد تذكرت شجارنا الدائم.. وتذكرت حياتي قبل الزواج.. ورائحة البنزين تخترق أنفي بقوة..

لقد بدت لي حينها فرصة ذهبية لن تتكرر!!!.. ثم.. أشعلت القداحة.. ولامست النار السائل المتناثر على الأرض.. ورحت أنظر بعدها برعب إلى ذلك الخيط الذي يزحف بإصرار وينتشر بقوة رغم الأمطار!!!.. ليلتف حول زوجتي وسط صراخها اليائس غير مصدقة ما أقوم به.

نعم يا (خالد).. لقد فعلتها!!!.. لقد حاولت قتل زوجتي حرقا.. لا.. لم أحاول.. بل قتلتها فعليا على اعتبار أنها تحتاج إلى معجزة كي تنجو.. لهذا فقدت وعيي.. إذ لم أحتمل رؤية زوجتي وهي تحترق بهذه الصورة.. فلست قاتلا محترفا يا (خالد)؟ !!.. لا أستطيع أن أرتكب جريمة قتل بدم بارد.

أكاد أسمعك تقول أنني مجرم حقير وقاتل ونذل و.. إلخ من قاموس الشتائم والاتهامات.. وأنا أعلم جيدا أنني كذلك.. لكن.. صدقني لست قاتلا بالفطرة!!!.. أحيانا نرتكب حماقات لا نصدق أننا نفعلها حين نجلس ونأخذ وقتنا في التفكير..

نعم.. هذا هو سري الصغير.. وهذا ما يفسر محاولات زوجتي لقتلي!!!.. إن الصورة التي التقطتها لي ابنة شقيقتي بالصدفة قد قلبت الأمور رأسا على عقب.. وكشفت لي كل تفاصيل هذه القصة العجيبة.. إنني واثق من ذلك الآن بعد أن وضعت كل المعطيات التي أمامي على الورق.. وبعد أن فكرت جيدا بما حدث.

بالمناسبة.. هل سمعت من قبل عن ما يطلق عليه اسم (التحريك عن بعد) أو (Psychokinesis)؟ ؟!.. إنها واحدة من ظواهر (الميتافيزيقيا).. وتعني -كما هو واضح من الاسم -تحريك الأشياء باستخدام العقل فقط!!!..

نعم.. فهناك قصص كثيرة تتحدث عن تلك الظاهرة ومدونة في كل الكتب التي تتحدث عن الأشباح الضاجة تقريبا.. إذ يرى عدد لا بأس به من الخبراء أنه لا وجود في واقع الأمر لتلك النوعية من الأشباح.. إنما ما يحدث هو عملية (تحريك عن بعد) لا إرادية!!!.. أي أن هناك بشرا يمتلكون موهبة (التحريك عن بعد) ويمارسونها دون علم منهم ([30])!!!.

فترى الواحد منهم يراقب الأشياء تتحرك في كل مكان والأطباق تعلو والتلفاز يغلق من تلقاء نفسه ولا يعرف أنه هو من يفعل كل هذا في واقـع الأمـر!!!.. ويقال أن هذه الموهبة كانت موجودة لدي كل إنسان لكنها ضمرت وغطتها الحضارة بطلائها الأنيق ([31])!!!.. علما بأن التحريك عن بعد يشمل الأجسام الصغيرة فقط.. فلا يمكن أن يقوم من يمتلك هذه المقدرة بتحريك سيارة

مثلا ([32])!!!..

يقال أن هناك عدداً قليلاً من الناس لا زالوا يمتلكون هذه الموهبة.. لكنهم لا يعلنون عن أنفسهم أبدا حتى لا يخافهم الآخرون.. إنهم يفضلون إخفاء موهبة كهذه مقابل أن يندمجوا في عالم البشر.. أما الذين يتفاخرون في كل صوب بموهبتهم ويعرضونها على المسارح وفي الملاهي الليلية فهم على الأرجح مجرد نصابين.

إن التحريك عن بعد هو لمعجزة صغيرة بحق.. ولو امتلكناها لامتلكنا قوة لا تصدق.. لهذا غاصت الحكومة السوفيتية حتى الأذنين في هذه البحوث أيام الحرب الباردة.. دون أن يعرف أحد ما توصلوا إليه بالضبط ([33]).

ما يهم في هذا الكلام هو زوجتي.. إذ أن التفسير الوحيد يقول إنها من الذين يمتلكون تلك الموهبة بالفعل.. تسألني لماذا لم تحدث تلك الأشياء منذ بداية زواجنا؟ !!.. تسألني لماذا انتظرت تلك المقدرة طوال هذه السنوات كي تخرج من زوجتي فجأة بعد سنتين من زواجنا؟ ؟!.. لا أعلم.. لا أحد يملك جوابا لهذه التساؤلات.. ربما لأن هذه الطاقة تتفجر في عقل الإنسان في أي وقت وبدون موعد مسبق.. ويبدو أن هذا ما حدث مع زوجتي بالفعل!!!.

لقد قرأت من قبل مقالة طويلة عن تلك الأمور.. لكني لم أدقق في كل ما فيها من معلومات!!.. إذ كان كلاما مملا إلى حد ما رغم أنه شديد الأهمية كما هو واضح الآن.. ولكن.. يبدو أن كل شيء مهم في هذا العالم ممل!!!.

هناك مشكلة حقيقية في تفسيري هذا.. فمن أبسط قواعد (التحريك عن بعد) هو أن الشخص الذي يمارسه -بعلم أو بدون علم -لا بد أن يكون قادرا على رؤية الجسم الذي يقوم بتحريكه.. فكيف فعلتها زوجتي وهي نائمة في شقتنا السابقة.. وكيف فعلتها وهي غائبة عن الوعي؟!!!.. لا أدري.. يبدو أن القوى النفسية لغز حقيقي بحق..

ويبدو أيضا أن وحشا كان يحاول التحرر من داخل عقل زوجتي وها قد فعلها!!!.. ربما في عالم الغيبوبة الغامض الذي تعيشه يكون عقلها أكثر شفافية.. وهذا يفسر كيف استخدمت التحريك عن بعد في كل مكان وكيف لاحقتني إلى بيت العائلة وحاولت الانتقام مني!!!.

لقد بدأت أمسك بأسرار هذه القصة شيئا فشيئا.. نعم.. ففي شقتنا السابقة.. كل ما حدث هو بسبب قدرة (التحريك عن بعد) التي تفجرت عند زوجتي فجأة.. ربما غضبها بسبب شجارنا الدائم قد أيقظ الموهبة في عقلها وجعلها تحرك الأشياء دون أن تعلم.. فظننا أن ما يحدث هو من فعل الأشباح الضاجة!!!.. لكني لم أعرف هذه الحقيقة حينها.. و.. عندما حاولت قتل زوجتي -وقد نجحت في هذا تقريبا-أرادت أن تنتقم مني بواسطة عقلها الباطن.. هل موهبة زوجتي هذه عابرة للقارات مثلا؟!.. يبدو التعبير مضحك بحق.. ولكن أعتقد أن موهبة زوجتي كذلك بالفعل!!!..

ولا أعتقد أنها قد تمكنت من التحكم بشكل كامل في موهبتها حتى الآن.. يبدو لي أنها تحاول اكتشاف المزيد عنها وتدرسها في عقلها بعد وقوعها في تلك الغيبوبة.. لعل هذا يفسر عدم إصابتها لي بضربة مميتة.. إنها لا زالت تكتشف مقدرتها وستصل بها إلى درجة الإتقان دون شك.. عندها ستنفذ انتقامها.. أو ربما تريد أن تتلاعب بي فحسب لتدمر حياتي وتقودني إلى حافة الجنون.. لا أعلم.. جميع الاحتمالات واردة كما ترى!!!.

لم أكن لأصل إلى كل هذه الاستنتاجات لو لم أرَ زوجتي في تلك الصورة وهي واقفة بثبات فوق صدري محاولة خنقي أثناء نومي.. تريد أن تسألني مرة أخرى.. كيف استخدمت زوجتي مقدرة (التحريك عن بعد) لتأتي إلي ب(روحها) أو (وعيها) أو (طاقتها النفسية) وتقف على صدري؟! !!.. لا أعلم يا (خالد).. هذا لغز لن أجد إجابته أبدا على الأرجح..

كنت أشعر بقلق بالغ ورعب حقيقي وأنا أخرج بهذه الاستنتاجات.. وقد وصلت إلى نتيجة واحدة وحل واحد لكل ما يحدث.. يجب أن أكمل ما بدأته!!!.. نعم.. يجب أن تموت زوجتي فعليا الآن.. لأنني سأكون مهدداً طالما هي على قيد الحياة وواقعة في تلك الغيبوبة اللعينة!!.. ولكن كيف سأقتلها؟ !!.. هل أحاول أخذها إلى أوروبا لقتلها هناك مثلا؟ ؟!.. أو ما يطلق عليه اسم: القتل الرحيم ([34])؟ ؟!..

إنني لا أملك المال لتحمل تكاليف السفر تحت رعاية طبية متخصصة.. ثم أن جميع أفراد عائلتي وعائلتها سيعرفون!!!.. وسأكون مجرما أمامهم.. دعك من أن زوجتي -وبواسطة التحريك عن بعد أيضا-قد تفعل كل شيء لتمنعني من أخذها إلى أوروبا!!!.. هذا الحل ليس عمليا على الإطلاق..

قضيت بعدها ساعات طويلة أفكر بما سأفعله بعد أن انتقلت لقضاء الليلة في غرفة شقيقي.. فأنا لا أجرؤ على النوم وحيدا كما تعلم..

وهناك.. ظللت ساهرا أفكر حتى ساعات الفجر الأولى.. قبل أن أصل إلى فكرة مهيبة لا تخلو من المخاطرة.. نعم.. إنها أسهل الحلول.. أتحدث بالطبع عن إيقاف جهاز التنفس حتى تموت زوجتي.. ومن ثم تشغيله مرة أخرى ليظن الجميع أن وفاتها كانت طبيعية.. خاصة وأن الجميع يتوقع موتها في أي لحظة!!!.. هذا هو الحل الوحيد..

أفكر بهذا وأنا مستيقظ كالصقر رغم الإرهاق الشديد.. فحتى النوم أصبح مخيفا بعد ما حدث في الأمس!!!..

و.. حسمت أمري بالفعل.. إذ نهضت من الفراش والساعة لم تتجاوز الثالثة فجرا.. فأبدلت ثيابي وخرجت من البيت آملا ألا تكون زوجتي قد قرأت أفكاري.. لا أعرف إن كانت قادرة على هذا أصلا!!!.. وآملا أيضا ألا تكون هناك وسيلة قتل جديدة تنتظرني..

أقول هذا الكلام وأنا ألتفت يمينا ويسارا طوال الوقت خوفا أن أفاجأ بشيء يقذف في وجهي.. أو ثرية تقع على رأسي.. لك أن تتخيل صعوبة الموقف!!.

توجهت بعدها مشيا إلى (السوق المركزي) في ساعة متأخرة من الليل.. فلا أجرؤ على ركوب سيارة بعد كل ما حدث.. الغريب أنني ظللت ساهرا حتى تلك اللحظة دون أن أشعر بالنوم.. فالتوتر كان أقوى من أي شعور آخر!!!.. لكني سأنام ملء جفوني حالما تنتهي تلك الأحداث على خير!!.

وصلت أخيرا إلى (السوق المركزي) الذي يفتح 24 ساعة.. ومن هناك طلبت سيارة أجرة.. أنت تعلم أن زوجتي لا تفعل شيئا عندما أكون برفقة آخرين.. فهي تريد أن تنتقم مني وحدي.. هذا واضح!!!.. لماذا توجهت إلى السوق المركزي لطلب سيارة أجرة؟!.. ربما لكي أبعد الشبهات تماما عن نفسي إذا ما ظن أحد أن هناك شبهة جنائية وراء موت زوجتي.. فلو أجرت الشرطة تحقيقا من أي نوع.. سيظنون أنني كنت في البيت لحظة وفاة زوجتي.

و.. بعد أقل من ساعة.. كنت في المستشفى.. حيث تسللت إلى الداخل بعد أن دفعت بقشيشا لا بأس به لأحد عمال النظافة كي يقودني إلى غرفة العناية المركزة من الباب الخلفي.. لأجد نفسي

أخيرا في الغرفة وحيدا.. أنظر بقلق إلى زوجتي وقد بدت كأبشع مخلوق عرفته في حياتي!!!.

سكون تام يخيم على المكان.. سوى من صوت جهاز التنفس الصناعي.. ورائحة الدواء التي أكرهها أكثر من أي شيء آخر.. وصوت الجهاز الذي يسجل ضربات القلب..

أنظر إلى زوجتي بتوتر هائل.. وأراها تلهث بشكل غريب.. صدرها تحت الأقمشة يعلو ويهبط!!!.. سأقتلها الآن.. لكن.. لا يمكنني أن أفعل هذا بدم بارد.. إنني أشعر بتوتر شديد.. ثم.. أمسكت بأنبوب التنفس بيد مرتجفة.. لأفصله عن الجهاز أخيرا!!!. و.. أنت تعرف تلك اللحظات التي تتكرر في كل زمان ومكان.. عندما ترتكب خطأ أو جريمة ما.. ويراك أحدهم أثناء ارتكابك للخطأ!!!.. ذلك العامل اللعين.. هل أخذ مني المال وأوصلني إلى هنا ثم أبلغ عني إدارة المستشفى؟ !!.. لا أعتقد.. إن هذا سيدينه هو أيضا دون شك.. يبدو أنه الحظ السيئ فحسب!!!!.

فعندما أمسكت بأنبوب التنفس وفصلته عن الجهاز.. شعرت للحظة أنني نجحت في مهمتي بالفعل.. ولكن.. وثبت مترين إلى الوراء عندما سمعت فجأة صوتا يأتي من خلفي ويقول بفزع:

- What are you doing?

التفت حولي برعب هائل ويدي الممسكة بأنبوب التنفس قد تيبست تماما.. وإذا بها الممرضة الآسيوية تنظر إلي بعينين متسعتين غير مصدقة أنني أرتكب جريمة قتل في المستشفى!!!..

راحت الممرضة تصرخ وتوقظ الشياطين نفسها.. حتى أنني تجمدت في مكاني قبل أن تمتلئ الغرفة بسرعة البرق بالممرضين والممرضات وقد بدوت لهم وكأنني فأر وقع في المصيدة!!!.

كما ترى.. كنت في موقف عبقري يعطي أي شرطي في العالم الحق باعتقالي.. لقد تسللت إلى غرفة العناية المركزة بكل وضوح وحاولت قتل زوجتي.. بل وقتلتها فعليا بعد أن فصلت عنها جهاز التنفس!!!.. عالما أنه لن ينفع أي عذر الآن.. فالمشهد بليغ بما فيه الكفاية.. دعك من أن الموتى دائما على حق.. ولن تنفع تبريراتي مهما فعلت!!.

وعند هذه النقطة تحديدا.. انهرت تماما.. ورحت أصرخ وأخبر الجميع أن زوجتي كانت تريد قتلي.. وأنني فعلت كل ما فعلته وقتلتها دفاعا عن نفسي فحسب!!!.. ظللت أردد هذا الكلام حتى بعد أن تم القبض علي والتحقيق معي..

ولكن.. أنت تعلم أن كلامي عن (التحريك عن بعد) لن تقبل به أي محكمة.. ولن يقبل أي قاض حتى بالاستماع إليه!!!.. لكني ظللت مصرا عليه.. فهذا ما حدث بالفعل.. وقد أقسمت أمام المحقق والقاضي أنني كنت أنقذ نفسي فحسب.. وأن زوجتي تريد قتلي بواسطة مقدرة (التحريك عن بعد) التي تمتلكها..

بالطبع لم أخبرهم أنني أنا أيضا من قمت بحرق زوجتي أساسا في الحادث.. فهذا الكلام لم يعد يفيد أحداً.. لقد قتلت زوجتي وهذا أهم ما بالأمر.. حيث وقعت في قبضة العدالة هذه المرة.. جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد كما يقول أهل القانون!!!.

أما أفراد عائلتي.. فقد راحوا ينظرون إلي بدورهم بأسى وتعاطف واضح.. وكأنهم ينظرون إلى شخص فقد عقله.. في حين ينظر إلي أفراد عائلة زوجتي بحقد شديد لأنني قتلت ابنتهم.. ترى ماذا سيفعلون لو علموا أنني تسببت بكل شيء تقريبا منذ البداية؟؟!.

لا أنسى أنني توسلت للجميع أن يأتوا بالكاميرا الموجودة في غرفتي.. والتي تحوي صورة زوجتي وهي تحاول قتلي.. إن هذا دليلا لا شك فيه على صدق كلامي كما تعلم.. ولكن:

-لقد وجدنا الكاميرا في غرفتك محطمة وقد تلفت الذاكرة الإلكترونية تماما.

هذا ما قالته شقيقتي!!!.. عندها فقط.. بدا لي تفسير كل شيء شديد الوضوح..

لقد انتقمت زوجتي مني خير انتقام!!!.. ونفذت كل ما أرادته.. يبدو أنها في البداية كانت تريد قتلي والانتقام مما فعلته بها.. لكن يبدو أيضا أنها غيرت رأيها بعد ذلك.. إذ أرادت مني أن أقتلها كي تتخلص من العذاب الذي تعيشه ومن حالتها الميؤوس منها.. لكنها قبل ذلك.. حطمت الكاميرا كي لا أملك أي دليل على كلامي.. دعك طبعا من التساؤل الذي يطرح نفسه بقوة.. إذ لا زلت عاجزا عن فهم كيفية وصول تلك الممرضة إلى غرفة العناية المركزة لحظة انتزاعي لأنبوب التنفس.. ترى.. هل فعلت زوجتي شيئا لأقع بهذه الطريقة وينكشف أمري؟ !!.. أم أن الأمر لا يتجاوز واحدة من تلك الصدف التي تحدث بين الحين والآخر؟! !!.. هذا سؤال آخر لن أعرف إجابته على الأرجح.

و.. بعد شهور من المحاكمة.. وأمام إصراري الشديد وتمسكي بقصتي.. حكم علي القاضي أخيرا بإحالتي إلى مستشفى الطب النفسي بسبب حالتي العقلية التي رأى أنها ليست مستقرة.. خاصة بعد أن أخذ رأي أكثر من طبيب نفسي.. ورجح معظمهم أنني قد أكون مصابا بلوثة عقلية بسبب ذلك الحادث المروري اللعين الذي مررت به.

لقد حاولت أن أستعين بالخادمة التي شهدت معنا بعضا من الأحداث في الشقة.. والتي ظننتها في البداية متعلقة بالأشباح الضاجة.. كمحاولة مني لإثبات صدق كلامي أن زوجتي تمتلك تلك المقدرة بالفعل.. لكن اللعينة أنكرت الأمر تماما!!!.. ربما كانت تخشى التورط في القضية كحال معظم الجاليات الفقيرة في (الكويت).

لينتهي كل شيء.. ويتم نقلي إلى مستشفى الطب النفسي بالفعل.. وها أنا الآن أقضي أيامي هناك حيث أكتب لك قصتي عالما أن مستقبلي.. وربما حياتي بأكملها قد انتهت.

إنني لست إنسانا سيئا يا (خالد).. تأكد من هذا.. لكني عرفت الآن أمرا بالغ الأهمية.. وهو أن كل منا يقضي حياته فخورا بأنه لم يقترف ذنباً!!.. ولكن الحقيقة هي أن نطاق حياتنا يكون عادة بعيد عن أية فرصة لاقتراف الذنوب!!!.. فإذا أتيحت لنا الفرصة.. سترى العجائب!!!.. نعم.. أنت تعرف من أين يأتي اللصوص والمختلسون والقتلة.. إنهم من بيننا.. إنهم نحن!!.. هؤلاء مجرد أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف مما تصوروا.. أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخي الأخلاق كما ظنوا..

صدقني يا (خالد).. ضع عشرة رجال ممن يتشدقون بنبل الخلق في موقف يسمح بالفساد.. ولكن أكد لهم أولاً أنه لا خطر عليهم على الإطلاق وما سيفعلونه سيكون سرا بينهم وبين ضمائرهم.. ثم راقب نتيجة التجربة.. أعتقد أن واحدا من العشرة لا أكثر سيبرهن على أنه إنسان نبيل..

ماذا حدث بعدها؟؟ !!.. لا شيء.. إنني أقضي أيامي في المستشفى وقد اقتنعت أخيرا أن اتهامي بالجنون أفضل على الأقل من حكم الإعدام.. وهذا ما جعلني أقتل وقت الفراغ في كتابة قصتي لأرسلها إليك..

وقد بذلت في الواقع جهدا كبيرا في كتابة قصتي هذه.. لأنني على يقين أن ما يكتب دون جهد.. يقرأ بلا تركيز.. وما ساعدني على إبداعي -ربما -بسرد هذه الأحداث هو الحزن دون شك!!.. نعم.. فالحزن يشحن أفكار الإنسان لمزيد من الإبداع كما تعلم..

في الختام.. آمل أن لا تبخل بنشر قصتي لقرائك.. لأنني أعلم جيدا أن القراءة في واقع الأمر هي متعة التجول في عقول الآخرين دون الاضطرار لتحمل رعونتهم.. وأنا أريد هذا بشدة.. أريد أن يتجول قراؤك في عقلي.. هذا إن بقي لدي عقل بعد كل ما حدث..

أقول هذا الكلام مستغربا ومتسائلا كيف ممكن أن تأتي حادثة واحدة لتغير مجرى حياة الإنسان بالكامل.. فتصبح حياته السابقة وكأنها لرجل آخر؟ !!.. إنه أمر غريب بحق!!!.

إنني مستسلم تماما لمصيري الآن.. ولعلك لاحظت هذا من خلال سردي لأحداث القصة.. إذ ربما بدوت لك لا مباليا إلى حد كبير.. فما رأيته في قصتي هذه أكبر مما يحتمله أحد.. وجعلني أخشى الواقع بشدة ومستسلما له بنفس الوقت..

لذا أحاول أن أقضي وقتي في المستشفى محاولا الابتعاد عن الواقع.. أو عن العالم بأكمله.. أشعر بأنني أكره العالم.. أكرهه بشدة.. خاصة بعد أن دخلت من خلاله إلى عالم ما وراء الطبيعة بعد جريمتي الشنيعة.. وبعد أن.. حرقت زوجتي!!!.

الذي اقتحم العقل!!

يحكيها: خالد سليمان ال......

إهداء

لا أعرف كيف أصف هذه القصة.. لا أعرف أصلا إن كانت قصة.. أم مجرد أمنيات.. أم حتى محاولة مني لنشر آلامي على الورق!!!.. المهم أنني عندما انتهيت من كتابة ما كتبته.. لم أجد بدّا من إهداء كلماتي إلى (الكويت).. إلى وطني الحبيب الذي يمر بظلام حالك طال أمده.

وإلى من أعتبرهم قطرة أخيرة من زمن الستينيات الجميل.. إلى آبائنا وأجدادنا.. وإلى أحلامهم التي ذهبت أدراج الرياح.

المؤلف

لا.. لا تدمع عيون الوطن

احنا الفجر.. واحنا الأمل

واحنا اللي بنعيد الزمن.. ومهما يكون حجم الثمن..

لا تدمع عيون الوطن..

ولو تدمع عيون الوطن..

احنا نصير منديل فرح.. يمسح عن عيونه الدموع

وننحت من عظام الضلوع.. غابة أمل..

وقمره من أنوار الشموع

بس المهم.. لا تدمع عيون الوطن

لا يا وطن احنا الشباب.. واحنا بنخلّي بسمتك

مكتوبة في قلب الزمن أحلى كتاب

دام احنا في عمرك فجر.. واحنا وسط قلبك أمل

مهما يكون حجم الثمن.. ما تدمع عيون الوطن

كلمات رائعة صاغها الشاعر (مسفر الدوسري)

عزيزي القارئ.. ها أنا مستضيفكم (خالد سليمان ال...) أعود إليكم مرة أخرى آملا ألا يكون هذا من سوء حظكم!!.. وها قد نشرت لكم بعض الرسائل الإلكترونية التي وصلتني من أناس غرقوا في عالم ما وراء الطبيعة ببحاره القاتمة وسمائه السوداء المليئة بالغموض والإثارة!!.

البعض منكم قد يصدق تلك القصص.. والبعض الآخر ربما يراها محض هراء!!.. أما بالنسبة لي.. فأنا لا أعرف شيئا عن هوية مرسليها ولا يمكنني التحقق من مدى واقعية قصصهم.. لذا.. كل ما يهمني هو أن تكون القصص مسلية على الأقل.. وألا نندم على الساعات التي قضيناها في قراءتها!!.

لقد بدا واضحا من القصص السابقة أن كل إنسان في العالم يتحدث عن حياته وكأنه أكثر أهل الأرض شقاء.. وأنه ضحية هذا الزمن القاسي!!.. ولا أحد يلام على ذلك في واقع الأمر..

فأنا على يقين أن كل منا يخوض معركة ضارية شرسة مع الحياة.. إذ نخرج يوميا من بيوتنا لنواجه العالم ونرى أشخاصاً جدداً ونتعرض لمواقف جديدة.. وكل يوم تدور بداخلنا عشرات الأسئلة عن حياتنا.. عن أنفسنا.. عن الآخرين.. عن آرائنا.. وعن آراء الآخرين في آرائنا!!!.

فكل منا يحلق في سماء عالم شاسع من المبادئ والأفكار والرغبات الخاصة به.. حتى لأشعر أحيانا أننا نعيش في عالم مجنون.. أو ربما عوالم مجنونة!!!.

لقد بدا من خلال الرسائل الإلكترونية التي وصلتني أن هناك فئة لا بأس بها من الشباب المظلوم في مجتمعنا.. رغم وجود شبه إجماع في وسائل الإعلام على أننا قد رزقنا بأسوأ جيل من الشباب المنحل التافه!!!.

وربما يكون هذا الكلام صحيحا إلى حد ما!!!.. لكن لا أحد ينكر أيضا أن الكبار قد جاؤوا ودمروا كل أحلام هذا الجيل.. وتركوا لنا بالمقابل سفينة غارقة نخرة امتلأت بالثقوب.. ثم طلبوا منا أن نتولى الإبحار فيها بعد ذلك!!!.. وعندما ننظر إلى بحار العالم المتقدم التي تعج بالأساطيل وحاملات الطائرات.. نتساءل بدهشة: ماذا كنتم تفعلون طيلة الوقت حين كانت السفينة لكم؟!.. فيردون علينا:

-أنتم شلة من الشباب التافه قليل الأدب!!!.. إنكم مصابون بوباء الكسل وتريدون كل شيء بلا تعب!!!.

على كل حال.. لنترك هذا الأمر.. ونتحدث عن قصتي القادمة.. وهي من القصص التي ستنقلكم بأجوائها الكابوسية إلى مستنقع النفس البشرية الغامض.. وتكشف لكم بعضا من أسرار العقل البشري التي ربما ستقرؤونها لأول مرة!!.

ولكن.. هل ستنهمر دموعكم كما حدث معي أثناء مروري بأحداث القصة؟؟ !!.. لا أعلم.. لكني أعلم جيدا أنها من أكثر القصص التي عشتها غرابة!!.. حتى أنني أتساءل إن كانت ستعجبكم!!.. فمن الصعب جدا أن نكتب قصة جميلة عن القبح.. ذلك القبح الذي أعيشه وأتعذب في كل لحظاته وحيدا.. شاعرا أنني مكبل بسلاسل القدر.. أحرك يدي.. نعم.. لكن في الفراغ الذي يسمح

به القدر.. مرددا دائما أن الغفلة التي ينعم بها الناس هي نعمة حقيقية.. فالكل يعيش حياته مطمئنا ولا يعرف شيئا عن ذلك العالم الرهيب.. عالم ما وراء الطبيعة.

كيف بدأت القصة؟ !!.. بدأت في إحدى عطل نهاية الأسبوع.. منذ عامين تقريبا أو ربما أقل!!.. كنت قد وجدت مكانا جديدا خاليا تقريبا من الناس أذهب إليه بين الحين والآخر محاولا ألا أنكمش على نفسي في شقتي.. وأن أتناسى كل ما تعرضت له من أهوال في تجاربي السابقة!!.. أين هو ذلك المكان؟!.. إنه مقهى (ستار بكس) الشهير في المنطقة الحرة في (الشويخ)!!!.. مكان جميل نظيف هادئ يطل مباشرة على البحر.. أجواؤه تجعلك تشعر وكأنك لست في (الكويت)!!!.. والدليل على ذلك هو أن المكان لازال نظيفا!!!.. والناس قليلون والهدوء شامل!!!.

كنت أذهب هناك بين الحين والآخر.. ربما مرتين أو أكثر في الأسبوع.. فأجلس ساعات طوال في المقاعد الخارجية للمقهى.. لا أفعل شيئا سوى القراءة أو الإبحار في عالم الإنترنت من خلال جهاز الكمبيوتر المحمول.. أو النظر إلى السماء والعودة بذكرياتي إلى تجاربي السابقة!!.. فأضحك أحيانا.. وتدمع عيناي أكثر الأحيان!!!.. فهناك أحزان حقيقية و أحزان نخلقها لأنفسنا.. والنوع الأخير أكثر ألما وأكثر إمتاعا وشاعرية!!.

كنت متواجدا في مقهى (ستار بكس) في التاسعة مساء من تلك الليلة في فترة الصيف بعد أن مر العام الدراسي الأول في كلية الطب على خير.. حيث كانت مقاعد المقهى الخارجية تحديدا خالية تقريبا.. سوى من فتى يصغرني ببضعة أعوام.. يرتدي ثيابا شبابية وقد عجن شعره لأعلى بأحد كريمات الشعر.. وبدا لي أنه يعاني حالة متقدمة من الإحساس بالفتونة والعافية والفخر بنفسه.. لكنه كان مشغول البال دون شك.. إذ كان يجلس وحيدا لا يفعل شيئا تقريبا.. قبل أن يشعل سيجارته وينظر مرة أخرى لليل الصامت!!!.. فتى في هذا العمر يدخن؟!.. بكل تأكيد!!.

أعرف أن ملايين الخواطر تزاحمت في ذهنه وهو يتأمل لفافة التبغ.. الطرف الذي يتوهج ثم يخبو.. يتوهج ثم يخبو.. هذا تأثير قريب من التنويم المغناطيسي..

رحت أنظر إليه دون قصد!!!.. إنني واثق أن (رهام) هي السبب.. من هي (رهام)؟ !!.. لا أعلم.. هناك واحدة دائما.. ابنة الجيران أو فتاة لاقاها في مجمع (المارينا) أو (الأفنيوز) التجاري!!.. إن أهليهما يحترقان وينفقان المال.. بينما الوغدان الصغيران غائبان في عوالم الرومانسية!!.

ألتفت للناحية الأخرى.. لأجد فتاة على طاولة قريبة من طاولتي.. فتاة جميلة إلى حد ما.. نحيلة.. ذات شعر قصير يلتف حول أذنيها.. تجلس وحيدة أيضا لكنها تبدو منهمكة جدا أمام شاشة الكمبيوتر المحمول!!.

رحت أنظر إليها.. وإلى ذلك الفتى.. ثم أحدق في الأمواج الصغيرة الداكنة داخل كوب (الموكا) على طاولتي.. وأشربها بأسى.. شاعرا أنني كالسلحفاة التي لا تشعر بالأمان إلا داخل درعها.. وأن شبابي هذا لا قيمة له.. فعادة ما يحن العجائز لشبابهم باعتبارهم كانوا يتسلقون جبال الألب ويمرحون مع الحسناوات ويركبون سيارات الفيراري.. أما أنا فلا تمثل لي مرحلة الشباب شيئا.. لأني ببساطة لا أفعل أي شيء سوى الوقوع في المصائب والغرق في عالم الميتافيزيقيا!!!.. لذا لا أعتقد أنني سأندم بعد نصف قرن مثلا على شباب ذهب دون عودة.. و:

-مرحبا!!!.

أعادتني تلك التحية إلى عالم الواقع.. فالتفت بشكل مفاجئ لأرى الفتاة ذاتها التي كانت تجلس على الطاولة المجاورة لطاولتي.. ثم:

-المعذرة على إزعاجك.. هل لك أن تساعدني قليلا؟!!.

نظرت إليها بخجل عاجزا عن الرد.. مشكلتي أنني خجول إلى حد مروع.. ربما إلى درجة أنني قد أطرق باب الثلاجة نفسها قبل أن أفتحه!!!.

وأمام صمتي وارتباكي.. قالت بابتسامة يشوبها بعض الحرج:

-هناك مشكلة صغيرة لا أعلم إن كنت تستطيع معالجتها في جهاز الكمبيوتر المحمول الخاص بي.. هل لك خبرة بأجهزة الكمبيوتر؟!!.

تنحنحت وقلت بتلعثم:

-لست خبيرا في هذا المجال.. لكن.. أستطيع أن أحاول!!.

شكرتني كثيرا وكأنني أصلحت جهازها بالفعل!!.. ثم نهضت إلى طاولتها لتأتي بالجهاز.. و.. لم يكن الأمر يستحق الذكر.. مشكلة بسيطة لحسن الحظ قمت بحلها في غضون دقائق.. لتنفرج أسارير الفتاة.. ثم.. ثم قامت بسحب كرسي لتجلس عند طاولتي دون استئذان وفي جرأة غير معتادة!!!.. لتسألني وسط نظرات الاستغراب الواضحة على ملامحي:

-هل تعمل في مجال الكمبيوتر؟!!.

أجبتها مبتسما وقد عاد الهدوء إلى نبرة صوتي:

-في الواقع لا.. لكني ككل الناس.. أملك جهاز كمبيوتر وأعرف عنه بعض الأمور.

-إذا ماذا تعمل؟!!.

قلت باستغراب لهذا الاقتحام الغريب لخصوصياتي:

-إنني طالب في كلية الطب!!!.

نظرت إلي بإعجاب شديد للغاية.. إنه أمر طبيعي!!.. دائما ينظر الناس لدارسي الطب على أنهم نموذج للعبقرية والكفاح!!.. المهم أنني ابتسمت بخجل أمام تلك النظرات.. ولا ألام على ذلك.. فكل شاب يتحول بشكل أو بآخر إلى أحمق أمام فتاة جميلة!!!.

كان هذا الحوار القصير هو بداية لحوار آخر طويل دار بيننا.. إذ جلسنا نتحدث ونتحدث.. لأكثر من ساعة تقريبا!!!.. وراحت تستجوبني استجوابا رقيقا أشعرني بلذة ما بعدها لذة!!!.. فكم هو رائع أن تسألك فتاة عن لونك المفضل.. وعن أجمل أغانيك.. وعن هواياتك وعن.. وعن.. إلخ.

ثم نظرت إلى ساعتها واستأذنت بخجل آملة أن أسامحها على تطفلها!!.. لتلقي قبل رحيلها بمفاجأة لم أتوقعها إطلاقا:

-(خالد) هل من الممكن أن نتبادل أرقام هواتفنا؟؟ !!.. لعلّي أتصل بك إن كنت لا تمانع!!.

يا للجرأة!!!.. شعرت بحرج شديد أمام هذا الطلب.. لقد اعتدنا أن تكون الفتاة في مجتمعاتنا الشرقية شديدة التحفظ أو شديدة المجون.. ولم نعتد أبدا على معاملة بسيطة جريئة كهذه!!!.. إنها تعاملني كصديق جديد من حقها أن تتصل به متى ما أرادت!!.

لم أجد مفرا أمام هذا الاقتحام المفاجئ!!.. ولم أجرؤ على الرفض.. خاصة وأن هاتفي النقال كان موجودا أمامها على الطاولة!!.. أخبرتها بالرقم لتقوم بدورها بتسجيله في هاتفها النقال.. ثم نهضت مسرعة متجهة إلى سيارة يقودها سائق من الجالية الآسيوية على ما يبدو.. لتركب في المقعد الخلفي وتنطلق مبتعدة!!.

نظرت إلى ساعتي لأجدها تقترب من العاشرة والنصف!!!.. فحزمت أغراضي وخرجت من المقهى عائدا إلى شقتي حيث ألقيت التحية على جدتي واحتضنتها وقبلت رأسها بينما راحت هي تربت على شعري وتقبلني!!!.. يا للحنان ويا للرقة.. أبدا لم أتلق في حياتي قبلات صادقة وبلا ثمن من أحد سوى جدتي..

وفي كل مرة أحتضنها.. تجدني أتساءل بيني وبين نفسي عن غرابة ما مررت به من أهوال في السنوات القليلة السابقة دون أن يكون لجدتي أي دور.. ودون أن تكون لها أدنى فكرة أصلا عما يجري حولها.. ولكن.. أحيانا يساعدنا الآخرون بأن يكونوا في حياتنا فحسب!!!.. وهذا ما تفعله جدتي وتجيده إلى درجة غريبة.

كانت الأيام هادئة جدا في تلك الفترة.. ذلك الرتم البطيء المحبب الذي يشعرك بالأمان!!.. دائما ما يقول خبراء النفس أن الروتين هو أفضل علاج للإنسان المصاب بداء القلق.. فالروتين هو ما يشعرك بالأمان ويبعد عنك التوتر!!!.. وهذا ما أحاول فعله.. أن أتجنب الناس أولا لأنني لم أعد أثق بأحد على الإطلاق بعد كل ما مررت به في تجاربي السابقة.. وأن أعيش حياة روتينية بسيطة تحمل شيئا من عبق الماضي الجميل الذي أتحدث عنه دائما وكأنني عشته بالفعل!!!.. ولكن.. ليس من الضروري أن أعيشه.. فمسرحية واحدة أو أغنية جميلة من فترة الستينات.. تجعلك تشعر أننا نعيش حاليا في زمن أسود!!.

أين كنا؟!.. آه.. ذهبت إلى غرفتي وأبدلت ثيابي متأهبا للنوم.. لحظات قليلة قبل أن أتدثر تحت اللحاف.. والموسيقى الهادئة تنبعث من جهاز التسجيل مع تلك الإضاءة الخافتة التي أعشقها.. فأنا أخشى الظلام بشدة!!!.. نعم.. ففي الظلام فقط.. تبدأ الهلاوس من طراز صوت مخيف في ركن الغرفة.. أو شيء أسود ألمحه بطرف عيني في المرآة.. هذه هواجس الجبناء كما تعلمون.. وأنا جبان إلى حد مروع!!!.

كنت في تلك اللحظة على وشك النوم.. قبل أن يرن هاتفي النقال!!.. وهذا أمر نادر جدا.. فلا أحد يسأل عني في هذا العالم سوى جدتي!!!.. كان الهاتف موجودا على المنضدة الصغيرة بجانب الفراش.. فلم أضطر للنهوض.. بل مددت يدي بتكاسل لأصل إليه.. ثم:

-آلو!!.

صوت أنثوي رقيق يقول بحذر:

-(خالد)؟!.. كيف حالك؟!.

لم أميز الصوت.. فقلت بتوجس:

-من المتحدث؟!!.

-أنا (سمر)!!.

رددت باستغراب:

-(سمر) من؟ !!..

تنحنحت وكأنها شعرت بالخجل.. ثم قالت:

-الفتاة التي قابلتها في مقهى (ستار بكس) منذ ساعات قليلة!!!.. هل نسيتني؟!.

آه.. لقد نسيت كل ما يتعلق بشأنها بالفعل.. إنها لم تخبرني باسمها حين قابلتها.. أو أنا لم أسألها عن اسمها!!.. ترى.. هل تريد هذه الفتاة معاكستي؟ !!.. هذا غريب!!.. أعرف جيدا أنني لا أملك أي من مقومات الوسامة.. والواقع أنه لم تلاحقني فتاة من قبل إلا لأسدي لها خدمة ما ولا شيء غير ذلك!!.. فهل تريد (سمر) خدمة بشكل أو بآخر؟!!.

طرحت تلك الخواطر سريعا قبل أن أقول بتلعثم واضح:

-مرحبا (سمر).. المعذرة.. لم تخبريني باسمك حين التقينا!!!.

ردت بحماس لا يتماشى مع هذا الوقت المتأخر:

-لا عليك.. هل أنت مشغول؟!!.

أجبتها بالنفي.. فراحت فجأة تتحدث عن نفسها.. وتسألني عن بعض الأمور الخاصة في حياتي وكأنها تعرفني منذ زمن!!!.. كان تصرفها غريبا للغاية.. حتى أنني لم أقاوم فضولي فسألتها بحذر:

-المعذرة يا (سمر).. لكن!!.. لكن.. بصراحة اتصالك مفاجئ.. أعني.. لقد ظهرت في حياتي فجأة.. ثم.. ثم...

لم أجد ما أقول بعد أن وجدت في كلامي شيئا من الوقاحة.. مشكلتي أنني خجول جدا وأضع ألف حساب لمشاعر الناس.. لكنها فهمت ما أردت قوله.. فردت بشيء من الأسى:

-إنني آتي إلى مقهى (ستار بكس) ذاته باستمرار!!.. وقد رأيتك هناك عدة مرات وحيدا.. دائما وحيداً!!!.. مما جعلني أشعر أن لك أعماقا ما.. وأنني أرغب بشدة في مصادقتك!!!.. فأنت دائما ما تسرح بأفكارك بعيدا لدرجة أنك لم تنظر إلي يوما كما يفعل معظم الشبان الذين يأتون إلى المقهى!!.. هل انتبهت لوجودي من قبل؟؟!.

أجبتها بصدق وخجل:

-المعذرة.. ولكن.. بالفعل.. لا أذكر أنني رأيتك من قبل!!!.

ضحكت بثقة وكأنها تقول:

-إنني محقة إذا!!!.

و.. هكذا بدأت علاقة مبهمة لم أفهمها مع هذه الفتاة.. علاقة لا أنكر أنها أشعرتني إلى حد ما بالألفة في ظل الوحدة التي أعيشها.. لكن قلبي ظل مغلقا تماما لا يمكن أن يشعر بالحب مرة أخرى بعد تجربة سابقة لا يمكن أن أنساها مدى الحياة ([35]).. وهذا أمر لا أملك قرارا فيه كما تعلمون!!.

استمرت علاقتي الهاتفية ب(سمر) قرابة الأسبوع.. راحت تسألني خلالها كل ما يتعلق بحياتي الشخصية دون انقطاع!!.. في حين لم تكن تتحدث بدورها كثيرا عن نفسها.. إلا أنني عرفت أنها تكبرني بعامين فحسب!!.. وأنها طالبة في كلية الهندسة كما تقول!!.. مع معلومات إضافية بسيطة عن عائلتها التي لا تختلف عن أي عائلة أخرى.

كان هذا قبل أن تطلب مني في ذلك اليوم أن أقابلها للضرورة.. بل وتصر على طلبها بشكل غريب بعد أن رفضت تماما أن تخبرني بما تريد من خلال الهاتف!!!.. فوافقت بعد شيء من التردد!!.. شاعرا أنها تريد -كما جرت العادة -مساعدة بشكل أو بآخر!!.. خاصة وأنني اعتدت منذ مدة على لعب دور حلال المشاكل.. رغم أنني عادة ما أحل تلك المشاكل لأقع في مشاكل أخرى!!.. وتاريخي القصير مليء بقصص كهذه.. ماذا؟!.. تقولون أنني أحمق؟ !!.. تقولون أنني لا أتعلم الدرس أبدا؟ !!.. ربما لأنني دائما أظن أن كل مغامرة أعيشها هي الأخيرة وأنني سأعود بعدها لأعيش كباقي الناس.. لا يمكنني أن أدرك أن الدنيا تبتلعني وتمتص مني إكسير الحياة لتنبذني بعدها في العراء داخل عالم مظلم لا أول له ولا آخر!!.. الأمر ليس سهلا إطلاقا.. وهو شبيه بما يفعله مرضى السمنة عندما يطلقون الوعود أمام الناصحين.. فإذا انفردوا بأنفسهم وجدوا أن الأمر عسير حقا!!.

ماذا كنت أقول؟ ؟!.. آه.. نعم.. ذهبت في الموعد المحدد في اليوم التالي لأقابل (سمر) في مقهى (ستار بكس) ذاته!!.. نزلت من سيارتي متوجها إلى المقهى.. قبل أن أسمع صوتا يناديني بخفوت!!.. التفت إلى الوراء وإذا ب(سمر) تشير إلي أن أقترب منها وهي جالسة في المقعد الخلفي في السيارة بوجود السائق!!.

ذهبت إليها مستغربا و:

-(خالد).. أحد أقاربي موجود في المقهى لا يمكنني أنا أقابلك هناك!!.. أرجوك اركب معي ولنذهب إلى مكان آخر.. لا تخش شيئا.. السائق يكتم كل أسراري.. بسرعة أرجوك!!.

التفت يمينا ويسارا.. ثم قلت بتوجس:

-دعيني أتبعك بسيارتي إلى المكان الذي تريدينه.. إنني لن...

قاطعتني بغرابة وكأن شياطين العالم كلها تلاحقها:

-الآن يا (خالد).. أرجوك.. سأشرح لك كل شيء في الطريق!!!.

لم أجد ما أقوله أمام هذا الإلحاح والتوسل سوى الركوب معها!!!.. فجلست في المقعد الخلفي بجانبها بناء على طلبها هي!!.. ووجدتها ممسكة بكوبين من المشروبات المثلجة يحمل كل منهما علامة (ستار بكس) الشهيرة.. ثم قدمت لي إحداهما:

-تفضل.. لقد اشتريت لك مشروبا باردا من المقهى وخرجت بعد أن رأيت قريبي هناك!!.

أخذت الكوب الورقي شاكرا.. قبل أن أسألها باستغراب:

-إلى أين نحن ذاهبان؟ !!.. وماذا تريدين مني؟ !!.. المعذرة لهذه الأسئلة.. لكني لست الشاب الذي تريدينه!!.. إنني إنسان وحيد إلى حد مروع.. ولا أملك أي حياة اجتماعية من أي نوع.. ولا أعتقد أنني أصلح أن....

قاطعتني بهدوء:

-الأمر ليس كما تظنه يا (خالد).. لست فتاة عابثة.. أعرف أن كل ما أفعله معك يوحي بذلك.. لكن صدقني الأمر يختلف!!.. سأخبرك بكل شيء عندما نصل إلى مقهى آخر.. سنجلس هناك ونتحدث بهدوء وستعرف كل شيء حينها!!.

سألتها بفم مليء بال(موكا) المثلجة مستغربا:

-لماذا إذا اشتريت تلك المشروبات لو كنا سنذهب إلى مقهى آخر؟!..

ردت باعتذار:

-لقد اشتريتها قبل أن أرى قريبي هناك وخرجت بعدها مباشرة.. المعذرة.. ولكن وجود قريبي في المقهى شتت انتباهي تماما.. وجعلني أتصرف بارتباك!!!.

بدا عذرها سخيفا للغاية وغريبا بنفس الوقت.. فسألتها بشيء من الحدة:

-ولماذا طلبت مني الركوب معك؟!.. لماذا لم تتصلي بهاتفي النقال وتخبريني أن قريبك موجود هناك لكي نحدد مكانا آخر نلتقي به؟ !!.. الأمر بسيط للغاية وقد جعلت منه مشكلة كبيرة.. إنك لست واضحة.. إنك ت......

خرست فجأة!!!.. شاعرا بشيء لم أشعر به من قبل.. الدنيا تدور!!!.. أو.. رأسي يدور؟ !!.. لا أعلم.. رحت أحدق ب(سمر) كمتعاطي المخدرات فاقد الإرادة.. وكل شيء يبدو لي متموّجا مشتتا غير واضح المعالم!!.. ما الذي يحدث لي؟ !!.. هل أنا أفقد الوعي؟ !!.. لا أعرف كيف أصف لكم الشعور بفقدان الوعي!!!.. ولا أعرف كيف وجدت نفسي أنسحب شيئا فشيئا إلى عالم اللاوعي!!!.. آخر ما أتذكره هو وجه (سمر) الذي راح ينظر إلي بانتصار لا أعرف سببه!!!.. هل هي وراء ما يحدث لي؟؟!!.. هل.. يا إلهي.. هل قامت بوضع مخدر في (الموكا) التي أشربها؟ !!.. ما الذي تفعله هذه الفتاة؟ !!.. ماذا تريد مني؟ !!.. ماذا تريد مني؟ !!.. ماذا تريد مني؟ !!.. ظل عقلي يردد هذا السؤال إلى أن سقط الكوب من يدي.. وغبت تماما عن الوجود!!.. غير عالم أنني سأستيقظ بعدها لأعيش ساعات عصيبة.. وأنني سأزور المجهول.. سأزور المجهول حقيقة لا مجازا!!.

عادة ما يحتاج الإنسان إلى بعض الوقت حين يفيق.. ليعرف أين هو ومن هو ويستوعب الموجودات من حوله.. لكني ودون سبب واضح.. أفقت فجأة.. وفتحت عيني بهلع.. حتى أن شهقة مسموعة قد خرجت مني.. هل كان حلما؟!.. لكن.. لو كان حلما.. فلماذا لا أرى شيئا الآن بعد استيقاظي؟ !!.. لماذا هذا الظلام الذي يحيط بكل شيء؟ !!.. ثم.. كم من الوقت ظللت فاقدا للوعي؟ !!.. لا أعرف!!.

لحظات قليلة قبل أن أتذكر ما حدث.. (سمر).. تلك اللعينة.. ماذا تريد؟ !!.. لماذا جاءت بي إلى هنا؟ !!.. رحت أنظر يمينا وشمالا بفزع.. هل فقدت بصري؟ !!.. لا أعتقد.. إنه الظلام.. الظلام الدامس اللعين الذي يلقي بظلاله على كل شيء!!!..

وقفت بحدة وأنا أمد يدي إلى المجهول شاعرا برعب هائل!!.. أين أنا؟؟!!.. يا إلهي.. ليس الظلام.. إنني أخشاه.. أخشاه كالموت ذاته!!!.

رغم أنني جبان باعترافي الشخصي!!!.. إلا أن الخوف من الأماكن المظلمة له ما يبرره دون شك.. تخيل نفسك في مكان غريب تجهل كل تفاصيله!!!.. ولا تجد حولك سوى ظلام دامس رهيب يحيط بك من كل جانب ويرسم في خيالك عشرات الصور والأوهام.. ويرهف حواسك حتى لتبدو أي حركة بسيطة أشبه بزحف ثعبان سام!!!.. إن الخوف من الظلام هو من أكثر أنواع المخاوف المرضية انتشاراً دون شك.

دارت تلك الخواطر في ذهني للحظة.. وأنا أنظر حولي بقلق شديد محاولا أن أعتاد الظلام حتى أعرف مكاني على الأقل!!.. إنني في غرفة دون شك.. لكنها غرفة غريبة جدا.. لأن البلاط لا يغطي

أرضيتها!!!.. بل التربة.. التربة فحسب!!.. هل هو بيت لم يكتمل بناؤه بعد؟!.. لا أعلم!!.

رحت أحك الأرض بحذائي.. نعم.. كأنها غرفة لم يكتمل بناؤها بالفعل!!.. مهلا.. ماذا عن الجدران؟!.. أتحسس الجدار بيدي.. هذا غريب!!!.. لقد قاموا بمسح الجدار بالإسمنت بشكل بدائي كما هو واضح من الملمس!!.. من هؤلاء الذين فعلوا ذلك؟!.. لا أعرف!!!.

راح جسدي يرتجف بقوة وأنا أقف مشلولا وسط الظلام لا أعرف ما أفعل!!!.. إن أسوأ أنواع الخوف هو الخوف الذي تخشى مصدره!!.. هل أنا في غرفة مليئة بالصراصير؟ !!.. إن غرفة كهذه قد تكون بيئة مثالية بالفعل للصراصير!!!.. ارتجف جسدي مرة أخرى لهول الفكرة!!!.. ورحت أنتفض بهلع.. إنني أخشى الصراصير حتى الموت.. تلك المخلوقات البنية القذرة المثيرة للاشمئزاز.. والتي تمشي وتحرك شواربها في جشع.. والأسوأ أن قتلها يؤدي إلى المزيد من الاشمئزاز!!!.. يا إلهي.. لقد أصبحت عيني جائعة إلى النور متعطشة له.. يمكن لهاتين العينين أن تشمّا الضوء الخافت على بعد مائة متر.. مهلا.. لقد تذكرت.. الهاتف النقال!!!.. رحت أبحث عنه بيد متوترة.. الحمد لله.. إنه في جيبي!!!.

لقد جاء الهاتف النقال ليسبب مشكلة حقيقية في قصص الرعب.. لأن المفتاح الأول في قصص الرعب هو العزلة!!.. لكنهم عالجوا هذه المشكلة في جعل الهواتف خارجة عن نطاق التغطية مثلا عندما يواجه البطل مأزقا ما.. و.. يا للمفارقة.. إن هاتفي النقال خارج نطاق التغطية أيضا!!!.. لكني رغم ذلك سعدت لوجوده بجيبي.. سأستخدم إضاءته وأعرف مكاني على الأقل.

عزيزي القارئ.. عندما استخدمت الإضاءة الموجودة في هاتفي لمعرفة مكاني.. توقعت أن أجد أي شيء سوى هذا!!!.. ولا أبالغ لو قلت أن جسدي اهتز بأكمله وشعرت بنبضات قلبي تتباطأ شيئا فشيئا!!!.. فما رأيته لا يحتمله أقوى الناس أعصابا!!!.. حتى أنني لم أستطع أن أمنع نفسي من التراجع إلى الخلف إلى أن لمس ظهري الجدار!!!.

لقد رأيت شواهد قبور!!!!.. نعم.. صدقوني!!!.. أنا لا أخرف.. إنها شواهد لأربع قبور بالفعل!!!.. لماذا يصنع أحدهم مقبرة في غرفة؟ !!.. هل هؤلاء الناس يقتلون الأبرياء ويدفنون جثثهم في قبو المنزل كما فعلت (ريّة) وشقيقتها (سكينة) في (مصر) قبل سنوات طويلة ([36])؟؟!!.. إنها قصة شهيرة جدا وقابلة للتكرار كما تعلمون.. ولكن.. ما الفائدة من تلك الشواهد أصلا إن كانوا يريدون إخفاء معالم جريمتهم؟؟ !!.. لا.. مستحيل.. مستحيل أن يحدث هذا هنا!!!.. ولكن.. ما هي مقاييس المستحيل أصلا؟ !!.. لقد رأيت بنفسي من الأهوال ما كنت أظن استحالة وجودها.

هززت رأسي نفيا وكأنني لا أريد تصديق ما أراه!!.. أين المخرج.. أين الباب؟ !!.. لا بد لهذه الغرفة اللعينة من مخرج!!.. نعم.. هذا هو.. باب خشبي سميك كما يبدو للوهلة الأولى!!!.

توجهت ناحية الباب بحذر شديد وكأنني أخشى أن أوقظ الموتى!!!.. أمسك المقبض بيد مرتجفة.. إنه مقفل.. هذا متوقع!!..

حاولت دفع الباب بكل قوتي.. لم يكن ليفتح بالطبع!!.. هذا يحدث في الأفلام فقط.. ماذا سأفعل؟ !!.. وإلى متى سأظل هنا؟!..

ظلام.. غرفة مغلقة.. شواهد قبور.. لن تكف تلك الخلطة السحرية عن إثارة ذعرنا حتى تقوم الساعة.. إن تلازم الخوف من الظلام مع الأماكن المغلقة يعود إلى خشية الإنسان الشديدة من

الموت.. إذ تبدو له الأماكن المظلمة والمغلقة أشبه بالقبر!!!.. تخيلوا إذاً كيف كان الحال بوجودي فعليا وسط كل هذه القبور المخيفة

لقد بدا لي المكان شبيها بقلاع القرون الوسطى التي تحوي مخارج سرية.. والتي كانت تزوّد بدورها بباب سري كي يفر منه الحاكم إذا ما توترت الأمور وثار عليه الشعب!!!.

رحت أنقل بصري بذعر هائل في أرجاء الغرفة التي لا يزيح الستار عن ظلامها سوى تلك الإضاءة الخفيفة الناتجة من هاتفي النقال.. وبصمت مهيب قاتم سوى من أنفاسي اللاهثة التي كانت تخيفني شخصيا!!!..

أمرر هاتفي النقال بيد مرتجفة على الجدران باحثا عن شيء لا أعرف ما هو أصلا.. والعرق يتصبب من جسدي بغزارة من شدة الحر مما جعل الأمور أكثر سوءا.. فأمسح جبيني بيدي.. وأواصل البحث والنظر بين لحظة وأخرى إلى القبور الأربعة.. أخشى أن يظهر منها شيء يوقف قلبي من شدة الرعب!!!.. ترى.. هل.. هل أنا في بيت؟ !!.. في أي منطقة لو كان كذلك؟ !!.. إنني في قبو دون شك.. هذا ما يبدو عليه المكان.. فلا توجد شبابيك إطلاقا.. مجرد باب وأربعة جدران إسمنتية.. وأرض رملية.. وشواهد قبور.. ولا شيء آخر!!.

لا زال هاتفي خارج نطاق الخدمة!!.. أحاول الاتصال بالشرطة رغم ذلك.. لكن.. دون جدوى بالطبع.. والتساؤلات تتكرر في ذهني مليون مرة دون توقف!!!.. أين أنا؟ !!.. أين أنا بالضبط؟ !!.. (سمر)!!.. إنها وراء ما يحدث دون شك.. تلك اللعينة.. هل كانت تستخدمني كطعم؟ !!.. ولكن لماذا؟؟!!.. لأي غرض؟!!.

تنحنحت ثم صرخت بصوت حاولت أن أجعله صارما.. لكنه خرج ضعيفا مهزوزا:

-ماذا تريدون مني أيها المخابيل؟!!.

قلتها وسببت لي الجملة رعبا ما بعده رعب!!.. فخرست تماما!!!.. وهذا أمر طبيعي.. أحيانا أصواتنا نفسها تسبب لنا الرعب في أماكن قاتمة كهذه!!!.. وكأن الصمت هو عنوان اللعبة.. ولكن أي لعبة؟ !!.. ليتني أعلم.

حاولت استجماع شيئا من شجاعتي.. واقتربت بحذر شديد ناحية القبور مستدلا بالنور الخافت الذي يشع من هاتفي النقال.. قلبي يخفق كالطبل وأنا أقترب أكثر وأكثر ناحية الشواهد!!!.. مهلا.. ثمة شيء مكتوب على كل شاهد!!!.. فكل منها يحوي الاسم الأول فقط للميت!!!.. وتحت كل اسم تاريخ ما.. إنه تاريخ الوفاة دون شك.. ولكن جميع حالات الوفاة حدثت منذ فترة قصيرة نسبيا كما هو مكتوب على الشواهد!!.. أول الجثث قد تم دفنها منذ أسبوعين تقريبا!!!.. وآخرها قبل ثلاثة أيام فحسب!!!.. يا إلهي.. سأموت هنا دون شك.. سأموت بهبوط الضغط أو بارتفاعه!!.. فما أراه هو المستحيل بعينه!!!.. أنا الذي كنت في طفولتي أتفنن بتخويف نفسي!!.. كنت أخشى في منزلنا القديم أن أذهب إلى غرفتي وأمد يدي إلى مفتاح الكهرباء لأنير الغرفة.. ثم أجد يدا باردة تمسك بيدي في الظلام!!!.. أو أن أرفع صوت التلفاز وأدخل الحمام.. ثم.. ينخفض الصوت من تلقاء نفسه!!!.. مخاوف وهمية سخيفة لا يمكن أن تقارن بما أراه الآن وما رأيته في السنوات القليلة الماضية!!.

و.. ما هذا؟ !!.. لم أنتبه لهذه الأحرف في بادئ الأمر!!!.. هناك أحرف وأرقام مختلفة مكتوبة على كل شاهد على حدة!!!.. ليس فقط الاسم وتاريخ الوفاة!!.. رحت أقرأ ما هو مكتوب على أحد

الشواهد بدقة أكبر.. وبصوت مرتفع قليلا:

-هـ.. س.. 11.. ج!!.

ما الذي تعنيه هذه التوافيق الغريبة؟ !!.. تبدو لي وكأنها كلمات شعوذة!!.. لا أعلم.. توجهت إلى باب الغرفة بتوتر شديد أحاول فتحه.. أمسك بالمقبض وأحاول مرة أخرى أن أدفع الباب بكل قوتي!!!.. ثم.. صوت مزعج.. صوت غير مريح لا أعرف كيف أصفه يخرج من مكان ما!!!.

انكمشت تماما في مكاني.. والتصقت بالباب من شدة الرعب الذي التهم قلبي تماما.. إن الصوت يخرج من.. من.. من تحت الأرض؟؟؟!!! !!.. لا يمكن.. هذا وهم.. وهم لا شك!!.. لا.. ليس وهما على الإطلاق.. بل هناك حركة مريبة في أحد القبور بالفعل!!!.

تصلبت في مكاني تماما.. وأنا أرى يدا تخرج من القبر.. لا يمكن أن أكذب عينيّ.. نعم.. إنني أرى يدا متعفنة إلى حد ما تخرج من القبر!!!.. وكأن هذا الميت يعود إلى الحياة ويحاول الخروج من قبره.. ولماذا أقول (وكأن)؟؟ !!.. بل أن الميت يعود إلى الحياة فعليا.. إنني أراه أمام عيني!!!!.. هذا مستحيل.. مستحيل دينيا وعلميا!!!.. لقد رأيت شيئا كهذا في تجربة سابقة.. فاتضح أن الأمر برمته خدعة كبرى ([37]).. لكن الوضع هنا يختلف.. صدقوني إنه يختلف تماما!!!.. أقسم أن ما أراه حقيقياً!!!.. اليد تواصل الحفر ليخرج منها باقي الجسد!!.. بالطبع أرى كل هذا وقد تيبس جسدي بالكامل!!.. حاولت أن أصرخ.. لكن شعرت أن حنجرتي أصيبت بالشلل.. هل الشلل يصيب الحناجر؟؟!!.. لا أعلم.. لكن هذا ما حدث لي.. أشعر.. أشعر أن حياتي قد صارت بعيدة جدا عن هذا العالم!!.. قبل فترة قصيرة كنت مع (سمر) في السيارة أشرب (الموكا).. و.. تذكرت (الموكا) مرة أخرى!!!.. هل وضعت بها منوم مثلا أو ربما عقار هلوسة؟ !!.. لا.. الأمر يبدو حقيقيا تماما!!!.. حقيقيا دون شك!!!.

كنت واقفا متصلبا ملتصقا في الباب وأنا أرى الجثة تظهر شيئا فشيئا من القبر.. جثة متحللة أو متعفنة كما بدت لي.. وغارقة تماما في الغبار!!!.. حتى بدا تمييزها إن كانت لرجل أو امرأة أمرا مستحيلا!!.

نهضت الجثة أخيرا!!!.. كانت واقفة تنظر حولها بشيء من عدم الفهم.. أو هذا ما بدا لي.. قبل أن تحدق بي فجأة!!!.. وتتجه ناحيتي وهي تمد يدها نحوي وتصدر أنيناً مخيفاً وكأنه يأتي من الجحيم!!!..

مهلا.. إنني لم أشعر بهذا من قبل!!.. هل.. هل الحياة تنسحب من جسدي شيئا فشيئا؟؟ !!.. إنني لم أر وجهي في المرآة حينها.. لكني واثقا أنه قد خلا تماما من الدماء في تلك اللحظة!!!.. قلبي.. أشعر أنه يتوقف شيئا فشيئا..

إنني عاجز عن التنفس.. عاجز عن تصديق ما أراه.. و.. و.. انتقلت إلى عالم آخر.. عالم اللاوعي!!!.

لم أمت بالطبع.. وإلا لما حكيت لكم حرفا مما يحدث.. لكن لا أعتقد أنني اقتربت من الموت كهذه المرة!!!.. ولا أعتقد أيضا أنني شعرت بالرعب كما شعرت به هذه المرة.. ففي كل المرات السابقة التي واجهت فيها أهوالا لا حصر لها.. كنت أعرف مكاني في العالم على الأقل.. لكني الآن مختطف لأسباب مجهولة.. وأجهل مكاني.. أجهل كل شيء دون استثناء!!!.

لا أعرف كم ظللت فاقدا الوعي.. لكني شعرت أخيرا أنني أعود إلى عالمنا ببطء شديد.. إنني.. إنني

أسمع صوتا خشنا يتحدث إلى فتاة ويلومها على شيء ما.. في حين ترد هي عليه بشيء من الاعتذار.. هل هذا صوت (سمر)؟!.. لا أستطيع تمييز الكلام جيدا!!!.. هناك.. هناك من يهز جسدي برفق شديد لأستيقظ!!!.

فتحت عيني ببطء شديد.. ثم شهقت بقوة ونهضت بسرعة وقد تذكرت المقبرة والجثث المتعفنة.. لكن.. فوجئت ب(سمر) وهي تضع يدها على كتفي محاولة منعي من الانفعال وهي تتحدث بصوت خافت مطمئن:

-أرجوك أن تهدأ يا (خالد).. أرجوك اهدأ.. أنت بأمان الآن.. لا أحد يريد بك ضررا!!!.. اهدأ.. اهدأ.. اهدأ!!.

ظلت ترددها بخفوت شديد وابتسامة هادئة حتى ساهمت فعليا بهدوئي!!!.. نظرت إليها بشيء من القلق وعدم الفهم.. ثم نظرت حولي.. إنني في غرفة على قدر لا بأس به من النظافة.. لكنها تخلو تماما من النوافذ.. ولا تحوي سوى السرير الذي أنام عليه الآن.. مع دولاب صغير.. و.. من هذا الرجل العجوز؟؟!!.. ليس رجلاً عجوزاً.. بل هو شيخ يتجاوز عمره الثمانين عاما على الأرجح.. حليق الوجه.. امتلأ وجهه تماما بالتجاعيد.. ويرتدي نظارة سميكة للغاية حتى تكاد لا ترى عينيه!!.. لكنه بدا لي في صحة جيدة للغاية قياسا إلى عمره!!!!.

كان ينظر إلي دون أي ردة فعل!!!.. إلى درجة أنه أصابني بشيء من الخوف.. فسألت بتوتر:

-من.. من أنتم؟ !!.. ماذا يحدث هنا؟؟ !!.. أين أنا بالضبط؟؟!.

نظرت (سمر) إلى ذلك الشيخ وكأنها تطلب منه الكلام وتوضيح ما يجري حولي.. فنظر إليها بالمقابل.. ونقل بصره إلي.. قبل أن يرد بصوت عميق مهيب:

-فلتشرب هذا أولا يا ولدي.. لا تخشَ شيئا.. إنه مجرد حليب ساخن سيعيد لك صفاء ذهنك!!!.

نظرت إلى الكوب بتردد شديد.. ولكن.. لا داعي للخوف.. إنني بين أيديهم الآن.. ولو أرادوا قتلي لفعلوها أثناء فقداني الوعي!!!.

رحت أشرب كوب الحليب شاعرا بانتعاش لا حدود له.. هذا العجوز.. لا يبدو شريرا بأي شكل من الأشكال.. لماذا جاء بي إلى هنا؟!.. لماذا أسلوب العصابات هذا؟ !!.. و:

-هل تعرف أين أنت يا ولدي؟!.

قطع حبل أفكاري بسؤاله هذا.. هززت رأسي نفيا وأنا أنظر إليه وإلى (سمر) بقلق.. الغريب أنه تنهد بارتياح شديد!!.. ثم سألني بعدها بحذر:

-أخبرتني (سمر) أنك إنسان غير عادي.. فأنت يتيم الأبوين.. وعلاقتك مقطوعة بكل أقاربك تقريبا.. سوى جدتك التي تعيش معها.. كما أنك متفوق جدا في دراستك.. أليس كذلك؟!!.

نظرت إليه بقلق دون أن أنطق بحرف.. لكن.. وكأنه اعتبر سكوتي إقرارا بصحة ما يقول.. فأخذ نفسا عميقا.. ثم قال:

-فلتسمعني جيدا يا ولدي.. لا توجد مقدمات أو طريقة أفضل لإخبارك بما سأقوله لك!!.. لذا سأدخل في صلب الموضوع مباشرة!!.. ولكن.. أود أن أحذرك أولا.. إن ما سأخبرك به غريب!!!.. غريب للغاية ولا يصدق!!!.. لكنه حقيقي.. تأكد من هذا.. وسأطلب منك بعدها أمرا.. لكنك

لست مجبرا على قبول طلبي!!!.. تستطيع أن ترفض إن أردت.. ولو رفضت.. سأدعك ترحل بسلام.. أعدك بهذا!!!.. ولكن.. أرجوك أن تفكر جيدا قبلها!!!.

سكت قليلا.. وراح ينظر إلي آملا مني إبداء رأيي في ما قاله.. لكني لم أنطق بحرف.. بل ظللت أحدق به وكأنني فقدت قدرتي على النطق.. فسألني مرة أخرى:

-هل ستسمح لي بالحديث الآن؟!.. إن كلامي سيطول كثيرا!!.. أرجوك أن تعيرني كل انتباهك!!.. وستفهم بعدها كل شيء!!.

لا زلت أحدق به دون أن أرد.. قبل أن تكسر (سمر) حاجز صمتي وتقول متنهدة:

-(خالد).. قل شيئا أرجوك.. أنت بأمان الآن.. لا تخشَ شيئا.. نحن لا نقصد بك شرا!!. نظرت إليها.. ثم نظرت إلى ذلك الشيخ.. وتمتمت بخفوت:

-كلي آذان صاغية إذا كنتم ستنفذون وعدكم وتتركوني في سبيل حالي!!.. إنني إنسان مسالم.. لا أريد المشاكل مع أحد!!.

نظرت (سمر) إلى الشيخ بانتصار.. فعدّل من جلسته.. وأخذ نفسا عميقا.. ثم:

-أرجوك تذكّر يا ولدي.. سيكون كلامي طويلا.. طويلا جدا.. لذا أرجوك أن تصغي السمع وألا يشرد ذهنك لحظة!!.. أريدك أن تفهم جيدا ما سأقوله لك!!.

يبدو أنها ستكون محاضرة.. وليس مجرد كلام!!!.. هكذا قلت لنفسي.. ويبدو أنني لم أكن مخطئا!!.. على كل حال.. هززت رأسي موافقا بتوجس.. ثم.. تنهد الشيخ.. وقال:

-القصة بدأت منذ مدة طويلة جدا يا ولدي.. وتحديدا في أواخر الخمسينات من القرن الماضي.. كنت حينها شابا في مقتبل العمر.. أرى ما يحدث حولي من تغييرات إيجابية هائلة في (الكويت) بعد الثورة النفطية وأبتسم فخرا.. خاصة حين رأيت الحداثة والتنوير يخترقان صفوف مجتمعنا لتقوم الحكومة بتأسيس المدارس الحديثة.. وتنهي تعليم الكتاتيب القديم.. وتقوم بتوظيف عوائد النفط في بناء (الكويت).. بل وترسل الطلبة في بعثات إلى الخارج.. إن لدي صور كثيرة للذين ذهبوا إلى (بريطانيا) أو (مصر) للدراسة في أوائل الستينات.. تلك الصور التي عندما تراها وتشاهد معها المسرحيات والمسلسلات الكويتية القديمة.. لا تتصور أبدا أنها تعود إلى تلك الفترة.. بل تظن أنها آتية من المستقبل!!!.. كل شيء كان جميلا ومختلفا.. حتى الأزهار كانت مختلفة!!.. زهرة واحدة كانت تغمر بالشذى حيا كاملا من أحياء منطقة (جبلة).. والأغاني نفسها كانت أجمل والأفلام أمتع.. والبشر أنقى!!!.. لا زلت أذكر حضوري حفلة (أم كلثوم) عندما زارت (الكويت) في فترة الستينات.. والأيام التي كنت أردد فيها كلمات أغاني (عبد الحليم حافظ) مزهوا.. تصور أن الأغنية وقتها كانت حديثة طازجة خرجت من حنجرة الرجل منذ أيام قليلة لا أكثر!!.

ابتسم بحزن شديد وكأنه يسترجع ذكرى عزيزة جدا لديه.. ثم أردف وهو يزفر:

-كانت الحياة بسيطة وسهلة.. لم يعكر صفوها سوى ذلك الحادث المشؤوم.. عندما أصيبت شقيقتي رحمها الله بمس من الجن!!!.. نعم.. تصور هذا.. لا أذكر كيف بدأ الأمر.. لكني أذكر جيدا أنني كنت أراها بعيني تتحدث بصوت رجل وتتغير ملامحها الرقيقة إلى أخرى مخيفة.. حتى بدت أحيانا وكأنها فتاة أخرى!!!.. وأحيانا كنت أراها تصرخ بألم وكأن هناك جحيما بداخلها.. لم يكن الأمر سهلا بكل تأكيد.. فنحن نسمع دائما عن آخرين أصيبوا بمس من الجن.. لكن أن

يحدث هذا في بيتك ولأقرب الناس إليك لهو أمر مخيف بالفعل!!!.

بدأ كلامه بالاستحواذ على اهتمامي.. ورحت أنظر إليه بذهول.. فابتسم لهذا.. وأردف قائلا:

-لقد عرضناها على أكثر من شيخ دين وراحوا يقرؤون عليها القرآن الكريم والأدعية.. فتراها تصرخ وتتعذب.. ولكن.. لم يطرأ أي تحسن عليها لأيام طويلة.. ولم يخرج منها الجن الذي يسكنها على الإطلاق.. ورغم أن الطب النفسي لم يكن دارجا في ذلك الوقت.. إلا أن والدي -رحمه الله-أخذها إلى طبيب نفسي بريطاني الجنسية عله يجد لها حلا.. بعد أن بلغ منا اليأس مبلغا في أن تعود شقيقتي كما كانت!!!.. خاصة بعد أن أصبحت تلك النوبات المخيفة تصيبها بازدياد وبشكل مخيف.. لتسوء صحتها يوما بعد يوم!!!.

سكت قليلا.. وتنهد بعمق أمام لهفتي.. ثم أردف:

-ولكن.. اتضح أننا جميعا كنا مخطئين!!!.. فشقيقتي لم تكن مصابة بمس شيطاني أو بالجن كما ظننا.. إنما هي مريضة نفسيا فحسب.. وبمرض لم أسمع به من قبل.. يطلق عليه اسم (تأثير الغفلة) ([38]).. وهو ما يجعل عقلها الباطن يطلق طاقات كامنة.. فتتوهم أن هناك روحا شريرة أو مسّا من الجن يسكنها!!!.. ولكنها تصبح أفضل حالا إذا أخذت ما يظن عقلها الباطن أنه يشفيها أيضا.. لذا كانت قراءة القرآن الكريم تجعلها تصرخ بجنون.. ونحن نظن أن الجن الذي يسكنها يتعذب وعلى وشك الخروج منها!!.. ولكن في واقع الأمر.. لم يتعدَ الأمر عقلها الباطن أيضا وهو يعرف أن القرآن الكريم له علاج ضد الجن!!!.. أي أن الصراع النفسي كان بين عقلها الباطن وعقلها الواعي فحسب!!.. وهكذا ظلت المسكينة في هذا الصراع النفسي لفترة طويلة إلى أن تم علاجها بعد جلسات نفسية مكثفة!!!.. وبالطبع لا أقول هنا أن حالات مس الجن كلها وهم.. إنما عدد هائل منها اتضح أنه كذلك وأنه ليس سوى (تأثير الغفلة) فحسب ([39]).

سكت مرة أخرى وهو ينتظر مني سؤالا أو ملاحظة.. لكني كنت أنظر إليه باهتمام شديد.. فالتقط نفسا عميقا.. ثم قال:

-المهم أن حادثة شقيقتي تلك جعلتني أنتبه إلى حقيقة مهمة نغفل عنها طوال الوقت.. وهي أننا.. البشر.. وافدون جدد في هذا العالم!!!.. لقد خلقنا منذ فترة قصيرة نسبيا بين الميكروبات والوحل.. وأفكارنا ومشاعرنا ليست تحت سيطرتنا بالكامل.. وهذا يعني أن عقل الإنسان يحوي أسرارا هائلة لا حصر لها.. وأنه جهاز حساس جدا يحتاج إلى دراسة جادة بحق.. وقد عرفت حينها عن علم (الباراسيكولوجي) الذي يدرس كل الظواهر العقلية الغامضة ويحاول كشف أسرار العقل والقدرات البشرية.. بل وقررت دراسة هذا العلم على نفقة والدي الثري الذي طلب مني أن أدرس ما أرغب بدراسته دون أي تردد.. فالمال لم يكن ليشكل لنا عقبة.. خاصة وأنني كنت متفوقا جدا في دراستي راغبا في كشف أسرار هذا العلم!!.

سألته باستغراب:

-من الغريب أن تفكر بدراسة علم (الباراسيكولوجي) في تلك الفترة.. لأنه علم لا زال مجهولا لدى الكثيرين

حتى في زمننا الحالي!!.. فما بالك بفترة الستينات؟ !!.. ثم هل هناك جامعات تدرس هذا التخصص أصلا؟!!.

أومأ برأسه إيجابا.. ثم قال باهتمام:

-لم أفكر بدراسة هذا التخصص لولا ما أصابه شقيقتي كما أخبرتك.. ثم.. نعم.. هناك جامعة (دووك) في ولاية (نورث كارولاينا) الأمريكية.. وهي التي افتتحت أول كلية لل(الباراسيكولوجي) ([40]) في العالم.. لذا فقد رحلت إلى هناك عازما على دراسة هذا التخصص وكشف كل أسراره!!!.. وعشت بعدها بالفعل لأكثر من عقد من الزمان في (الولايات المتحدة الأمريكية).. حيث قمت بعمل الكثير من التجارب العلمية الموثقة حول هذا العلم.. لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق مع علم حديث الولادة كهذا.. لكني كنت مستمتعا بما أفعله أيما استمتاع!!!.. وهذا ما عودني والدي -رحمه الله -عليه منذ صغري.. أن لا أقضي حياتي بانتظار أن تنتهي الفترة كذا والفترة كذا.. أن تنتهي فترة الدراسة.. أو تنتهي فترة التجنيد الإجباري.. إلخ.. لأنك عندما تفكر بهذه الطريقة.. ستجد أن حياتك صارت مجموعة من الفترات يجب أن تنتهي!!.. ثم تكتشف فجأة أنك بلغت نهاية العمر ولم تنعم بحياتك يومًا واحدًا.. يجب أن تستمتع بكل فترة كأنها هي الصورة الوحيدة النهائية لحياتك.. لذا كنت مستمتعا في دراستي بحق.. إلى أن حصلت على درجة الدكتوراه أخيرا.

راح يلهث بقوة بعد هذا الكلام الشائك.. وكأن الكلام قد أرهقه كثيرا.. فاحترمت صمته الذي دام بضع ثوان.. ثم أكمل:

- كنت أعود إلى (الكويت) لزيارة عائلتي في أوقات متقطعة.. قبل العودة النهائية في منتصف السبعينات بعد سنوات طويلة قضيتها في (الولايات المتحدة الأمريكية).. عالما أن تخصصي هذا لن يحظى بقبول أي جهة في (الكويت).. حكومية أو حتى خاصة!!!.. إلا أن الأمر لم يهمني كثيرا.. إذ كانت ثروة والدي تؤمن لي مستقبلا مضمونا وتجعلني متفرغا تماما لإجراء أبحاثي.. ولكن...

لم يكمل عبارته.. بل تنهد تنهيدة حارة أشعرتني بالشفقة تجاهه.. ثم أردف بقهر:

- عند عودتي النهائية إلى (الكويت) واستقراري فيها.. شعرت أن هناك كارثة قادمة على الطريق!!!.. إذ بدا واضحا حينها أن التراجع يصيب كل مجالات البلد شيئا فشيئا.. وسنة بعد سنة.. إلى أن وصل الفساد فعليا مع مرور الأيام لمرحلة لا يمكن بعدها أن تعود الأمور كما كانت عليه!!!.. لأفقد الأمل تماما مع مرور السنوات!!!.. حتى ذلك الضوء الذي يتخيل البعض وجوده في نهاية النفق المظلم الذي نعيشه.. لا يعدو أن يكون مصابيح شاحنة ضخمة قادمة بسرعة كبيرة باتجاه خط سيرنا المتعثر!!!.. لقد ضاع الطريق في لحظة ما.. ربما منذ عام 1980!!!.. حين بدأ ينمو عندنا التطرف الديني والتعصب الطائفي والقبلي بشكل مفاجئ!!!.. هل كان الشعب الكويتي منحلاً أخلاقيا أو قليل التدين في فترة الستينات؟!.. إطلاقا!!!.. بل كان من أكثر الشعوب تدينا.. لكنه التدين السمح الذكي الذي يحترم الآخر ولا يسعى في صلف لكسب حقده!!.

راح يعض على شفتيه قهرا وسط نظراتي المتسائلة عن جدوى كلامه هذا!!!.. لكنه لم يكترث لنظراتي.. بل أردف بانفعال واضح:

-إن مشكلتنا الرئيسية تنصب في التعليم.. فتلك المليارات التي أُنفقت على التعليم لم نحصد منها سوى هذا الجهل الذي تراه الآن في كل مكان.. مجرد خواء داخلي في عقول معظم الناس معجونا بالتعصب القبلي والطائفي والديني الذي اختلط مع الفساد المالي والإداري ليصبح كتلة صماء واحدة.. نتج عنه الجيل الذي تراه الآن والذي يمسك بزمام الأمور!!!.

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلاما كهذا من شيخ في هذا السن!!!.. حتى أنني أصبت بإحباط هائل بالفعل!!!.. فسألته مستغربا:

-أعرف أن الحقيقة قاسية.. وأعترف أنني أنظر إلى الأمور بسوداوية أيضا.. ولكن.. نظرتك أنت لحال البلد لا تصدق.. لقد سببت لي الكآبة بكلامك هذا.. لماذا كل هذا السواد؟ !!.. سيخرج جيل في المستقبل لينقذ كل شيء!!!.. هذا هو رهاننا الوحيد.. هناك أمل دون شك.

رد بغضب وجسده يرتجف:

-ليست الحقيقة قاسية يا بني.. ولكن الأمر شبيه بالانفلات من الجهل.. إنه مؤلم كحالة الولادة.. هل تعرف ما هي مشكلتنا؟!.. إن القادرين على الحلم عاجزون عن الفعل.. بينما القادرون على الفعل عاجزون عن الحلم!!.

قلت بانكسار أمام هذا الرد:

-هناك أمل في المستقبل.. هناك أمل دون شك!!!..

رد بأسف:

-أي مستقبل يا ولدي؟ ؟!.. هل تعلم أن هناك تقريرا للأمم المتحدة يقول أن الانفجار السكاني سيكون على أشده في دول العالم الثالث تحديدا؟!.. وهذا يعني كارثة مستقبلية.. فما الذي سيحدث حينها برأيك؟!.. قد يتمثل الحل على الأرجح في التخلص من أعداد كبيرة من البشر من خلال نشر فيروسات فتاكة مثلا!!!.. حتى نخفف العبء على العالم.. وبطبيعة الحال.. ستكون الشعوب الأكثر تناسلا والأقل إنتاجا هي المرشحة لمثل هذه الإبادة!!.. وانظر حولك لتعرف من هي هذه الشعوب.. إنهم نحن بكل تأكيد.

كان كلامه مرعبا بحق.. وكما قلت سابقا.. لم أشعر يوما بالسوداوية المحيطة بواقعنا كهذه المرة!!!.. فسألته بحذر:

-ما الذي تحاول قوله؟ !!.. المعذرة.. لكنك لم تفعل شيئا سوى الحديث عن أحوال البلد السيئة وعن تجربتك في الحياة!!!.

قال بأسى متجاهلا كلامي:

-لقد حاولت أن أصل إلى المسؤولين في بدايات الثمانينات لأعرض عليهم مشروعي الهائل الذي سأخبرك به بعد قليل.. والذي سيجعل (الكويت) من أفضل بلدان العالم في كل المجالات دون أي مبالغة.. لأن مشروعي يعتمد على تنمية قدرات الإنسان وهو الثروة الحقيقية لأي وطن.. لكن.. فوجئت في البداية بمرافقنا الحكومية!!.. مبان خانقة مزدحمة بالعرق والأنفاس!!.. درجات مهدمة.. وأكوام الملفات والفئران ورائحة دورات مياه لم يتم إصلاحها منذ قرن!!.. لكني رغم هذا ذهبت إلى المسؤولين وقابلتهم!!!..

-والنتيجة؟!!.

نهض من مكانه مترنحا بسبب كبر سنه.. فأسرعت (سمر) تساعده وتعطيه عصاه.. ليمسك بها.. وينظر إلي بقهر وهو يقول:

-لم يستمع إلي أحد.. معظمهم رفض حتى مقابلتي.. وبعضهم قابلني بجفاء وسخر مني!!!.. حتى راح سؤال غريب يلح على عقلي!!.. ما الخطأ الذي ارتكبته؟!.. هل الخطأ هو أنني موجود في (الكويت)؟ ؟!.. هل الخطأ هو أنني موجود أصلا؟ ؟!.. لا أعلم.. لكن أعلم جيدا أن الشعب الكويتي قد تغير بحق.. ولم أعد أستطيع التنبؤ بردود أفعاله!!!.. إن شعبا يتلف المرافق العمومية

بلا توقف ويرمي بالقاذورات في كل مكان لهو في مشكلة حضارية كبرى!!!.. وهو نتاج طبيعي لجيل كبر وترعرع ليرى كل من حوله يدوس القانون ويعتدي على الناس.. ليأتي بعدها نائب القبيلة أو العائلة ويخرجه من المشكلة.. جيل تعود على كبت مشاعره وآرائه ومعتقداته حتى تشرَّب النفاق الاجتماعي.. واعتاد العيش بشخصيتين متناقضتين.. شخصيته الحقيقية وتلك التي يريده المجتمع أن يكون عليها.

سكت طويلا وقد انهمرت دموعه لأول مرة.. ثم مسحها بألم حتى شعرت برغبة عارمة باحتضانه ومواساته!!!.. وراح بعدها يقول بحزم:

-كل ما ذكرته لك.. جعلني أفكر بالاعتماد على نفسي والعمل وحيدا.. وأن أقدم شيئا بعلمي!!!.. شيئا ربما أنقذ من خلاله وطني!!!.. نعم.. رجل واحد يستطيع أن يصنع الفارق.. والتاريخ مليء بأمثلة كهذه!!.

نظرت إليه بعدم فهم.. وسألته في حيرة:

-إنك لم تتحدث سوى عن أحوال البلد والمصائب التي نعيشها.. لماذا أتيتم بي إلى هنا؟!.. ماذا تريدون مني بالضبط؟!.. من أنتم؟ !!.. ما الهدف من كل هذا؟!!.

نظر إلي بغموض.. ثم قال:

-حسنا.. كنت أقول أنني أمضيت أكثر من عقد من الزمن أدرس (الباراسيكولوجي).. ثم عدت إلى (الكويت) محاولا أن أقنع المسؤولين بافتتاح قسم خاص في جامعة (الكويت) عن هذا العلم.. لكن.. وجدت جبالا من العراقيل.. فعندما تتحدث مع المسؤولين عن علم كهذا في (الكويت).. يكون الأمر شبيها بمحاولتك الحديث مع جنين حديث الولادة عن النظرية النسبية!!!.. لقد عرفت حينها أن الحياة هنا مليئة بالحجارة.. لكني أقسمت أنني لن أتعثر بها!!.. بل سأجمعها وأبني بها سلما أصعد به إلى النجاح!!!.. ورغم أنني تلقيت الكثير من العروض المغرية من الدول المتقدمة.. إلا أنني لم أسمح لنفسي بالإقامة خارج (الكويت) إلا للدراسة.. فمن على شاكلتي لا يعرفون لأنفسهم عملا ولا بيتا ولا قبرا خارج (الكويت).. سافرت إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) في الستينات.. وأجريت أبحاثا في أوروبا في السبعينات.. ثم عدت إلى وطني.. دائما أعود!!!.. فحب (الكويت) بالنسبة لي هو نوع من الانتماء البيولوجي.. لا حيلة لي فيه ولا إرادة.. وكان هذا يزيدني عزما وإصرارا على إحداث التغيير!!!.. لذا أقسمت أن أعمل طوال عمري لأحقق الحلم.. أن أصنع الإنسان!!!.. إنه سبيل التنمية الوحيد.. أهم من كل الموارد الطبيعية الأخرى!!.. فقمت بتطوير أبحاثي يوما بعد يوم.. إلى أن توفي والدي رحمه الله.. وورثت نصيبي من ثروته.. عندها اشتريت هذا البيت لأكمل فيه أبحاثي بعيدا عن صخب الحياة.. خاصة مع بقائي أعزب.. ووفاة أفراد عائلتي واحدا تلو الآخر.. رحمهم الله جميعا.. عندها فقط.. بدأت رحلة الاكتشافات التي ستغير مجرى وطني.. وربما العالم بأكمله!!!.

شعرت أنه عند هذه النقطة تحديدا.. سيدخل في لب الموضوع.. وسيخبرني بالأهم.. ولم أكن مخطئا حين تناول أقراصا ناولته إياها (سمر).. ليجرع بعدها كوبا من الماء.. ويقول متحفزا:

-أرجوك أن تسمع ما سأقوله الآن جيدا.. إنه أهم ما في الأمر.. فمنذ شرائي لهذا البيت في أواخر الثمانينات.. بدأت بسلسلة معقدة جدا من التجارب على العقل البشري.. وكانت البداية بطبيعة الحال مع فئران التجارب.. عندما أطلقت زوجا من الفئران عبر متاهة معقدة لأدرس قدرتها على التذكر والتعلم!!!.. وكنت أضع في نهاية المتاهة قطعة من الجبن.. وبعد عدة محاولات راقبت

فيها تحركات الفئران بكل اهتمام.. وجدتها قد حفظت أخيرا المتاهة عن ظهر قلب!!!.. وأصبحت تعبرها بسهولة لتصل إلى قطعة الجبن دون أن تخطئ.. ثم تركت بعدها زوج الفئران هذا يتناسل لينتج المزيد من الفئران الوليدة التي قمت باختبارها أيضا.. فأطلقتها داخل المتاهة نفسها.. ووضعت قطعة الجبن في نهايتها.. وكانت المفاجأة!!!!.. الفئران الوليدة التي لم تختبر المتاهة بنفسها من قبل.. قطعت طريقها بسهولة دون خطأ واحد حتى بلغت قطعة الجبن!!.. وكأنها ورثت ذاكرة أبويها على نحو أو آخر!!!.. وقد أبهرتني هذه النتيجة بحق.. حتى أنني كررت التجربة أكثر من مرة.. فحصلت على النتائج نفسها ([41])!!.

سكت أمام أنفاسي المتلاحقة وأنا أستمع إلى هذا الكلام المذهل.. قبل أن يكمل:

-لقد تبين أنه وعلى نحو ما.. تنتقل ذاكرة الأبوين إلى الصغار فور ولادتهم.. ولكن لفترة قصيرة من الزمن فحسب..

فقد أثبتت أبحاثي أن الفئران تولد حاملة ذاكرة الأبوين بالفعل.. ثم لا تلبث تلك الذاكرة الموروثة أن تنزاح جانبا وتختبئ في ركن مظلم من المخ لتفسح الطريق أمام الذاكرة التي تكتسبها مع مرور الأيام وتزايد الخبرات!!!.. فوجدت أن الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الذاكرة الموروثة هي تنميتها منذ الأيام الأولى للولادة!!!.. وهذا بالطبع كلام مؤكد قمت بتجربته بنفسي ([42]).. عندها فقط رحت أفكر بعمق وأطرح سؤالا خارق الأهمية.. ترى.. هل يسري هذا الأمر على البشر أيضا؟!.. هل عقولنا تحوي في بقعة مجهولة منها جزءا من ذاكرة الأجداد؟! !!.. فلو صحت توقعاتي فإن هذا يعني أن عقولنا تحوى مكتبة هائلة فيها تاريخنا البشري كله.. وفيها كل المعارف التي تلقاها آباؤنا وأجدادنا!!!.. أي أن الذاكرة التي نحملها في رؤوسنا وأمخاخنا والتي نحيا ونتعايش بها ليست خاصة بنا وحدنا!!.. بل هي في واقع الأمر ذاكرة جماعية.. ذاكرة توارثناها جيلا بعد جيل!!!.. وهذا يعني أن كل جيل ينقل ذكرياته إلى الجيل التالي.. وفي كل مرة..

=تضاف الذاكرة المكتسبة إلى الذاكرة الموروثة.. فيتم توريث ذاكرة أكبر.. وأكبر!!.. وبعد خمسة أو ستة أجيال سنجد لدينا ذاكرة هائلة عملاقة تحوى أضعاف ما كانت تحويه ذاكرة الأجداد!!.. وهكذا.. كل جيل يولد يتوافق مع الزمن الذي ولد فيه.. فيأتي أكثر ذكاء وبراعة وحنكة.. وتكون معلوماته أكثر.. وأكثر.. وهذه النظرية أوصلتني إلى ما أطلقت عليه اسم (الذاكرة البشرية التراكمية المشتركة).. تماما كشبكة (الانترنت) التي تمتد من أقصى الأرض إلى أقصاها وفي كل الاتجاهات ([43]).

سكت قليلا وكأنه يرتب معلوماته.. فاحترمت صمته وأنا أنظر إليه بشغف راغبا منه أن يكمل.. في حين أرى (سمر) مستمتعة بكل كلمة يقولها هذا العجوز وكأنها تسمع كلامه لأول مرة!!!.. ثم:

-لقد أثبتت أبحاثي أنه من الممكن أن تصنع عقولنا فيما بينها شبكة!!!.. شبكة عقلية معلوماتية بلا حدود.. تماما كـ(الانترنت).. فكل منا لديه قدرة كافية على قراءة عقول الآخرين واكتساب الخبرات منهم والاستعانة بتجاربهم وتبادل التحذيرات والمعلومات!!.. ولا تجعل هذا يدهشك.. أو تسارع باستنكاره بحجة أنه أمر غير موجود!!.. فهناك العديد من السمات التي كنا نمتلكها بالفعل ثم قضت عليها الحضارة وأخمدها التطور في العقل البشري!!..فالإنسان القديم مثلا كانت لديه القدرة على تحريك بوق الأذن.. أو ما يطلق عليه البعض اسم (صماخ الأذن) لتوجيهه نحو مصدر الصوت.. وكانت هذه قدرة معتادة إلى أن ضمرت شيئا فشيئا ولم تعد متاحة لأحد تقريبا!!!.. وهناك أيضا غريزة التنبؤ بالخطر التي كان يمتلكها الإنسان القديم.. إلا أنها ضمرت

أيضا مع تطور وسائل الحماية ([44]).

إنني لم أسمع بهذا الكلام من قبل!!.. هذا مثير.. مثير للغاية!!!.. رحت أنظر إليه مشدوها وهو يشير إلى رأسي بإصبعه قائلا:

- هذا هو بيت القصيد.. إن المخ البشري يحوي وسيلة اتصال بأمخاخ الآخرين ولكن السمة ضمرت مع الحضارة..

فالقاعدة العلمية تقول أن العضو المستعمل ينمو.. والمهمل يضمر.. والقدرة المستخدمة تنمو.. والقدرة المهملة تضمر أيضا!!.

شعرت وكأنني بدأت بفهم ما يريد قوله.. فأكملت قائلا:

-الوسيلة الوحيدة للإبقاء على تلك القدرات العقلية إذاً هي تنميتها طوال الوقت.. وتحديدا منذ الولادة.. أليس كذلك؟!!.

ابتسم لكلامي وكأنه يهنئني على ذكائي.. لكني تذكرت أمرا هاما.. فسألته بقلق:

-لا تقل أنك قمت بعمل تجارب على أطفال حديثي الولادة؟!.

رد بحزم:

-لا شيء يستوجب العار في هذا.. ففي سبيل وطني وفي سبيل العلم كل شيء يهون.. نعم.. ما تقوله صحيح.. خاصة وأنني مؤمن بقوة أننا لا نستطيع أن نبني مستقبلاً لأطفالنا.. بل يجب أن نبني أطفالنا للمستقبل!!.. لذا فقد بدأت تجاربي من هذا المنطلق بالفعل.. إذ قمت بالحصول على بعض الأطفال حديثي الولادة مجهولي النسب أثناء الغزو العراقي من دور الرعاية الاجتماعية.. ثم جئت بهم إلى هنا.. وتركتهم يتواصلون ويتحدثون بعقولهم دون أن أكسبهم أي عادات.. وفي بيئة مدروسة عزلتها تماما عن المؤثرات الخارجية.. حتى بلغوا الثالثة من العمر.. وجاءت النتائج بعدها مدهشة بحق!!!.. فقد طور هؤلاء الأطفال فيما بينهم شبكة معلومات عقلية متكاملة بحيث صاروا يتعاملون ويتخاطبون ويتبادلون المعلومات دون الحاجة إلى الحديث.. بل أنني وضعت أحد هؤلاء الأطفال في غرفة منفصلة ووضعت أمامه عددا من أشكال اللعب كلها لطيفة وجميلة.. فيما عدا المكعب الأحمر الذي ما أن لمسه.. حتى سرى في جسده تيار كهربائي محدود القوة جعل الطفل ينفر منه!!!.. وكان هذا متعمدا بالطبع.. وبعدها أحضرت طفلاً ثانيا.. ووضعت أمامه مجموعة الأشكال نفسها!!!.. وعلى الرغم من أن الطفل الثاني لم يلتق بالأول الذي نقلته إلى حجرة أخرى بعد التجربة.. إلا أنه استمتع باللعب بكل الأشكال.. وتجاهل المكعب الأحمر تماماً!!!!.. بل وأبدى خوفه منه!!!!.. وتكرر هذا مع الطفل الثالث.. والرابع.. والخامس ([45])!!.

سكت قليلا وهو ينظر إلي.. فسألته بإلحاح:

-ماذا حدث بعد هذا؟ !!..

ابتسم بفخر لتفاعلي الشديد مع كلامه.. فأكمل:

- كان الأمر واضحا.. لقد نقل الطفل الأول خبراته كلها إلى عقول الأطفال الآخرين دون حتى أن يلتقي بهم!!!.. نقلها عبر شبكة معلومات عقلية غير مرئية!!!.. وكان هذا كشفا رهيبا دون شك.. وأنا أدون وأسجل كل شيء بانبهار واضح.. حتى كبر هؤلاء الأطفال مع مرور الأيام ووصلوا إلى

سن الخامسة.. بالطبع كان لا بد من التنازل عنهم بعدها وإعادتهم إلى وزارة الشؤون ليتلقوا تعليمهم.. فلم أكن أريد القضاء على مستقبلهم.. إنهم أبناء وطني أولا وأخيرا!!.. ولم تكن عملية إعادتهم عسيرة على كل حال.. خاصة مع مبلغ محترم تدفعه للموظف أو المسؤول الفلاني.. المهم أن هؤلاء الأطفال سيكبرون ويكتشفون أنهم أذكى من غيرهم.. وأنهم يحملون خبرات ومعلومات ستبهر الجميع.. بعد أن أنرت لهم كل المناطق المظلمة في عقولهم!!!!.. سيكون لهم شأنا عظيما في المستقبل بكل تأكيد.

سألته بعينين متسعتين وأنا أشهق بقوة منبهرا:

- هذا رائع.. رائع.. ولكن.. لماذا لم تخرج تلك التجارب إلى المسؤولين؟ !!.. إن تجاربك هذه عبقرية.. وستحدث ثورة في (الكويت).. بل في العالم كله!!!.

قال بأسى:

- كما أخبرتك.. أنت تعرف عقلية المسؤولين في (الكويت).. تخيل منظري وأنا أقف أمام أحدهم وأتحدث معه عن علم (الباراسيكولوجي).. سيكون مشهدا طريفا بالفعل!!!.. دعك من أن إجراء مثل هذه التجارب بشكل علني مهما كانت نتائجها سيقع تحت طائلة القانون في جميع الدول بسبب منظمات الطفولة ولجان حقوق الإنسان!!!.. لكن المهم أنني أثبت من خلال تجاربي هذه أننا نستطيع أن نبني طفلا يحمل كل مقومات النجاح وكل الخبرات العقلية التي نريده أن يتعلمها.. وبأقل تكاليف ممكنة!!!.

نظرت إليه بفهم.. ثم سألته باستغراب:

-لكن.. لا يمكنك الاستمرار بهذه التجارب إلى الأبد.. الأمر يبدو عسيرا ويكاد أن يكون مستحيلا مهما بلغ ثراؤك!!!.. إذ يبدو أنك لا زلت بحاجة إلى المزيد من التجارب!!!.. ولن تستطيع أن تحصل دائما على أطفال حديثي الولادة لإجراء هذه التجارب عليهم.. خاصة مع استبعادك لفكرة عرض ما توصلت إليه أمام المسؤولين!!!.. ثم.. مهلا.. لماذا لم تذهب إلى المراكز العلمية في الغرب؟؟!!.

رد بإصرار:

- يا بني.. إن ما أفعله هو من أجل (الكويت) فحسب.. ولن أذهب لأي بلد آخر مهما كانت العوائق هنا!!!.. أما ما تقوله بخصوص صعوبة إجراء تجاربي واستمرارها فهو صحيح بكل تأكيد.. فقد أردت الاستمرار في تجاربي بالفعل.. ولكن.. أنت قلتها بنفسك.. من غير المعقول أن أحصل بين الحين والآخر على أطفال حديثي الولادة لأجري عليهم تلك التجارب!!!.. لذا.. فقد جاءتني فكرة أخرى عبقرية.. أن أقوم بتجاربي تلك ولكن على متطوعين كبار في السن!!!.. مع مراعاة ذاكرتهم المكتسبة التي سأزيحها جانبا لأدخل في الجوانب المظلمة من عقولهم!!.. و....

قاطعته بشرود:

-تتحدث عن التنويم المغناطيسي!!.. أليس كذلك؟!.

نظر إلي بإعجاب شديد وهو يقول:

-إنك حقا ذكي!!!.. فالتنويم المغناطيسي بالفعل يساعدنا على تصفح عقل الإنسان وكأنه كتاب مفتوح!!.. وهذا قد يخرج منه معارف لم يتلقاها شخصيا.. مما يثبت أنه قد ورثها عبر ذاكرة

الأجداد!!.. وقد قمت بهذا فعليا مع عدد من الأشخاص الذين أخضعتهم للتنويم المغناطيسي مقابل بعض المال.. بعد أن حقنتهم بمهدئات حتى يستسلموا لي تماما!!.. فلا يمكن إخضاع أحد للتنويم المغناطيسي رغم إرادته ([46])..

المهم أنني طلبت من هؤلاء الأشخاص العودة بذاكرتهم إلى الوراء.. لم يكن الأمر سهلا بالطبع.. فالتنويم المغناطيسي لا زال علما حديث الولادة لم نكشف كل أسراره بعد.. لكني رغم كل شيء.. خرجت بنتيجة مرضية جدا.. فأحدهم عاد بذاكرته إلى أيام طفولته الأولى.. ثم تجاوز هذا إلى ذكريات الرحم.. منذ تكون المخ!!.. ولم يقف الأمر عند هذا الحد.. فهناك متطوع آخر راح يتحدث بلغات عجيبة لم يعرفها في وعيه إطلاقا!!.. ولا أنسى ذلك المتطوع الذي تحدث بلسان جندي فرنسي من جيش (نابليون بونابرت)!!!.. ذكريات عجيبة متداخلة مضطربة انهمرت من ألسن هؤلاء المتطوعين في غزارة غير مسبوقة ([47]).

ساد المكان صمت مهيب بعد كلامه هذا.. ثم قال هامسا بما يوحي بخطورة ما سيقوله:

- وهذا ليس كل شيء بالطبع.. فالتنويم المغناطيسي يعمل على إيقاظ خلايا المخ النائمة كما علمنا.. أي أن كل شهود الجرائم والحوادث مثلا سيمكنهم تذكر أدق التفاصيل إذا ما خضعوا للتنويم المغناطيسي!!.. تخيل مدى الفائدة العظيمة التي سنجنيها جراء كشف ألغاز هذا العلم!!.. وبالطبع كنت أشهد تلك النتائج بنفسي وأنا أسجل.. وأدرس.. وأحلل.. وأحاول أن أفهم.. المشكلة الرئيسية كانت تكمن في التنويم المغناطيسي نفسه الذي لا زال علما غامضا لم يتمكن أحد من فك كل طلاسمه حتى الآن!!!.. ولو فعلت.. سيكون هذا أهم إنجاز في القرن الحادي والعشرين.. فبواسطة التنويم المغناطيسي.. سيتحرر العقل الباطن من كل القيود التي يفرضها عليه عقله الواعي.. ويستعيد بعدها الإنسان كل التفاصيل من أعمق أعماق الذاكرة.. بل وسيكون فيها عقل الإنسان متفتحا على نحو مدهش.. وسنستطيع أن نعمل بصورة عكسية أيضا.. إذ سنتمكن من تلقين الإنسان كماً هائلاً من العلوم ليحفظه في عقله إلى الأبد.. وسيستوعب بعدها في ساعات قليلة ما قد يحتاج إلى أسابيع من الدراسة الشاقة!!!.

سألته باهتمام شديد:

-وهل تظن أنك ستكشف يوما أسرار التنويم المغناطيسي؟!!.

زفر بقوة.. ثم قال:

-إنني أحاول يا بني!!!.. أحاول منذ سنوات!!!.. إنه السبيل الوحيد لإنجاح تجاربي بصورة كاملة.. المشكلة أن التنويم المغناطيسي لم ينجح إلا بنسبة 17% فقط مع عينات التجارب البشرية ([48]).. ولكنها بداية مشجعة للغاية.. فهذا هو العلم كما تعلم.. لا تعليمات ولا تحيزات مسبقة.. التجريب هو المقياس الوحيد.. إن ما نعرفه هو قليل دون شك.. لكنه دقيق وصائب.. هذا هو المهم.

سكت بعد هذا الحوار الشائك.. وأمسك بكوب من الماء ناولته إياه (سمر).. فجرعه على دفعات وبيد مرتجفة سببها كبر سنه!!!.. لينظر إلى ساعته وكأنه ينتظر موعدا ما!!.. ثم أكمل قائلا وسط نظراتي المتلهفة:

-إنني آمل في صنع عقول للمستقبل يا (خالد)!!.. هذه العقول هي المستقبل الحقيقي لوطننا!!.. أما النفط وكل الثروات الأخرى فهي ليست سوى عوامل مساعدة.. فالتنمية هي في الإنسان فحسب!!.. هناك دول مثل (الكونغو) أو (نيجيريا) تجدها غنية جدا بأراض شاسعة وموارد

طبيعية لا حدود لها.. لكنها دول فقيرة جدا!!.. بالمقابل تجد (هولندا) دولة صغيرة أكثر من نصف أراضيها مدفونة تحت البحر.. لكنها رغم ذلك من أكثر الدول الزراعية تطورا.. فأهم صادرات (هولندا) للعالم هي الزهور والنباتات الداخلية.. وهي نباتات يتم زراعتها في الهواء وبدون تربة!!.. (بلجيكا) كذلك من أصغر دول الاتحاد الأوروبي لكنها تصدر أفضل شيكولاتة للعالم.. ولكن هل نبات (الكوكا) يزرع فيها؟؟!!.. لا.. إنها تستورده من (غانا).. فهل سبق لك أن سمعت بشكولاتة (غانية)؟!.. أما الطليان فهم أفضل من صنع ماكينات القهوة.. لكنهم لا يزرعون البن!!!.. بينما البن يزرع في (البرازيل).. فهل سمعت بالمقابل عن ماكينة قهوة برازيلية الصنع ([49])؟ !!.. إنه تحرير العقل والانفتاح والعلم يا بني!!!.

سألته بفضول شديد:

-وهل تأمل أن تغير كل شيء بمفردك؟؟!!.

رد بإصرار:

- ولم لا؟!.. التاريخ مليء بالعظماء الذين غيروا مصير أمم بأكملها!!.. إنني آمل بصنع عقول للمستقبل تدير وطننا كما يجب أن يدار!!.. سأكشف كل أسرار التنويم المغناطيسي.. وسأتمكن من زرع المعلومات في عقول الناس.. ليصبح ولداً في سن المراهقة يمتلك من العلوم ما يعادل آلاف الكتب.. إنني أتحدث عن إطلاق كل الطاقة الكامنة في العقل.. وهي طاقة ليست بالهينة كما تعلم!!!.. وهذا بالمناسبة ليس كلاما عائما!!.. بل هذا ما أثبته لنا التاريخ.. ففي الحرب العالمية الأولى.. كانت الطائرات تطير بسرعات تقل عن سرعة السيارة العادية الآن!!!.. وعلى الرغم من ذلك.. كان الخبراء يصفون مناورات الطيار آنذاك بأنها خيالية!!!.. ويعتبرونه من المجازفين لأنه يطير بهذه السرعات المخيفة.. وفي الحرب العالمية الثانية.. كانت سرعة الطائرات قد تضاعفت ثلاث مرات على الأقل وظل الطيارون يناورون بنفس المهارة.. وتطورت عقولهم لتتكيف مع السرعات الجديدة ووصفهم الخبراء أيضا بالمغامرين الفرسان.. أما في حرب تحرير (العراق) الأخيرة فقد تجاوزت سرعة المقاتلات الحربية ضعف سرعة الصوت!!!.. وكان طياروها قادرين على المناورة أيضا وتحديد الأهداف بكل دقة ([50]).. العقول تتقدم وتتطور يا بني.. فتخيل ما سيحدث بعد كل هذا لو أنني كشفت السر ووصلت إلى إيقاظ خلايا المخ النائمة؟!!.

ثم قال بلهفة وهو يرتجف:

-إنني قريب جدا من سر العقل البشري.. صدقني يا بني!!!.

سألته باستغراب:

-أي سر ؟؟..

-لا أعلم!!!.. لهذا هو سر.. لكنه سر عظيم.. ثق في كلامي!!.

ثم.. أشرت إلى (سمر) وأنا أقول:

-وماذا عنها؟!.. هل هي ابنتك؟!.

ابتسم بحنان وهو يقول:

- إنها مجهولة النسب!!.. أحد الأطفال الذين حصلت عليهم أثناء الغزو.. لقد تعلق قلبي بها وأحببتها كابنتي.. ولم أتمكن من تركها.. فقمت بتربيتها وهي تعيش معي منذ كانت طفلة لا يتجاوز

عمرها السنتين.. كما أنها تساعدني منذ فترة في أبحاثي.. لم أربط مستقبلها برجل يتزوجها لتنتقل معه إلى عش الزوجية.. بل علمتها الاستقلالية والاعتماد على نفسها.. بالمناسبة.. لقد حاولت إجراء تجاربي عليها.. لكنها لم تنجح.. لأن تلك التجارب يجب أن تبدأها مع الطفل في سن مبكرة جدا كما أخبرتك.. المهم أنني حاولت أن ألقنها كل هذه العلوم على أن تكمل المسيرة من بعدي.. لكنها ظلت تصر دائما على أنها عاجزة عن تحمل المسؤولية كاملة.. وتصر دائما أيضا على البحث عن مساعد!!!.. لهذا اختطفتك دون علمي وجاءت بك إلى هنا بعد أن عرفت عنك كل شيء!!.. لقد فاجئني تصرفها هذا.. إذ رأيته متسرعا جدا.. خاصة بعد أن عرفت أنها التقت بك منذ أسبوع فحسب.. لكن (سمر) أصرت على منحك فرصة لتحمل الراية من بعدي.. لأنك تحمل كل الصفات المطلوبة كما تقول عنك.. ذكي جدا.. يتيم الأبوين.. عديم الأقارب.. ورغم ذلك.. رفضت تماما ما فعلته ولمتها على تصرفها المتسرع.. لذا قمت بحجزك في القبو حتى نتخذ قرارنا النهائي بما سنفعله بك!!!.. بالطبع لم نكن نعلم أنك ستوقظ أحد المدفونين الذي مات بالسكتة القلبية بعد أن ظل مدفونا لفترة ليس بالقصيرة تحت الأرض!!!.

يا إلهي.. لقد أنساني كلامه الطويل وحوارنا الشائك كل ما رأيته في القبو!!!.. فسألته بذعر شديد:

-مهلا.. مهلا!!!.. أخبرني ماذا حدث في القبو؟!.. لقد شاهدت أحد الموتى يحفر طريقه خارجا من القبر!!.. هل كان ما رأيته حقيقيا؟؟!.

قال ببساطة:

-نعم!!!.. لا شك أنك نطقت بالأحرف الموجودة على أحد شواهد القبور بصوت مسموع.. أليس كذلك؟!.

أومأت برأسي إيجابا وعلامات الذهول واضحة على ملامحي.. فقال مبتسما:

-جميع من كانوا في القبور ليسوا موتى كما تظن.. بل أناس قمت بتنويمهم مغناطيسيا منذ فترة بسيطة نسبيا.. وتركتهم تحت الأرض بعد أن طلبت منهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي أن يوقفوا جميع وظائفهم الحيوية!!.. على أن يستيقظوا عند نطق تلك الأحرف التي كتبتها على الشواهد حتى لا أنساها!!.

سألته بذعر حقيقي:

-هذا مستحيل.. إنك تتحدث عن إحياء الموتى.. هذا لا يمكن.. لا يمكن!!.

قاطعني مهدئا:

-لم يتحدث أحد عن إحياء الموتى يا بني.. هؤلاء من العمالة السائبة الموجودة في كل مكان في البلد!!!.. لقد تم اختطافهم بواسطة (سمر) بوسيلة شبيهة بطريقة اختطافها لك.. ومن ثم قمت بحقنهم بجرعات محسوبة من المهدئات حتى ألغي إرادتهم تماما وأجعلهم بين حالة الوعي واللاوعي.. لأقوم بعدها بتنويمهم مغناطيسيا ودفنهم.. إنه جزء آخر من تجاربي!!!.. كنت أريد معرفة إلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يوقف أعضاءه الحيوية تحت تأثير التنويم المغناطيسي!!.. لقد شجعني على ممارسة تلك التجربة ما يفعله فقراء (الهند).. فبعضهم يمتلك قدرات عجيبة تتحدى جميع القواعد العلمية.. كالغيبوبة المفتعلة!!.. فمن المعروف علميا أنه في كل حالات الغيبوبة العميقة.. تنخفض جميع المعدلات الحيوية للإنسان كدقات القلب والإشارات العصبية للمخ إلى حد بالغ الضآلة يكفي لبقائه على قيد الحياة فحسب.. وكان العلماء

في السابق يظنون أن افتعال أمر كهذا مستحيل علميا.. إلا أن بعض فقراء (الهند) يمكنهم خفض معدلاتهم الحيوية إلى أدنى حد ممكن بالفعل.. لدرجة أنه يتم دفنهم أحياء لمدة قد تبلغ يوما كاملا!!!.. ثم يخرجون بعدها إلى الحياة أصحاء معافين متحدّين كل قواعد العلم دون أن يعرف أحد السر وراء ذلك ([51]).

غمغمت بحزن:

-يا إلهي أنت أخذت هؤلاء المساكين ودفنتهم أحياء لتحاكي بهم ما يفعله فقراء الهنود؟ !!.. مهلاً.. تذكرت أمراً هاماً.. لماذا لا تحقن جميع العينات البشرية بالمهدئات لإخضاعهم للتنويم المغناطيسي إن كان هذا يلغي إرادتهم؟ !!.. لماذا قلت أنك عاجز عن تنويم الناس مغناطيسيا رغم إرادتهم؟ !!.. فطالما تحقنهم بالمهدئات.. تكون قد حللت المشكلة!!.

قال معاتبا:

-أولا.. إنهم ليسوا مساكين!!!.. بل أبطال.. ضحوا بأنفسهم في سبيل العلم والتقدم.. وهذا أفضل بكثير من وجودهم العبثي!!.. انظر إليهم في كل مكان في (الكويت).. إنهم تائهون تماما.. لا هدف ولا مستقبل لهم.. أما بالنسبة لسؤالك الثاني.. فحتى تلك الطريقة لا تنفع مع الجميع.. لقد فشلت مع الكثيرين غيرهم.. الأمر ليس سهلا ويحتاج إلى المزيد من الدراسة والبحث!!!.

رددت بتحدٍ:

- مهلا.. تقول أنهم أبطال؟ !!.. إنهم لم يختاروا أن يكونوا أبطالا.. أنت اختطفتهم رغم إرادتهم وأتيت بهم إلى هنا.. أنت اخترت لهم بالنيابة عنهم!!!.. وهذا ليس من حقك!!.. فبأي حق تعتبرهم خرافا ضالة تجمعهم في مكان واحد تمهيدا لذبحهم.. بأي حق تظن أنك تملك حاضرهم ومستقبلهم؟!!.

نظر إلى (سمر) وكأنه يستنجد بها.. فقالت مهدئة بعد صمت طويل:

-(خالد).. اسمعني جيدا.. لنبتعد عن تلك الحوارات الفلسفية.. إننا بحاجة إلى شخص آخر يحمل هذا الإرث العلمي!!!.. فأنا أعجز عن فهم كل تلك التفاصيل العلمية الدقيقة لوحدي!!!.. العمر يمضي ب(والدي) أطال الله في عمره.. وتجاربه لم تكتمل بعد.. لذا فقد وجدت فيك فرصة لن تتكرر أن تقود المسيرة من بعده.. إنك ذكي جدا.. وتدرس الطب.. أي أنه تخصص سيساعدك إلى حد كبير دون شك في فهم طبيعة تلك الأبحاث.. كما أنك يتيم الأبوين ولا يوجد لديك أقارب سوى جدتك.. أصدقك القول أنك فرصة نادرة بالنسبة لنا لا أعتقد أنها ستتكرر!!.. لقد شعرت أن الأقدار قادتني إليك.. حتى أنني لم أصدق نفسي عندما كنت أكشف يوما بعد يوم أن كل ما أبحث عنه موجود فيك!!.. صدقني.. أقول هذا الكلام بعد أن قضيت شهورا طويلة أبحث فيها عن شخص مثلك!!!.

رحت أنظر إليهما مرة وأخرى.. قبل أن أسأل العجوز بقلق:

-ماذا لو رفضت؟ !!.. هل ستتركني أرحل لحال سبيلي؟!!.

نظرا إلى بعضهما.. قبل أن يقول بثقة:

-ولم لا.. إنك لا تعرف أي شيء عنا.. ف(سمر) ليس هو اسمها الحقيقي بالطبع!!.. ورقم هاتفها النقال ليس مسجلا باسمها.. ويستحيل تتبعه.. دعك من أن أحدا لن يصدقك لو قررت الكلام

وإبلاغ المسؤولين.. ثم أننا سنقوم بتخديرك مرة أخرى وأخذك إلى سيارتك.. حتى لا تعرف أبدا أين كنت!!.

قلت بذهول شديد غير مصدق أنني أمر في حوار حول موضوع كهذا:

-لن أكذب عليك.. إن ما تفعله لهو أمر رائع بكل المقاييس!!.. لكن له تبعات غير أخلاقية إطلاقا تنسف كل مجهودك!!.. إنك لا تملك الحق يا سيدي باختطاف أحد وإخضاعه لتجاربك.. لا تملك هذا الحق على الإطلاق.

سكت قليلا ووضعت يدي على رأسي من هول الأحداث.. ثم قلت:

-يا إلهي.. كلما أتذكر منظر تلك الجثة وهي تنهض.. تنتابني رجفة لا أستطيع منعها!!!.. ربما تكون حياتهم عبثية كما تقول.. ربما لا هدف من وجودهم!!.. لكنهم لم يختاروا أن يكونوا أبطالا كما تقول.. أنت اخترت بالنيابة عنهم!!!.. إنني أرفض ما تفعله يا سيدي.. أرفضه تماما!!!.

رد بأسف:

-حتى لو كان ما أفعله لمصلحة بلدك؟!.

قلت بحزم:

-نعم!!.. إنك رجل عبقري كما هو واضح وقد قمت بإنجازات علمية رائعة.. لكن تستطيع أن تفعل المزيد دون الاستعانة بحيوانات تجارب بشرية!!!.. ولو كنت مكانك لأنقذت المدفونين في القبو الآن.. سيموتون إن لم تنقذهم.

رد بصرامة:

- موتهم ليس مؤكدا.. لا نعرف ذلك حتى الآن.. أريد أن أعرف إلى أي مدى يستطيع الإنسان الصمود تحت الأرض وهو تحت سيطرة التنويم المغناطيسي.. كما يفعل فقراء (الهند)!!.

أردت أن أعترض على كلامه.. لكنه وضع يده في وجهي.. وكأنه يطلب مني أن أخرس وأستمع إليه!!.. قبل أن يقول بحزم:

-المهم الآن!!.. إنني أطلب منك التفكير للمرة الأخيرة في عرضنا هذا.. لأنك لو رحلت من هنا فلن ترانا أو تجدنا مرة أخرى!!..

قلت بعصبية دون اعتبار لفارق السن:

-هل أنت بكامل قواك العقلية؟ !!.. تطلب مني أن أنهي أحلامي وطموحي وحياتي نفسها لأركض خلفك؟؟!!.. هكذا بكل بساطة؟ !!.. ثم.. من الذي سيمنعني من الخروج من هنا رغما عنكما؟؟!!.. لن تستطيعا منعي بكل تأكيد!!.

زفر بقوة دون أن يرد.. إنه يعلم أنني محق في كل ما قلته!!.. فراح ينظر إلى (سمر) بشيء من العتاب على تسرعها فيما يبدو!!.. لتطرق برأسها في خجل!!. و.. لم أنتظر أكثر من هذا.. نهضت من مكاني.. وأخرجت هاتفي النقال.. ثم نظرت إلى الساعة.. إنها تقترب من الثالثة فجرا!!.. يا إلهي.. إنني هنا منذ أكثر من 6 ساعات تقريبا!!!.. لحسن الحظ أنني أذهب إلى السينما أحيانا كثيرة في أوقات متأخرة.. لذا فلن تقلق جدتي لغيابي!!!.

توجهت إلى باب الغرفة قاصدا الخروج.. لكني كنت مترددا إن كان من المفترض أن أتصل

بالشرطة أم لا.. و... الباب موصد!!.. التفت إليهما قبل أن أقول بصرامة:

-أريد الخروج من هنا!!!.. افتحا الباب!!!.

نظر الشيخ إلى ساعته.. ثم قال بهدوء:

-ستخرج من هنا بعد لحظات سليما معافى.. أعدك بهذا!!.

نظرت إليه دون أن أرد.. وراح بدوره ينظر إلي بثبات بشكل أثار استغرابي.. وقبل أن أنطق بحرف.. شعرت فجأة بدوار شديد!!.. ما الذي يحدث لي؟ !!.. و:

-المعذرة يا (خالد) لقد حقنتك بمنوم قوي بطيء المفعول أثناء فقدانك للوعي.. كان هذا على سبيل الاحتياط خوفا من أنك سترفض عرضنا!!!.. ويبدو أنني كنت محقا كما هو واضح.. على كل حال.. سيبدأ المنوم مفعوله الآن.. وستنام بعمق لمدة ساعة تقريبا.. ثم ستجد نفسك بعدها في سيارتك.. بعد أن يأخذك سائقي إليها.. إنه مخلص جدا ولا يبوح بأسراري لأحد.. اطمئن.. ستكون الأمور على ما يرام.. وستعود بعدها إلى حياتك الطبيعية.. يبدو أن مجيئك إلى هنا كان خطأ فادحا من (سمر).. لكن الآن سوف....

لم أستمع إلى بقية الكلام.. هؤلاء الأوغاد يتلاعبون بي بشكل غريب!!.. هذا ما دار في ذهني قبل أن أقع على الأرض وأغيب تماما عن العالم!!!.

استيقظت بفزع!!!.. لأجد نفسي في المقعد الخلفي في سيارتي غارقا في العرق بسبب حرارة الجو.. نظرت من الشباك.. إنني في منطقة لم يصلها المد العمراني كاملا.. حتى بدا المكان مفزعا إلى حد ما!!.. انتقلت إلى المقعد الأمامي.. أين مفتاح السيارة.. آه.. إنه في جيبي!!.. أدرت المحرك.. نظرة سريعة إلى الساعة.. إنها الرابعة والنصف فجرا!!.. يجب أن أعود بسرعة قبل أن تستيقظ جدتي.

و.. بالفعل.. أقل من نصف ساعة قدت فيها سيارتي وسط الشوارع الهادئة تماما في مثل هذا الوقت المبكر.. قبل أن أجد نفسي في شقتي أخيرا!!!.. يا إلهي.. وكأنني كنت في عالم آخر وقد عدت منه للتو!!!.

دخلت الشقة لأجد جدتي ما زالت نائمة في غرفتها لحسن الحظ.. ثم ذهبت إلى الحمام مباشرة غير مصدق أنني مررت بتجربة غريبة كهذه!!!.. أخذت حماما ساخنا بشكل آلي بسبب عقلي المكدود والتفكير بما جرى.. لأذهب بعدها إلى غرفتي وأستلقي على الفراش شاعرا بالأمان أخيرا.. وأفكر مرة أخرى وأخرى بما حدث!!.

هل يعقل أنني مررت بتجربة كهذه.. وبهذه البساطة أيضا؟ !!.. يا إلهي.. غير معقول.. ولو أخبرت أحداً بما حدث فسيتهمني بالجنون!!!.. ترى.. أين يقع ذلك البيت؟ !!.. في أي منطقة؟ !!.. لا أعلم.. هذا سؤال لن أعرف إجابته أبدا!!.. هل سأرى (سمر) مرة أخرى إن كان هذا اسمها الحقيقي؟ !!.. لا أعتقد.. ثم.. تذكرت كلام ذلك العجوز عن (الكويت).. ورحت عندها أسترجع كل مشاعري وذاكرتي عن وطني الحبيب وعما يعانيه!!!.

لماذا يا ترى؟ !!.. لماذا حدث ما حدث؟ !!.. كانت (الكويت) تنطلق كالصاروخ في فترة الستينات.. فما الذي حدث؟!.. لماذا نفعل في وطننا ما نفعله الآن؟!.. هل نملك الشجاعة لنعلن أن أسباب ما يحل بنا هو تعاظم الاتكالية عند المواطنين؟ !!.. هل نملك الشجاعة لنعلن أننا نعاني من ترهل دولة الموظفين الذين لا ينتج معظمهم عملا ويطالبون بالمزيد من الرواتب والامتيازات؟ !!.. أم هو عجز الحكومة عن بناء البلد؟ ؟!.. لا أعرف.. ولكن أعرف جيدا أن هناك

أموراً خارقة السوء تجري في (الكويت) دون شك.. ولو نظرت حولك لوجدت الفوضى.. القسوة.. الإهمال.. غياب العدالة.. فالحقيقة أن وطننا يتغير بلا انقطاع لكن إلى الأسوأ!!!!.. الناس تشيخ والشوارع تضيق والأماكن تفقد سحرها.

إن أوضاع البلد مخيفة بحق!!!.. دائما هناك أشياء تهدم وأشياء تبنى فلا تأتي أبداً لحظة الاكتمال.. لحظة أن تنظر حولك وتشعر بالراحة!!.. فلا يوجد أي استقرار من أي نوع.. حتى لأشعر أحيانا أن (الكويت) كدولة هي بحكم المنتهية!!.. وإذا لم يتم تعديل المسار.. ستختفي من الخريطة لا قدّر الله.. و المسألة ستكون مسألة وقت لا أكثر!!!.. فأمور الدولة تدار بلا أدنى رؤية.. وليس لدى الحكومة أو القوى السياسية أي مشروع وطني واضح!!.

يقول أحد فلاسفة الإغريق:

((لا يصبح المجتمع عظيما إلاّ عندما يزرع الرجل فيه شجرة وهو يعرف بأنه لن يأكل من ثمارها)).

هذه هي مشكلتنا.. نحن لم نتعلم حتى الآن أن الأوطان تُقتَل حين نأخذ منها دون أن نعطي!!!.. أتذكر هذا الكلام وأنا متدثر تحت اللحاف.. فتدمع عيناي وأنا أجتر مشاعري وذكرياتي..

أفكر بكلام ذلك العجوز مرة أخرى وأخرى.. فأتساءل -كما أفعل دائما -إن كان ما رأيته هذه المرة هو آخر الغرائب.. أم أنني سأعيش لأرى المزيد!!!..

لكني بكل تأكيد لن أنسى ذلك العجوز ما حييت.. إنني حتى لم أسأله عن اسمه!!.. ترى.. هل سيصلح الأمور كما يدعي؟!.. هل يقدر رجل واحد على صنع فارق؟ !!.. إنني لن أراه مرة أخرى على الأرجح.. لكني سأتذكر دائما ما فعله وأقول لنفسي: لو كنا نحب وطننا كما يحبه هذا العجوز وأفنى عمره في سبيله.. لو كان جيلنا يحب (الكويت) بالفعل.. وليس بالقول!!!.. ربما عندها سنصنع الفارق.. أو ربما سيستطيع هو أن يصنع الفارق في المستقبل القريب.. فلا يوجد أقوى من قلب متطوع كما تعلمون!!!.. ولو كان بارعا فليوفقه الله.. أما لو كان نصابا فهذه مشكلته.. لكني لا أعتقد أنه نصاب على الإطلاق.. فقد أدخلني إلى عوالم أخرى لا خداع فيها.

و.. ماذا حدث بعد ذلك؟ !!.. لا شيء يذكر.. سوى رسالة إلكترونية تلقيتها من (سمر) بعد أسبوع تقريبا من تلك الحادثة.. نعم لقد أعطيتها بريدي الإلكتروني بعد لقائي بها بيوم أو يومين بناء على طلبها هي..

كانت تسألني في رسالتها إن كنت قد غيرت رأيي بشأن قبول مشاركتها مع ذلك العجوز في تجاربهما!!.. لكني رفضت.. وأخبرتها أنني أتمنى له ولها التوفيق.. ولا أملك الشجاعة لأغامر بحياتي ومستقبلي بهذه الصورة!!.. ولا أملك الشجاعة أيضا لاختطاف البشر وإخضاعهم لتجارب غريبة كهذه.. أشعر أنه عالم مخيف لا أنتمي إليه على الإطلاق!!.

ثم.. لم ترد على رسالتي بعد أن قوبل طلبها بالرفض!!!.. فأرسلت لها رسالة بعد شهر تقريبا ومن باب الفضول لأعرف أحوالها على الأقل.. لكنها لم ترد.. ولم أعد أراها في مقهى (ستار بكس) ذاته!!!.. لقد انقطعت أخبارها عني تماما ولم أعرف ما جرى لها بعد ذلك.

إنني أشك في قدرة ذلك العجوز على التغيير.. ربما لأنه في سن كبيرة للغاية.. وربما تكون قد وافته المنية أثناء كتابتي لهذه القصة.. أو.. ربما ستقود (سمر) المسيرة من بعده أو تعثر على شخص آخر لمساعدتها.. لا أعلم.. لكني على ثقة أن هذا الرجل يعشق وطنه بجنون يجعلني أقف له

احتراما.. وأنه بتجاربه تلك.. قد اقتحم العقل البشري.. وكشف أسراره.

الخاتمة

(بقلم: خالد سليمان ال...)

عزيزي القارئ..

ها نحن قد انتهينا من رسائل الخوف.. آملا أن تكون قد استمتعت بأحداثها الشائكة.

هل الأحداث المذكورة في تلك الرسائل حقيقية؟ !!.. لا أعلم.. ففي الواقع نحن لا نعرف شيئا عن مرسلي تلك القصص.. لكنها كانت قصصاً ممتعة دون شك.. على الأقل أمتعتني أنا شخصيا.. فشعرت بضرورة مشاطرة قرائي الأعزاء لأحداثها.

بخصوص القصة الأولى (14 يوم).. فقد شعرت بتعاطف حاد مع بطلها (فهد) الذي مزقته الدنيا تمزيقا كما هو واضح.. لكني سعيد للغاية لما آلت إليه أحداث القصة.. إذ يمتلك (فهد) الآن فرصة ذهبية للبدء من جديد.. وأن يكوّن لنفسه حياة جديدة تمتلئ بالأمل لغد مشرق.. وإنني أتمنى بالفعل أن يصل هذا الفتى لأعلى المراتب في المستقبل.. ولنرى بعدها ماذا ستفعل خالته وزوجها وأبناؤهما.. أعتقد أنهم سيصابون بسكتة قلبية.. كما لا أنسى أن أدعوكم لتعلم أهم درس من تلك القصة.. فمهما دار بنا الزمن وألقى بنا في الحضيض.. هناك دائما الفرصة أن ننهض ونقاتل ونستعيد حياتنا.. أرجوكم لا تنسوا ذلك أبدا!!.

أما قصة (أيها الحب.. ترفق).. فهي قصة بسيطة في فكرتها.. لكنها شائكة في أحداثها.. وأشعر أن بطلها قد عانى كثيرا قبل أن يصل إلى الحقيقة التي كانت أمام عينيه طوال الوقت كما ذكر هو بنفسه.. وقد كانت النهاية مؤلمة دون شك.. لكنها لن تقتله على كل حال.. ستظل مجرد ذكرى تغزو عقله بين الحين والآخر.. آملا أن يجد الحب الذي يبحث عنه.

وأحداث هذه القصة عموما كانت أقل وطئا دون شك من القصة الأولى.. إلا أنني لن أقلل من معاناة مرسلها الذي لم يخبرنا باسمه.. إذ طالما يقول أنه كان يشعر بالألم والحزن أثناء مروره بتلك التجربة.. فسنحترم مشاعره بكل تأكيد.

أما قصة (بعد أن احترقت زوجتي).. فلا أعرف رأيكم فيها.. لكنها كانت مخيفة جدا -بالنسبة لي على الأقل-وأصابتني بقشعريرة لم أشعر بها منذ زمن.. ولكن.. لا نعرف في الواقع إن كان صاحب الرسالة قد كتبها وهو في مستشفى الأمراض العقلية بالفعل.. أم أنه يتلاعب بنا خلف شاشة جهاز الكمبيوتر في غرفته.

عموما.. لو كانت القصة حقيقية.. فإن هذا الرجل مجرم حقيقي.. ومن المؤلم أن ينتهي به الأمر في مستشفى الأمراض النفسية فحسب.. بل كان من المفترض أن يلقى مصيره عند حبل المشنقة.. إذ قام بحرق امرأة ضعيفة لا ذنب لها وكانت بحاجة ماسة إلى مساعدة طبية عاجلة!!..

ورغم هذا.. يخبرنا بكل وقاحة أنه ليس إنساناً سيئاً!!.. بل وراح يضع العذر تلو الآخر ويتحدث عن العثور على فرصة العمر وعن أن البشر ليسوا ملائكة ومن هذا الهراء!!.. بالطبع أختلف مع ما قاله تماما.. فلا أعتقد أن جميع الأزواج متحمسون لحرق زوجاتهم كما فعل هو!!!.

على كل حال.. قد يتعاطف معه بعضكم.. في حين يراه البعض الآخر مجرما يستحق القتل.. لكن.. ورغم كل شيء.. تبقى قصة غريبة تنضم عن جدارة إلى قصص عالم ما وراء الطبيعة.

أما القصة الأخيرة.. وهي قصة شخصي المتواضع.. قد يراها بعضكم تفتقد بعض الشيء إلى الإثارة التي اعتدتم عليها في تجاربي المتواضعة.. رغم أنها أصابتني برعب وتوتر لا حدود له وأنا أمر بأحداثها.. وأيقظت بداخلي تلك المخاوف التي أشعر بها منذ 5 سنوات أو أكثر.. مخاوف نهاية وطني.. مخاوف أن تذكر كتب التاريخ بعد مائة عام: ((كان هناك بلد في منطقة الخليج اسمه الكويت)).. أتمنى أن أموت على أن أرى هذا اليوم.. ولكن.. كل شيء يوحي بتلك النهاية مع الأسف. إنني أشعر منذ مدة طويلة بنشر هذه التجربة.. كنت أريد أن أساهم ولو بالقليل لإيقاظ الحس الوطني عند المواطن الكويتي.. ذلك الحس الذي غطاه صدأ الطائفية والقبلية والتعصب بكل أنواعه.. آملا من كل قلبي أن تعود كويت الستينات الرائدة مرة أخرى إلى الواجهة.. إنه حلم أتمنى أن أراه يوما!!.

ولا ننسى أن نذكر تلك التجارب الرهيبة التي أجراها ذلك العجوز.. إنها تجارب علمية بالغة الغرابة تستحق أن نكتب عنها بالفعل.. ولا أعلم إن كان قادرا على أن يصنع الفارق كما ادعى أم لا!!.. لكني على كل حال.. أعيد ما ذكرته سابقا.. ليتنا جميعا نحب (الكويت) كما أحبها ذلك العجوز!!!.

نصل هنا إلى ختام هذه المجموعة من الرسائل.. ماذا؟!.. تسألون إن كنت سأعود لكم مرة أخرى برسائل جديدة؟!.. أو تجارب جديدة تعرضت لها؟!.. أو حتى ب(ديكاميرون) ([52]) جديد كما حدث سابقا؟!.

ربما.. فالمستقبل أمامنا وليس خلفنا كما تعلمون.. وجميع الاحتمالات واردة.. لكن.. اليقين الآن هو أن لحظات التوتر والترقب قد أصبحت جزءا هاما من حياتي.. حتى باتت الأيام التي أعيشها دون خوف نادرة جدا.. بعد أن وجدت الرعب والقلق وكل المفردات المرادفة الأخرى في كل مكان حولي.. حتى في صندوق بريدي الالكتروني.. وفي تلك الرسائل التي نشرتها لكم.. رسائل الخوف!!!.

خالد سليمان ال....

عزيزي القارئ

أود الإشارة هنا إلى أن معظم المعلومات العلمية المذكورة في قصة (الذي اقتحم العقل) مستوحاة من دراسة حول العقل البشري والقدرات البشرية قام بها رائد أدب الخيال العلمي في العالم العربي وهو أستاذي الدكتور (نبيل فاروق).. وهي معلومات حقيقية مؤكدة لا شك فيها ومذكورة في جميع المراجع العلمية كما أشرت سابقا.

كما أود أن أشير إلى أمر آخر.. إذ تصلني بشكل دائم تقريبا رسائل كثيرة في البريد الإلكتروني من قرائي الأعزاء يبعثون لي من خلالها إنتاجهم الأدبي.. سواء كانت قصصاً قصيرة أو خواطر أو حتى روايات.. ويطلبون مني إبداء رأيي فيها.. وعندما أتأخر في الرد.. يظنون أن في تصرفي هذا نوعا من التعجرف!!.

أرجوكم دعوني أوضح نقطة هامة.. وهي أنني تقريبا لا أفتح بريدي الإلكتروني إلا وأجد فيه رسائل مليئة بكتابات القراء.. والرد على كل هذه الرسائل في وقت قصير مستحيل بكل المقاييس.. وإلا لما وجدت الوقت للذهاب إلى العمل أو حتى كتابة مؤلفاتي!!!.

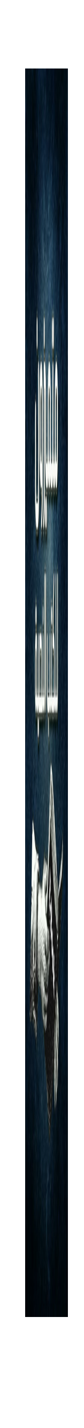
لذا أحاول قراءة تلك الأعمال متى ما سنحت الظروف.. ولكن هذا يقود إلى مشكلة أخرى.. وهي تراكم هذه الأعمال لدرجة لا تصدق!!.. بل أنني في فترة من الفترات فوجئت بأنني لا أقرأ حرفًا إلا ما كتبه القراء.. حتى الجريدة لم أعد أجد الوقت لقراءتها!!..

لذا فأنا أرجوكم إعطائي الفرصة والوقت الكافي لقراءة إنتاجكم الأدبي بتأنٍ وإبداء رأيي فيه وثقوا تماما أنني لا يمكن أن أهمل أي رسالة.

و.. ها قد وصلنا أخيرا إلى النهاية.. آملا أن نلتقي مرة أخرى مع إصدارات جديدة بإذن الله.

م. عبد الوهاب السيد الرفاعي

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

فهرس المحتويات:

الملاحظات

[←1]

(1) فيلم من إنتاج عام (1990) مأخوذ من رواية تحمل الاسم ذاته.. وهو فيلم سوداوي أصابني شخصيا باكتئاب شديد.. يتحدث عن تلاميذ مدرسة من المراهقين والأطفال كانوا مسافرين على متن طائرة سقطت بهم بسبب حادث ما.. وتوفي طاقم الطائرة بأكمله مع المسؤولين عنهم.. في حين نجا 25 تلميذاً.. ووجدوا أنفسهم في جزيرة نائية بعيدة عن الحضارة.. و.. شيئا فشيئا.. تحولوا إلى وحوش.. فارتكبوا بحق بعضهم كل ما يخطر ببال.. من قتل وضرب وتعذيب!!.. قبل أن تعثر فرق الإنقاذ عليهم أخيراً.

[←2]

(2) أعراض (منخاوزن) أو متلازمة (منخاوزن) (Munchausen Syndrome).. هو اضطراب نفسي يجعل الإنسان يدعي المرض باستمرار وحاجته الماسة للعلاج الطبي.. فقط ليحظى باهتمام وشفقة الناس.

[←3]

(3) حقيقة مع الأسف.

[←4]

(4) ملاحظة من (خالد سليمان الـ...): بكل تأكيد أفرحني حديث (فهد) عن هذا البيت لأنه يقع في منطقة (الرميثية) وهي عشقي الأبدي كما تعلمون.. كما أنني أعرف البيت جيدا وهو قريب من شقتي بالمناسبة!!.

[←5]

(5) حقيقة.

[←6]

(6) حقيقة.

[←7]

(7) كل ما ذكر عن داء المشي أثناء النوم هو حقائق علمية.

[←8]

(8) حقيقة.

[←9]

(9) توماس تشيبيندال (1718 - 1779): نجار انجليزي شهير جدا عرف ببراعته في صناعة الأثاث الفاخر.. وكان أول صانع أثاث في التاريخ يقوم بتأليف كتاب يتحدث فيه عن تصميماته وكان كتابه بعنوان (The Gentleman and Cabinet Maker's Director).. علما بأن هناك 7 قطع من الأثاث هي كل ما تبقى من تاريخ هذا الفنان العبقري.. وجميعها حاليا مملوكة لأكبر وأثرى عائلات العالم.. ويوجد حاليا تمثال صمم تكريما لهذا الفنان وهو موجود في مدينة (أوتلي Otley) بالقرب من مدينة (ليدز Leeds).. وجدير بالذكر أنه قد تم صنع نسخة شبيهة من هذا الدولاب في عام 1760.. وتم بيعها بأكثر من 12 مليون دولار في إحدى المزادات في (الولايات المتحدة الأمريكية) وهو أعلى سعر لقطعة أثاث تباع في مزاد في التاريخ!!!.. لقد تم بيع النسخة الشبيهة بهذا المبلغ!!!.. فماذا سيكون سعر النسخ الحقيقية؟ !!.. لنا أن نتخيل.

[←10]

(10) حقيقة.. جرة آسيوية الصنع مجهولة الهوية تم صنعها في القرن السابع عشر.. وقد تم بيعها في مزاد علني في (نيويورك) بمبلغ 8 ملايين دولار بالفعل.. وهو أعلى سعر في التاريخ لقطعة أثرية من شرق آسيا.

[←11]

(11) إنه يتحدث عن طبق حساء فرنسي الصنع فضي اللون.. عادي الشكل كما يبدو لكل من يراه.. لكنه في واقع الأمر صنع عام 1733 من قبل (توماس جيرمين) (Thomas Germain) وهو نحات فرنسي عرف بصنع الكثير من المقتنيات بواسطة الفضة فقط.. وجدير بالذكر أن هذا الطبق تحديدا يحمل رقما عالميا قياسيا في المقتنيات النادرة.. فقد تم شراؤه بحوالي عشرة ملايين دولار!!!.

[←12]

(12) قصة حقيقية.

[←13]

(13) يعتبر (البلاتين) أو الذهب الأبيض كما يطلق عليه من أثمن المعادن.. وقد تم اعتباره منذ عام 1978 من المعادن التي تؤثر على قيمة العملات الدولية وقوتها.. وتملك (روسيا) كميات هائلة من احتياطي الذهب الأبيض تتعدى (55%) من إجمالي الاحتياطي العالمي.. في حين تملك جنوب أفريقيا ما يقارب (25%) من الاحتياطي العالمي.. ويستعمل البلاتين في الصناعات الكيميائية.. وأكثر الدول المستهلكة له هي: (اليابان).. (الولايات المتحدة الأمريكية).. و(روسيا).

[←14]

(14) لفظة فرنسية تعني (شوهد من قبل)، وهي ظاهرة حقيقية يعترف بها معظم العلماء، ويتعرض لها الكثير من الناس، كأن تتعرض لموقف وتكون متأكدا من أنك تعرضت له سابقا وبكل تفاصيله الدقيقة، على الرغم من أنك لم تتعرض له إطلاقا، أو أن تزور مكانا تحسب أنك زرته من قبل على الرغم من أنك لم تزره في حياتك.. تقول إحدى النظريات أن سبب تلك الظاهرة هو خلل مجهول الأسباب يصيب الدماغ فيجعله يسجل في ذاكرتك دون أن تدري بعض الأحداث التي لم تحدث لك، وإذا عشت تلك الأحداث مستقبلا تكتشف أنها مسجلة في ذاكرتك!! ولا أحد يعلم شيئا عن مدى صحة هذه النظرية، فالواقع أن ظاهرة (ديجافو) هي من أكثر الظواهر الخارقة للطبيعة غموضا وانتشارا بنفس الوقت، وحتى النظريات القليلة التي وضعت لتفسيرها غير واضحة وتحوي العديد من الثغرات.

[←15]

(15) هذا ما يقوله خبراء علم النفس بالفعل.

[←16]

(16) (أويجا) كلمة ليس لها أصل معروف.. ولكن يقال أنها كلمة فرعونية تعني (الحظ الحسن).. وقد انتشر لوح (أويجا) بشكل كبير في نهاية القرن العشرين، ليصبح مع مرور الوقت لعبة تباع في محال الألعاب العادية بأسعار في متناول الجميع، حيث يحتل هذا اللوح ثاني أعلى مبيعات ألعاب الألواح في العالم بعد لعبة (مونوبولي) الشهيرة.. وتتراص في منتصف هذا اللوح حروف الهجاء اللاتينية في صفين مقوسين متوازيين، ويوجد أسفلهما مستطيل تتراص فوقه الأرقام من صفر إلى تسعة، أما في الطرفين العلويين للوح فهناك كلمتان (نعم) و(لا)، وفي القاع توجد كلمة (إلى اللقاء)، ولا ننسى أحد أهم أجزاء اللعبة وهو المؤشر، والمؤشر هذا عبارة عن لوحة خشبية أو معدنية صغيرة قائمة على عجلتين، حيث تستخدم الروح التي يتم تحضيرها الحروف والأرقام الموجودة على اللوح للتحاور والإجابة على الأسئلة التي توجه إليها من خلال المؤشر، ومن أكثر أسباب انتشار هذا اللوح هو تكرار ظهوره في العديد من الأفلام الأجنبية، منها الفيلم الأجنبي الشهير (طارد الأرواح)، أما عن مدى مصداقية تلك اللعبة فهذا ما لا يعرفه أحد، فنجد أن هناك من يؤمن بها ويتحمس لها وهناك من يرفضها جملة وتفصيلا.

[←17]

(17) تجربة حقيقية هزت كل قواعد لوح أويجا.. إلا أنها لم تحسم الأمر حتى الآن.. فلا زال البعض يؤمن بهذا اللوح وأنه قادر على الاتصال بالأرواح.

[←18]
(18) كل ما قاله الطبيب عن حالات (فقدان الإحساس بالزمن) هو حقائق علمية مؤكدة.

[←19]

(19) راجع إصدار المؤلف (الأبعاد المجهولة).. لكنه ليس مرتبطاً إطلاقا بقصتنا هذه.

[←20]

(20) قصة حقيقية تماما ذكرت في معظم المراجع العلمية المتخصصة.. حيث أثارت ضجة واسعة بين خبراء علم النفس دون أن يجد أحد منهم تفسيرا واضحا لها.. وقد تحدث البعض عن نظرية (الوجدان الجمعي) كمحاولة لتفسير تلك الواقعة.. إذ تتلخص هذه النظرية في أن هناك مناطق مظلمة في عقول البشر تحتوي على خبرات متراكمة عبر الأجيال وتنتقل من السلف إلى الخلف.. وقد تطفو تلك الخبرات بوسيلة مجهولة إلى العقل الواعي بين الحين والآخر كما حدث في هذه الواقعة.. إلا أن هذا لم يفسر لماذا رفض الطفل (برامود) هويته الحقيقية وأصر على أنه (بارامنندا).

[←21]

(21) تناسخ الأرواح هو اعتقاد تؤمن به بعض الطوائف المنتشرة في مختلف أنحاء العالم، وهو أنه عند وفاة الإنسان، فـإن روحه تتجسد في حيوان أو إنسان آخر، ويخطئ بعض المؤمنين بتناسخ الأرواح في تفسيرهم لقاعدة علمية شهيرة، والتي تستند إلى أن الروح عبارة عن طاقة، وبما أن قانون الطاقة الشهير يقول: (الطاقة لا تفنى ولا تستحدث من عدم، إنما تتحول من صورة إلى أخرى)، فهم يعتقدون أن هذا دليل قاطع على حدوث تناسخ الأرواح. ويجب أن نذكر في النهاية أن التناسخ أمر مرفوض تماما تنفيه جميع الأديان السماوية ولا توجد أي أدلة علمية قاطعة تؤيد حدوثه.

[←22]

(22) عالم وفيزيائي شهير قلب موازين علوم الفيزياء رأسا على عقب عندما خرج خلال الأعوام 1905 - 1915 بما يسمى ب. (النظرية النسبية).. حيث كسر فيها القواعد العلمية بعد أن أضاف الزمن كبعد رابع إلى الأبعاد الثلاثة المعروفة (الطول - العرض - الارتفاع).. وذكر أن الزمن نسبي يختلف من مكان إلى آخر.. كما أنه أول من تحدث عن إمكانية السفر عبر الزمن لو امتلكنا الوسيلة المناسبة لذلك.

[←23]

(23) هذا هو تعريف الأشباح الضاجة بالفعل.. إلا أنه -كمعظم ما يتعلق بالأشباح عموما- لم يحسم وجودها بشكل قاطع حتى الآن.

[←24]

(24) حقيقة.. هذا ما ورد في وثائق الحضارة المصرية القديمة.

[←25]

(25) كل الكلام المذكور عن الأشباح هو نظريات حقيقية.

[←26]

(26) هذا ما يحدث في حالات حروق الدرجة الثالثة بالفعل.

[←27]

(27) حقيقة.

[←28]

(28) حقيقة.

[←29]

(29) اختصارا ل(Near Death Experience) وهو فرع من علوم ما وراء الطبيعة وقد خضع للعديد من التجارب.. إلا أن أسراره لم تكشف أو تحسم بشكل قاطع حتى الآن.

[←30]

(30) أحد النظريات التي وضعت لتفسير ظاهرة الأشباح الضاجة.

[←31]

(31) هذا ما يقوله العلماء بالفعل.

[←32]

(32) هذا ما يقوله المختصون بدراسة هذه الظاهرة.

[←33]

(33) حقيقية.. وهناك تجارب عديدة حول هذا الأمر قام جهاز الاستخبارات السوفييتي بإجرائها في سرية بالغة.. إلا أن بعض تلك التجارب قد تسربت إلى الإعلام بعد انهيار الاتحاد السوفييتي في بدايات التسعينيات من القرن الماضي.. وقد تحدث المؤلف عن هذا الأمر بشيء من التفصيل في كتابه (خلف أسوار العلم).

[←34]

(34) القتل الرحيم (Euthanasia): قانون يبيح للأطباء قتل مرضاهم المصابين بأمراض خطيرة والميؤوس من شفائهم.. وهو قانون دار عليه جدل هائل في معظم أنحاء العالم.. فهناك من يراه أخلاقي كوننا نضع من خلاله نهاية لمعاناة المريض وعذابه.. وآخر يراه عملا سافرا ينطوي على اليأس من رحمة الله سبحانه وتعالى.

[←35]

(35) راجع إصدار المؤلف (الأبعاد المجهولة).. علما بأنه لا يرتبط إطلاقا بقصتنا هذه.

[←36]

(36) واحدة من أشهر قصص الجرائم في (مصر) وربما في العالم العربي.. وهي عن شقيقتين متزوجتين شكّلتا مع زوجيهما في عام 1920 بما يشبه العصابة.. حيث كانوا يقومون باختطاف النساء ومن ثم خنقهن وسرقة مصاغهن.. حتى بلغ ضحايا تلك العصابة ما يفوق العشرة نسوة أو ربما أكثر قبل أن يتم القبض عليهم والحكم عليهم بالإعدام شنقا.

[←37]

(37) راجع إصدار المؤلف (في الجانب المظلم).. إلا أنه ليس مرتبطا على الإطلاق بهذه القصة.

[←38]

(38) حقيقة.. ويمكن استخدام طريقة (تأثير الغفلة) (Placebo Effect) في علاج المرضى أيضا.. فقد قام أحد الأطباء باستخدام تلك الطريقة بالفعل لعلاج مرضاه من السرطان.. فأعطاهم دواء مزيفاً وقال لهم أن هذا الدواء جديد وسيساعدهم على التخلص من السرطان.. وبالفعل!!.. ظهر بعض التحسن على المرضى من جراء أخذهم لما اعتقدوا أنه يشفيهم.. لذا فعند اختراع دواء ما.. يتم التأكد من خلال عدة اختبارات أن تأثيره فيزيائي أيضا وليس نفسي فقط.9

[←39]

(39) حقيقة

[←40]

(40) حقيقة (

[←41]

(41) تجربة علمية حقيقية قام بها مجموعة من العلماء.. وقد نشرت في العديد من المجلات العلمية المتخصصة.

[←42]

(42) حقيقة.. وقد أثبتت تجارب العلماء هذا الأمر بالفعل.

[←43]

(43) كل الكلام المذكور هو حقائق علمية.

[←44]

(44) كل الكلام المذكور هو حقائق علمية.

[←45]

(45) تجربة حقيقية قام بها مجموعة من العلماء ونشرت في العديد من المجلات والمواقع العلمية المتخصصة.. وقد أثارت ضجة هائلة في الأوساط العلمية وأثارت تساؤلات لا حدود لها عن مدى قدرات العقل البشري!!!.. وجدير بالذكر أن منظمات حقوق الإنسان قد أوقفت تلك التجارب ومنعت العلماء من استخدام الأطفال في تجاربهم العلمية.

[←46]

(46) حقيقة.

[←47]

(47) حقيقة.

[←48]

(48) حقيقة.

[←49]

(49) كل المعلومات المذكورة حقيقية.

[←50]

(50) كل المعلومات المذكورة حقيقية.

[←51]

(51) حقيقة.. وقد تحدث المؤلف عن هذا الأمر بشيء من التفصيل في كتابه (خلف أسوار العلم).

[←52]

(52) (ديكاميرون) هو اسم رواية قديمة جدا لكاتب إيطالي اسمه (جيوفاني بو كاشيو) عاش بين عامي 1313 - 1375.. إذ تحدث الكاتب في روايته تلك عن واقعة مرض الطاعون الذي ضرب مدينة (فلورنسا) عام 1348.. فقد خرج من المدينة الموبوءة سبع فتيات وثلاثة فتيان واتجهوا إلى الريف هربا من الإصابة بهذا المرض المعدي.. فبقوا هناك عدة أيام بانتظار زوال موجة الطاعون التي أصابت قريتهم. ولكي يقتلوا الملل ووقت الفراغ.. كان على كل واحد منهم أن يروي قصة واحدة في اليوم لحين زوال الطاعون عن القرية.